الشباب والتوتر النفسى

تأليف
يوسف ميخائيل أسعد

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتاب : الشباب والتوتر النفسى

المؤلف : يوسف ميخائيل أسعد

رقم الإيداع : ١٩٧٧

تاريخ النشر : ٢٠٠١

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-215-454-1

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

مقـــدمة

أحسست بأن الشباب يعانى من مشكلات كثيرة فى عصر تضاربت فيه القيم، واتسعت فيه رقعة الحضارة وتقلباتها. ووجدت أن من واجبى أن أعبر عن الانفعالات الدفينة التى يتلظى فيها الشباب .

ومشكلات الشباب ترتبط ارتباطا وثيقًا بالحضارة وبما تفرضه عليهم من مشكلات مناهضة للفطرة ، وطبيعتها تختلف عن طبيعة الوجود الطبيعى . لقد خلقت الحضارة أوضاعا ومتطلبات كثيرة إذا لم تعالج بحكمة فإنها ستؤدى فى النهاية إلى انهيار صرح قيم عزيزة على نفوسنا .

وعلى التربية تقع مسئولية توجيه الشباب . ولكن التربية يجب أن تقف أولا على مشكلات الشباب ، ثم عليها بعد ذلك أن تقوم بدراستها حتى تحدد جذور تلك المشكلات وأخيرًا يمكن وضع الخطوط والمناحى الجديدة التى ينبغى أن نعدِّل مسار حياتنا وفقها .

ولقد يختلف معنا الكثيرون فيما ذهبنا إليه من تفسير لمشكلات الشباب، ولكن الذى سوف لا يختلف حوله أحد هو قولنا بأن الحضارة الإنسانية جلبت معها مشكلات كثيرة لم يكن إنسان القبائل البدائية يعانى منها .

وما أحسه وقد انتهيت من هذا الكتاب . وأخذت فى كتابة مقدمته ، هو أنى كنت صادقًا مع نفسى ، وأنى لم أقدم إلا ما أحسست بصدقه واتساقه مع كوامن فكرى.

أما القصص التى سيصادفها القارئ فى سياق معالجتى للموضوعات فإنها قصص حقيقية وليست من نسج الخيال . وأعتذر عن تقديمى لإحداها باللغة العامية وذلك لأنى شعرت أن تقديمها بنفس اللغة التى دار الحديث بها أقرب إلى الواقع من تحويل ما قيل بالعامية إلى العربية الفصحى .

وأخيرًا أرجو ألا يحكم القارئ على الكتاب إلا بعد أن ينتهى من قراءته . وألا يشكل حكما سريعًا نتيجة انطباع جزئى بعد قراءة فصل واحد أو جزء معيَّن منه .

يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

الاحتجاج الصامت

لا نريد أن نكون عيالا

ولد الإنسان بيدين يعمل بهما ، وبرجلين يسعى عليهما ، وبحيوية يريد أن يستغلها للتحرك فى المكان ، ولالتقاط رزقه بنفسه . والإنسان بطبعه كاره للعجز ومحب للاستقلال والاعتماد على النفس . ولكن المجتمع الحديث يحرم الشباب من المقومات الطبيعية التى جبل عليها ، وقد حكم بالإبقاء على شباب الحضارة فى عزلة عن فئة العاملين وأن يظلوا فى مرحلة التجهيز والإعداد لمستقبل غامض لا يمكن استكشافه أو تحديد معالمه بدقة .

وعلى الرغم من أن المجتمع الحديث يظن أنه قد أنعم على الشباب بنعمة الضمان والرعاية والعناية ، فإن هذه العطايا التى يقدمها عالم الكبار إلى عالم الصغار هى فى الواقع عطايا مفروضة عليهم فرضًا ، وهم عنها عازفون ولها كارهون .

يقول الشباب: «إننا لا نريد أن نكون عيالا . إننا نريد أن نحيا .. أن نعمل .. أن نثبت وجودنا .. لماذا تضيعون منا زهرة العمر وقد أغلقتم علينا تلك السجون التى أطلقتم عليها خطأ: اسم المدارس والكليات ، وقد جعلتم حولها سورًا أضخم من سور الصين العظيم يحول بيننا وبين المشاركة فى الحياة العملية . إننا متفرجون على الحياة، ولسنا مساهمين فى صنع الحياة» .

قامت ذات يوم مناقشة محتدمة بين طالب ومدرس بإحدى المدارس الثانوية، وقد أعلن الطالب احتجاجه على مدرسه ذاك؛ لأنه وصفه بأنه «عيِّل». قال الطالب للمدرس: «أنتم الكبار لم تسمحوا لنا بالعمل. إنك تصفنى بأنى «عيِّل»، وهذا الوصف صحيح من حيث المفهوم اللغوى ، لأنى بالفعل عالة على أسرتى، ولا أعتمد على نفسى فى اكتساب رزقى . ولكن من المسئول عن حالتى هذه ؟! أنتم الكبار الذين عزلتمونا عن الحياة وجعلتمونا أشخاصًا هامشيين» . سكت المدرس بإزاء الحجج الدامغة التى أخذت تتدفق من فم ذلك الطالب الذى عبر بطلاقة عن المأساة النفسية التى يحياها شباب اليوم .

وفى إحدى الأمسيات جاء أحد الشبان إلى والده وكان وقتها منقولا من الصف الأول الثانوى إلى الصف الثانى ، وطلب منه أن يتعلم هندسة السيارات وقيادتها. فلما سأله والده عن الباعث الذى دفع به إلى التفكير فى ذلك ، أجاب الشاب بقوله: «أريد يا والدى أن أشق طريقى فى الحياة ، وأن تكون بيدى صناعة أعتمد عليها؛ حتى أحمى نفسى من المفاجآت التى لا تقع فى الحسبان» . ماذا تظن كانت إجابة الأب. إنه حزن لسماع ذلك الكلام واتهم ابنه بأنه يتخذ طريقًا هروبيًّا ، وأن ما يساوره من أفكار من هذا القبيل إنما هى أفكار هدامة ومهددة لمستقبله بالضياع . ألا يحتمل أن ينصرف الابن عن مواصلة الدراسة عندما يذوق طعم النقود وعندما يجد أنه يستطيع الاستغناء عن الالتحاق بالجامعة ويكتفى بما استطاع أن يحصل عليه من مهارة فى إصلاح السيارات وقيادتها ؟ ومن ثم استمسك ذلك الأب بأن يظل ابنه «عيلا» وألا يفطم بالانخراط فى الحياة العملية حتى يتم دراسته الجامعية .

وحدث فى أحد المؤتمرات التربوية التى تتناول قضايا التعليم أن قام أحد المدرسين الشبان المتحمسين وطالب بإدخال الحرف بالمدارس الابتدائية وقال: «إننى لا أعتقد أننا نفى طبيعة الطفل حقها إلا إذا سمحنا ليديه بالتمرس بالعمل

اليدوى وجعلناه يحس بأنه جزء من المجتمع المنتج. إن الطفل برغم اعترافه بأنه أصغر من الكبار حجما وقدرة فإنه لا يعترف بأنه كائن عاجز عن أن يلعب دورًا إيجابيا مفيدًا فى هذا العالم» . كان ذلك المؤتمر يضم عددًا من كبار رجال التعليم. فماذا كان ردهم على هذا الصوت الشاب؟ الهزء والسخرية منه . قال أحد الموجهين له: «هل تريد أن نعلم الأطفال السباكة وكنس الشوارع وتصليح بوابير الجاز!» وضحك الحاضرون ، وسكت المدرس الشاب بعد أن وجهت إليه نظرات الاستهجان والاستخفاف . وهمس أحد أصدقائه فى أذنه قائلا . «إن عيبك فى أنك مندفع وتقدم أفكارًا غريبة ظاهرة البهتان. ليتك تفكر جيدًا قبل أن تعلن رأيك» .

وقصة أخرى خاصة بأحد طلبة الثانوى . انتهز فرصة عطلة آخر العام وتمرن على الكتابة على الآلة حتى أتقن الكتابة عليها . وفى العام الدراسى الجديد كانت هناك مذكرات إضافية مما يؤلفه المدرسون للطلبة . فأبدى ذلك الطالب استعداده لكتابتها بنفس الأجر الذى تكتب به عادة بمكاتب الآلة الكاتبة. وصل الخبر إلى ناظر المدرسة فما كان منه إلا أن أرسل يستدعى الطالب ، وأخذ فى تأنيبه؛ لأنه يطمع فى أخذ أجر سوف يدفعه زملاؤه من مصروفهم . وبعد التوبيخ حذره من الفصل من المدرسة إن هو تورط فى أمر كهذا ؛ لأنه أتى إلى المدرسة لكى يتعلم وليس لكى يجعل منها مجالا للتكسب ، وأمره بكتابة كل ما يؤمر به بغير مقابل . ماذا كانت النتيجة ؟ . حزن الطالب وندم على ما بذله من جهد ، وأخذ يكتب برداءة ما كان يطلب المدرسون منه كتابته؛ حتى ينصرفوا عن تسخيره ، وانتهى الأمر به إلى كراهية الآلة الكاتبة والانصراف عن التمرس بها حتى كاد الآن أن ينساها .

وثمة أحد الطلبة بالجامعة بإحدى كليات الآداب كانت هوايته كتابة القصة القصيرة . كتب ذات يوم قصة وأرسل بها إلى إحدى المجلات . فراقت لها وقامت بنشرها بغير أدنى تعديل . فرح الطالب المؤلف. ثم اتجه فى نفس اليوم

الذى نشرت فيه قصته إلى رئيس التحرير الذى أحاله إلى سكرتير التحرير . سأل الطالب عن المكافأة المالية أو الأجر عن قصته المنشورة. ابتسم الأستاذ سكرتير التحرير ابتسامة ساخرة وقال له: «ألا يكفيك أننا شجعناك ونشرنا لك القصة مع أرضا ذات مستوى أقل من المتوسط ولا يحدونا فى ذلك إلا تشجيع الأقلام الشابة؟ كان الأحرى أن نطالبك نحن بالأجر لأننا نشرنا اسمك على صفحات المجلة مجانا». كان الطبيعى أن يستحيل سرور ذلك الطالب إلى حزن وقد لف العدد من المجلة الذى يضم قصته وهمس فى سره لنفسه قائلا «إنك لمغفل.. إذن لماذا تضيع وقتك؟! طظ فى اسمك ما دام اسما بلا رصيد» .

وهذه قصة شاب بقسم اللغة الإنجليزية بإحدى كليات الآداب أيضًا ، أبدى استعداده لأن يدرس لمن يشاء من تلاميذ المدارس الخاصة الذين يدرسون اللغة الإنجليزية ويجدون صعوبة فى استيعابها ، وذلك نظير أجر ضئيل؛ حتى يستعين بما يحصل عليه فى شراء لوازمه الخاصة والكتب التى تطلبها الجامعة منه ، وأقبل عليه بالفعل كثير من الأقرباء والجيران والمعارف يطلبون منه أن يقدم المساعدة لأبنائهم، وقد ترك تقدير أتعابه لذوقهم. وبعد انتهاء الشهر الأول من تدريس منتظم بجدية وإخلاص ، أخذ الآباء والأمهات فى الاعتراف له بأنه أستاذ له مستقبل باهر، وأخذوا فى شكره على ما بذله من جهد وما أبداه من إخلاص . ولكنه لم يجد أحدًا من جميع الآباء والأمهات الذين قام بمساعدة أبنائهم يضع يده فى جيبه؛ لينزع منه قرشًا واحدًا يقدمه إليه. لقد اكتفوا بالكلام المعسول والشكر الذى لا يجد له بنكا يعتمد صرفه وتحويله إلى نقود. ولما أبدى امتعاضه ممتنعًا عن الاستمرار فى تدريس الأطفال ، أخذ الآباء والأمهات وجميعهم من الأقرباء والمعارف والجيران يشتكون منه؛ لأنه عود أطفالهم على أن يدرسهم بل إن بعضهم أخذ يطعن فى مادته وفى قدرته على التدريس وأن عدم تلقى العلم على يديه أكسب وأفضل؛ لأنه جاهل ولا يعرف من اللغة الإنجليزية شيئًا . وسخر بعضهم منه قائلين «إنه يريد أن يسبق الزمن وأن ينصب من نفسه مدرسًا قبل الأوان» .

وفى الإسكندرية كانت إحدى العائلات المحترمة تصيف ، نبتت فكرة فى عقل أحد أبنائها وكان طالبًا بكلية الطب. هى أن يقوم بمشروع عمل ساندوتشات فول وطعمية وخلافه ويبيعها بحيث يستطيع من الربح أن يشترى لنفسه بعض المراجع التى يجد والده شيئًا من الصعوبة فى مده بها لارتفاع ثمنها. ويبدأ الشاب فى تنفيذ مشروعه. ولكن ما كاد يبدأ حتى قامت الدنيا وقعدت: أخذ الأب والأم فى إبداء الامتعاض الشديد من الفكرة، واتهما الابن بالشطط والتقليعات الغبية، «ماذا يقول الناس عنك فى المستقبل؟ هل تحب أن يسميك الناس الدكتور سندوتش؟! ياللعار.. هل تريد أن يقول عنا فلان وعلان: أننا عجزنا عن الإنفاق عليك ، وأنك لجأت إلى بيع السندوتشات؛ لكى تساعد والدك ؟! انظر إلى المستقبل ، إن هذه الوصمة ستظل تلاحقك مهما صرت من مشاهير الأطباء المعدودين» وكان من الطبيعى أن يقلع الشاب عن مشروعه ويركن إلى تضييع الوقت فى غير جدوى، ويظل ضمن فئة (العيال) حتى يتم تخرجه إلى الحياة العملية كطبيب .

وهناك شابة تخرجت فى أحد معاهد التطريز وأشغال الإبرة ، وكانت متفوقة ورغبت أسرتها فى حملها على قبول وظيفة مدرسة لمادة الخياطة والتطريز وأشغال الإبرة ولكن الشابة أبدت الرغبة فى أن تطبق ما تعلمته عمليا فى الحياة العملية، وذلك بأن تكون مهنتها هى القيام بتفصيل فساتين السيدات وأن تفتح محلا خاصا بذلك، ولكن أسرتها اعترضت عليها بشدة، زاعمة أن فى ذلك العيب كل العيب: «هل تريدين أن يلقبك الأقرباء والمعارف بالخياطة؟!» أجابت: «نعم إن المهنة التى تعلمتها هى الخياطة ، وليس فى هذا عيب ، وليس هناك فرق بين القيام بتلك المهنة بالمدرسة وبين القيام بها فى المحل الذى سوف أقوم بإنشائه» ولكن هيهات أن تقتنع أسرتها، وظل الأب والأم فى الاعتراض على مشروعها حتى أوهنا عزيمتها وأقلعت عن المشروع . ولكن المسكينة ظلت منطوية على نفسها بالبيت؛ لأنها لم تخلق لمهنة التدريس ، ولكن والديها فضلا أن تبقى عالة عليهما على أن تحترف الخياطة .

العجيب أن نفس المجتمع المصرى يقبل أن يقوم أبناؤه بالعمل فى أحقر الأعمال بشرط أن يكون ذلك بأحد الأقطار الأوروبية، وكأن الاشغال بتلك الأعمال الوضيعة فى تلك البلاد البعيدة مفخرة ودليل على النضوج. وإنك لتجد الآباء والأمهات فى مجالسهم يذكرون بطولات أبنائهم عندما سافروا إلى الخارج بالبلاد الأوروبية، وكيف أنهم أخذوا فى الاعتماد على النفس والتقاط الرزق بكافة السبل. ونفس هؤلاء الأولاد بعد رجوعهم إلى أرض الوطن، لا يجرؤون على ممارسة ما كانوا يمارسونه ببلاد الغربة ، فإن هم جرؤوا على ذلك ، فإنهم يجدون الآباء والأمهات والجيران يقفون لهم بالمرصاد يعترضون طريقهم ويصادرون حريتهم. وكأن المهمة الأساسية للآباء والأمهات وللكبار بوجه عام هى مصادرة حرية الشباب . وحرمانهم من أن يعيشوا حياتهم الشخصية ويحولون بينهم وبين أن يصيروا كبارا . وكل أب يقول لابنه – أو هكذا لسان حاله – يقول له – : «إنك ما زلت «عيلا» ولست أهلا بعد لتحمل مسئولية نفسك . انتظر لا تتمرس بالحياة حتى تنضج وتنتهى من دراستك» .

والواقع أن هناك أمثلة مشرفة فى مقابل تلك الأمثلة المؤسفة التى سقناها قبلا. لقد تعرفت ذات يوم بأحد الأطباء ونشأت بينى وبينه صداقة، وذات ليلة كنت أزوره بمنزله، فتطرق الحديث إلى الشباب والعمل، فقال لى: «لعلك لا تعرف أن الحذاء الذى ألبسه الآن من صنع يدى». فلما أبديت دهشتى سرد على قصته قائلا: «كان والدى – رحمه الله – يعمل مدرسا بإحدى المدارس الابتدائية، وكنت أنا وإخوتى الخمسة يقوم والدى بالإنفاق علينا بالإضافة إلى والدتى، وكنت أشعر أنه يعانى من العسر ولكنه لم يكن يظهر لنا متاعبه المالية. وفى ذات ليلة كنت أقوم بإصلاح حذائى وكان صاحب دكان الأحذية يقوم لتوه بالبدء فى تفصيل حذاء لأحد الزبائن فأخذت أراقبه باهتمام فى كل خطوة يقوم بها . وكان الدكان مزدحما بالزبائن الأمر الذى جعل الصبى الذى يقوم بتصليح الأحذية

لاهيا عنى . ولم أشعر بالوقت وهو يمر؛ لأنى كنت مستغرقا فى تتبع «المعلم» فى الخطوات التى يقوم بها فى صنع حذاء جديد .

ولقد ظللت خلال الليلة بعد عودتى إلى المنزل أفكر فيما كنت أشاهده، ولفت انتباهى بساطة الأدوات التى استعان بها صاحب المحل. قررت فى تلك الليلة أن اعتمد على نفسى فى المستقبل فى صنع حذائى بنفسى، بل وفى صنع الأحذية لجميع أفراد أسرتى. ولكنى أدركت لتوى أنى بحاجة إلى تمرين طويل . وبعد تردد صارحت والدى بالفكرة التى نبتت فى ذهنى. ولقد طرت فرحا ودهشة عندما وافق على إشباع هوايتى بشرط ألا أهمل دروسى وعندما بدأت عطلة الصيف، عرضت على والدى أن ألتحق بدكان الأحذية حتى أشرب الصنعة كما يقول أصحاب الحرف فوافق بالرغم من معارضة والدتى. ولم يمض أكثر من شهرين حتى كنت قد اشتريت من «يوميتى» كل ما يلزم للبدء فى العمل بالبيت. وكنت قد تمرنت بدرجة كافية بمحل صاحب الأحذية. قمت أيضًا بشراء الجلد وغيره من الخامات وأول حذاء فصلته كان لوالدى الذى فرح به فرحًا شديدًا. وقال لى: «ولكن لا تنس دروسك ولا تهمل مدرستك» فوعدته بأن أستمر فى التفوق، لأنى كنت أول الفصل دائمًا . ولعلك الآن تدرك باقى القصة . فقد أتممت دراسة الطب ولكنى لا أزال أعمل المشرط فى الحذاء تماما كما أعمله فى جسم المريض» . ضحك صديقى الطبيب وأنا أقول له: «أهه كله جلد والسلام» .

وأعرف قصة موظف بإحدى المكتبات العامة ، كان مغرما بالكتب وبخاصة الكتب القديمة ذات القيمة الأدبية أو التاريخية أو الفنية ، إنه يحتل الآن مكانة ممتازة فى عمله ، كما أنه يتكسب من الاتجار فى الكتب بطريقة قلما تخطر على بال أحد ، إنه يتابع صفحة الوفيات بجريدة الأهرام ، وعندما يجد أن أحد مشاهير علمائنا أو أدبائنا أو فنانينا قد رحل ، يأخذ العنوان من الجريدة ، ويتردد على عائلته معزيا ، ويظل فى تردده هذا حتى يتعرف على أفراد الأسرة ، وبعد الأربعين

يفاتح أسرة الفقيد فى موضوع شراء مكتبته ، وقلما يجد معارضة منهم فيأخذ فى جردها وتقدير ثمنها وبعد أن يدفع الثمن ينقلها إلى بيته ، وبخبرته الشخصية التى اكتسبها فى هذه العملية منذ كان طالبا ، استطاع أن يحقق ربحا طائلا، كما استطاع أن يكتسب شهرة بين الأوساط العلمية بأنه قادر على العثور لمن يريد على أهم الكتب فى شتى المجالات . ولقد كون صاحبنا لنفسه ثقافة عريضة حول الكتب ، فصار متمكنا فى عمله كأمين مكتبة يعرف بطون الكتب وأهم المراجع ، بالإضافة إلى معرفته بأسعارها . يقول هذا الرجل : «إن الفضل يرجع إلى الخبرة التى بدأت فى اكتسابها وأنا طالب . لقد عرضت هذه الفكرة على والدى فرحب بها وأمدنى بالمال اللازم لتنفيذها ولم يمض إلا شهر واحد حتى كنت خلاله قد رددت لوالدى كل ما قدمه لى للقيام بالمشروع بينما بقى معى الربح الذى بدأت به من جديد صفقة تالية واستمر نشاطى فى هذا المضمار حتى اليوم» .

لماذا تفرضون الرهبنة علينا حتى نصف أعمارنا ؟

الشباب مسكين . يفرض عليه أن يكون فاضلا متعففا ، وإلا أصبح الاتهام يوجه إليه بأنه مارق عن مجتمع الفضلاء . والمجتمع فى نفس الوقت يقول للشباب: «لا تتزوج ولا تقم علاقات بأى من أفراد الجنس الآخر حتى تنتهى من دراساتك، بل وحتى تتمكن من إعداد نفسك ماليا لمجابهة مسئوليات الزواج» . فالشاب والشابة اللذان يخضعان لصوت المجتمع ورغبته ، إنما يظلان لأكثر من نصف عمرهما بعيدا عن المسائل الجنسية ، وقد أغمضا أعينهما عن كل ما يثير فى نفسيهما كوامن الغريزة ومطالبها .

قصة شاب استمر أمينا على استذكار دروسه وعلى الانتظام حتى انتهى من تعليمه الجامعى ، وكان والداه يوعيانه بأن الزواج مسئولية يجب الاستعداد لها ماليا واجتماعيا ، ولما تم استعداد الشاب واكتمل نضجه الاجتماعى ، كان حماسه للزواج قد فتر .

وفى ذات ليلة فاتحته أمه فى الزواج بإلحاح لم يسمعه منها من قبل ، فقال لها : لقد مضى الوقت والسن اللذان كنت فيهما شغوفا بالزواج . أما الآن فقد فترت همتى لهذا الأمر ، لقد اعتدت هذه الحياة الرهبانية الإجبارية التى أحاطنى بها المجتمع . أنا لست ناقما عليك ولا على والدى فالواقع الاجتماعى المعاصر يحتم هذا . فلست الوحيد الذى أجل زواجه إلى ما بعد الخامسة والثلاثين . وأنا أعترف بأن الزواج قبل النضج الاجتماعى محفوف بالمخاطر ، ولكن زهرة الشباب ويفوعته تبدآن فى الذبول فى هذه السن التى أمر بها اليوم . هل أقدم إلى عروسى الفضلة الباقية الواهنة من شباب أفل ؟ خير لى إذن أن أكمل حياتى على هذا المنوال وأن أبعد شبح الزواج عن نفسى .

كنت فى ذات يوم جالسا بكافتيريا إحدى الكليات فى انتظار أحد الأصدقاء، وجلس حول المائدة المجاورة مجموعة من الطلبة والطالبات وبعد أن استمر الحديث حول المحاضرات والأساتذة تطرق إلى المستقبل على هذا النحو :

سعيد : أنا شفتك امبارح يا سامى مع الجو فى شارع فؤاد .

مرفت : كده . كده يا سامى أتارى تحت السواهى دواهى .

سامى : أوعى تصدقيه يا مرفت ده واد موقعاتى .

سعيد : تقصد إنك واد مستقيم وان مالكش جو .

حسنية: يا جماعة خليكو مؤدبين ، وبلاش السيرة دى .

رأفت : هو احنا صغيرين يا حسنية دا اللى قدينا زمان كانوا متجوزين وعندهم عيال كبار .

حسنية: لكن احنا مش متجوزين .

سامى: وهو علشان مش متجوزين يعنى ما نعرفش حاجة عن الجنس ؟!

حسنية: المفروض كده .

سعيد : (متهكما) أيوه لما يبقى عندنا ستين سنة نبتدى نتعلم مسائل الجنس .

مرفت: أنا شخصيا مش حتجوز .

رأفت : ده كلام . بكره العريس ييجى ويكلبشك .

مرفت : ما أظنش حد يقدر يكلبشنى .

سعيد : أنا شخصيا واخد حقى وأكتر وعشان كده مش حفكر فى الزواج أبدًا .

سامى : وتسمى ده حق . ده اختلاس يا أستاذ .

سعيد : استنى أنت إذن الحلال بعد عمر طويل .

حسنية : عيب عليك يا سعيد . أنت بتحطم القيم بكلامك ده .

سعيد : قيم . شيلاه يا قيم . ده كلام زمان يا أستاذة . فوقوا بقى لنفسكم .

حسنية: القيم الأخلاقية لا تقبل التغيير، والحرام حرام دائما، والحلال هو الحلال دائما.

رأفت : إن جيت للحق . إحنا الشباب مظلومين . إحنا أجبرنا على عدم الزواج ونطالب فى نفس الوقت بالاستقامة . بتوع زمان كان الواحد منهم بيتجوز وعنده ستاشر سنة .

مرفت: والبنت كانت بتتجوز عندها اتناشر سنة . ده فعلا حصل مع ماما .

حسنية: وإيه رأيكم فى المشكلة اللى بيعرضها رأفت . هل صحيح إحنا مظلومين.

سعيد : على فكرة ، إحنا الشبان أشرف بكتير من شباب الأجيال الماضية . كان زمان الواحد من الشبان عنده زوجتين وتلاتة غير الجوارى اللى كانوا مش من ضمن الحساب .

مرفت: متنساش إن فتاة اليوم تعرف إزاى تدافع عن نفسها وعن حقوقها ومساواتها مع الرجل .

سامى : بس متنسيش يا مرفت إن المشكلات اللى بنقابلها إحنا الشبان بتقابلوها أنتو كمان .

مرفت : ده صحيح. ولكن إيه الحل. كل واحد يقول الحل اللى فى ذهنه بصراحة.

سعيد : الحل فى رأيى الدخول من الأبواب الخلفية للمشكلة دون أن يتمسك علينا أحد بشىء .

سامى : أنا على عكس سعيد . أحسن حل هو نسيان هذا الموضوع وصرف الهم فى الاستذكار .

رأفت : يكفينى إقامة علاقات خفيفة مع بعض الزميلات بغير تورط أو تعلق .

مرفت : وأنت يا حسنية .

حسنية: أنا يا أمى معنديش مشكلة . لكن رأيك انتى إيه يا مرفت .

مرفت : أنا مجموعة من المتناقضات . أنا كل يوم برأى وكل الآراء اللى سمعتها تتقلب على. وعلى العموم أعتقد أنها معادلة غير قابلة للحل. فالمطلوب من الشاب والشابة أن يختلطا بالجامعة والمجتمع، وأن يعيشا نصف عمرهما وأكثر ملائكة لا يقومان بأى نشاط جنسى من أى نوع. حاجة تحير .

وفى إحدى حصص التربية الاجتماعية قامت مناقشة بين أحد الطلبة وبين أستاذ المادة. كان الأستاذ يقدم الحجج التى تساند مبدأ تأجيل الزواج بالنسبة لكل من الفتى والفتاة ، وبعد أن انتهى المدرس من سرد حججه ، سأله الطالب : أريد أن نتصارح يا أستاذ ، هل الفتى والفتاة أقوى من الناحية الفسيولوجية بعد الخامسة والثلاثين أم قبلها ؟ أجاب الأستاذ بصراحة : قبل الخامسة والثلاثين يكون الشاب والشابة أقوى جنسيا ؛ ولكن الناحية الجنسية ينبغى أن تخضع للمطالب الاجتماعية؛ لأن النضج الاجتماعى ، واكتمال الشعور بالاستقرار والمسئولية لا يتسنى للشاب والشابة فى وقت مبكر من العمر ، بل يتسنى لهما بعد الخامسة والثلاثين .

سكت الطالب هنيهة وقال : «إذن فالمجتمع له مطالب متناقضة مع مطالبنا الحيوية» . وانتقلت المناقشة بعد ذلك من المسألة الجنسية إلى مسألة أخرى هى التعارض والاتساق بين المطالب الفردية والمطالب الاجتماعية . وانتهت المناقشة إلى خلاصة هى أن المطالب الاجتماعية هى المنتصرة دائما على المطالب والرغبات الفردية ؛ وأن من يفضل رغباته الفردية على المطالب الاجتماعية يكون عرضة للاتهام بالأنانية والمروق عن الخط الجماعى .

سئل أحد علماء النفس عن أثر العادات الجنسية التى يتمرس بها الشاب والشابة قبل الزواج فى حياتهما بعد الزواج. ابتسم العالم النفسانى، وقال: «إن العادات الجنسية تبدأ فى أخذ طريقها فى حياة كل شخص، ذكرًا كان أو أنثى منذ طفولته الأولى، والواجب أن نأخذ فى اعتبارنا عاملاً هاما ، هو قدرة الإنسان دومًا على تعديل عاداته إذا أراد ، فلا شك أن الزواج بمثابة طريق جديد يشقه الشخص لنفسه ويستطيع خلاله أن يتمرس بعادات جنسية جديدة ، وأن يعدل من عاداته الجنسية التى سار وفقها قبل الزواج . ويجب ألا نغض أبصارنا عن العقد النفسية والعواطف والتذوقات التى يكتسبها الشخص منذ بواكير حياته فيما يتعلق بالمسائل الجنسية».

وسئل نفس عالم النفس عن موقف الشاب فى العصر الحديث من الجنس فقال «للأسف إن أمام الشباب حلا من حلين لا ثالث لهما : الأول : أن يتعلق بالقيم الروحية ويسلك سلوكا رهبانيا ولا شك أن هذا طريق صعب وعر ، وليس من الميسور أن نعمم فنقول: إن جميع الناس بمقدورهم انتهاجه؛ لأنه يتطلب تداريب روحية معينة . أما الحل الثانى فهو ممارسة الجنس بشكل أو بآخر . والواقع أن غالبية الشباب يمارسون العادة السرية (الاستمناء) ونسبة قليلة منهم لهم علاقات جنسية تناسلية مع الجنس الآخر» .

ولما سئل عن موقف الشاب الحديث من زميلته الشابة ومدى تعلقه جنسيًا بها، أجاب بأن الملاحظ أن كثرة الاختلاط بين الجنسين إنما تعمل على انطفاء بريق كل من الجنسين فى نظر أفراد الجنس الآخر . وبالتالى فإن القيمة الجنسية والجاذبية الجنسية صارتا بالتأكيد أضعف بكثير عما كانت عليه فى الأزمنة السابقة. ففى الوقت الذى كانت فيه المرأة محتجبة عن أنظار الرجل ، كان مجرد مشاهدته لكعبها يشكل مثيرًا جنسيا قويا لديه . أما اليوم وقد صارت المرأة تحت عينى الرجل طوال النهار ، فقد خفت النغمة الجنسية والقيمة الجنسية للأجسام التى يراها لدرجة أن المرأة وهى تزاحم الرجل فى وسائل المواصلات لا يكاد يحس بالفارق بين جسدها وبين جسد أى رجل ممن يزاحمونه .

وفى إحدى جامعات أمريكا عمل استفتاء بين طلبة تلك الجامعة عن النشاط الجنسى خارج نطاق الزواج والشرعية ، فكانت النتيجة أن ٦٤٪ من شبابها يمارسون الجنس تماما كما يحدث فى العلاقات الزوجية مع الحرص على عدم الإنجاب . وهناك ١٠٪ يمارسون نفس العلاقات بغير تحفظ مما ينجم عنه حمل وولادة لأطفال غير شرعيين . وهناك ٢٥٪ لهم علاقات بالجنس الآخر ولكنها علاقات صداقة جنسية لا تصل إلى حد الاتصال التناسلى . فأفراد هذه الفئة الأخيرة يمارسون التقبيل والعناق حتى فى الأماكن العامة . وهناك أخيرًا ١٪ من مجموع الشبان والشابات أنكروا أن لهم أية مناشط جنسية من أى نوع .

ويصدد شباب أمريكا فقد أثبتت الدراسات حول المسائل الجنسية أن الحضارة ليست أفضل مناخ لتنشئة شباب متمتع بالحيوية والنشاط الجنسى السليم والقوى والوافر. فحرمان الناشئة من الطبيعة قد أطفأ خيالهم وجعل حياتهم مصطنعة كالحضارة ذاتها، ومن ثم فإن خيال الشبان والشابات صار محدودًا بحدود الواقع وصار مقيدًا ككل شىء فى الحياة الحديثة. إن كل شىء صار فى الحياة المتحضرة زائفًا ومصنوعًا. وعلى الرغم من تقدم وسائل التجميل، فقد حرم الإنسان الحديث من مقومات الجمال الطبيعى. فالشاب والشابة البدائيان فى الغابات قديما كانا موفورى الصحة ومتدفقى الحيوية، ولم يكونا بأدنى حاجة إلى تلك الأصباغ والرموش الصناعية والباروكات والكريمات وغير ذلك من وسائل الترقيع؛ لأن التعرض للطبيعة والانطلاق فى الجو الطبيعى ومجابهة الحياة الصعبة كان يوفر لهما أسباب الصحة والنشاط . ناهيك عن المناظر الطبيعية التى كانت تستحث لديهما العواطف النبيلة والشعر الدافق على السجية . لقد كانت الحياة كلها من حولهم تهتز بالشعر . وكان الشاب والشابة يسيران مع الطبيعة من حيث التوقيت للاتصال الجنسى وممارسة الحب . أما الحياة الحديثة فهى تصب الشباب فى قوالب معدة من قبل .

ولكن هل معنى هذا أننا نحبذ هدم الحضارة والرجوع إلى الحياة البدائية؟ بالطبع لا لأكثر من سبب .

أولا : أن هذا غير ممكن؛ لأن الرجوع إلى الوراء مستحيل من الناحية العملية .

ثانيا : إن الحياة الحضرية بها أيضا كثير من المزايا التى لا تخفى على أحد . فلا شك أن الإنسان الحديث يتمتع بوسائل المواصلات وبالبيوت المكيفة أو المحبوكة التى تقيه شر الحر والبرد ، وهناك الآلة التى أراحت الإنسان من كثير جدًا من الجهد الذى كان يضنيه فى العصور القديمة. نعم إن هذا التنعم الذى

يستمتع به الإنسان الحديث إنما هو على حساب قوته الجسمية وعلى حساب كثير جدًا من مقوماته الجسمية والنفسية . ولكن يجب أيضًا أن نعترف بأن الإنسان الحديث أصبح ضعيفًا فى تكوينه بحيث لا يستطيع أن نحمله بما كان يراه الإنسان قديمًا وعاديًا ومن نمط حياته اليومية .

ونأسف إذ نقرر: أن الشباب الحديث أصبح غثا من الناحية الجنسية وإن بدا أنه أكثر إقبالا عليها . يقول لنا أحد أطباء الجنس: «إن القدرة الجنسية لدى معظم شباب العصر الحديث – ذكورًا وإناثًا – ضعيفة . والسبب فى هذا يرجع إلى ذبول جسم الإنسان الذى يقضى معظم وقته خلال طفولته وشبابه حبيس الحجرات والسكون» . ويؤكد ذلك الطبيب «أن النظام التربوى بالمدارس مسئول إلى حد بعيد عن ضمور أجسام الشباب . فكل هم الآباء والأمهات أن يحشدوا المعلومات فى أذهان أبنائهم وبناتهم ولا يفكر إلا القليل جدا منهم فى النمو الجنسى لدى أبنائهم وبناتهم . فالأب والأم يهتمان بصدر الطفل وقلبه وأمعائه ، ولكنهما لا يعبأن بما تكون عليه أعضاء ابنهما أو ابنتهما التناسلية ، ولا يفيقان إلى نتائج إهمالهما لتلك المقومات الجسمية الهامة إلا إذا نتج عن إهمالها هذا فشل الابن أو البنت فى الزواج» .

ويربط بعض علماء النفس بين العدوانية وبين الجنس . ويقولون لنا: إن انعدام المغامرات العدوانية من حياة الشباب بسبب ما تكفله لهما الحضارة من طمأنينة إنما يتواكب مع هبوط المستوى الجنسى من حيث الرغبة والقدرة على الممارسة . ويؤكد لنا أولئك العلماء أن الإنسان القديم كان يمارس الجنس وهو فى حالة من العدوانية ، وكان الجنس نوعا من القنص ، بل وأكثر من ذلك فإن الجنس كان مرتبطا بأكل لحم البشر Cannibalism . فكان لحم المرأة للجنس وللأكل فى نفس الوقت . فبعد أن كان البدائيون يتغلبون على الأعداء ، فإنهم كانوا ينقضون على الإناث منهم ويمارسون معهن الجنس ثم يقطعوهن إربًا إربًا ويأكلون لحمهن نيئا . وبعد أن تلاشت هذه العادات الوحشية نوعا وخفت وطأتها

حلت محلها عادات أقل منها حدة ، وصار للسادية والماسوكية مكان هام فى العلاقات الجنسية . والسادية هى اللذة الجنسية الناجمة عن إيقاع الألم على الآخرين ، والماسوكية هى: الحصول على اللذة الجنسية نتيجة تقبل الألم من شخص آخر .

ويؤكد بعض علماء النفس أن تخنث الشبان وتشبههم بالجنس الناعم إنما هو دليل قاطع على اعترافهم بالعجز الجنسى والشذوذ الجنسى . وإنك لتلاحظ أن المتخنث يستخدم كل ألوان الرقة والعذوبة فى حديثه وفى نبرات صوته . ولعلك تلاحظ أيضا أن بعض الفتيات قد تحولن إلى الصيغة الذكرية بالتشبه بالرجال فى الملبس وفى طريقة الكلام الخشن . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الشباب يعانى من التمزق وافتقار الإنية . إنه يتساءل «ما هذا العالم ؟! وما معنى هذه الحضارة ؟! وما موقعى بها ؟! وماذا يجب أن أعمل ؟! وهل لهذا الضياع من نهاية؟!».

أيها الآباء والأمهات . . ما هذا الذى انتهيتم إليه ؟!

على الرغم من أن الكثير من الشباب من الجنسين يكنون التقدير والحب لآبائهم وأمهاتهم ، فإنهم يكتمون فى قلوبهم الكثير من الأسى لما آلت إليه الأسرة الحديثة التى ينتمون إليها وينضمون تحت لوائها بعد عودتهم إلى رحابها كل يوم ومشكلة الشباب تبدأ بالشكوى من أنهم لا يكادون يتقابلون مع الوالد أو الوالدة ، وفى كثير من الأيام يعودون إلى البيت فلا يجدون به أحدًا ، إذ يكون الوالدان جميعًا بالخارج فى العمل أو فى غير ذلك من أماكن يستثمران فيها نشاطهما الجسمى والعقلى والوجدانى .

فواقع الأمر أن عضوية الأسرة وتماسكها وتفاعلها بعضها مع بعض قد ذوى واضمحل ، وبالأحرى قد تلاشى من الوجود . لقد صارت كلمة دار أو كلمة بيت أو كلمة شقة لا ترمز للأشخاص الذين يقطنون المكان ويعيشون بين الجدران، بل صارت تعنى: الجدران الخاوية من الناس ، أو الجدران التى يتردد عليها الوالدان والأبناء لمامًا خلال فترات متقطعة من النهار أو بعد مرور وقت طويل من الليل .

صحيح أن الآباء كانوا عبر العصور الماضية مشغولين فى أعمالهم التى كانت تلزمهم بترك بيوتهم فترات تطول أو تقصر ، وصحيح أيضا أن بعضهم كانوا يضطرون إلى السفر إلى بلاد بعيدة فى تجارة بين المدن أو الأقطار الأخرى، فكانوا يركبون البحر أحيانا ، ويمتطون ظهور الجياد أو الإبل أحيانا أخرى، وكانت الرحلة الواحدة تقتضى منهم فى بعض الأحيان الانقطاع عن الأهل شهرا أو شهورا متصلة ، ولكن على الرغم من غياب الزوج عن زوجته والوالد عن أبنائه، فإن الكيان الأسرى لم يكن ليهتز ، ولم يكن التفكك ليجد إلى أوصال الأسرة سبيلا، بل كانت الزوجة تنتظر فى تلهف عودة زوجها الغائب وقد امتلأت جيوبه بالأحمر الرنان ، وامتدت آفاق نفوذه التجارى بين زبائنه ، وذاع صيته بين الناس .

وحتى وقت قريب كان الزوج يعمل فى مجال عمله وهو مطمئن على دينامية أسرته، وعلى أن كل شىء يسير فى غيابه كما يسير فى حضرته ، وأن ميزان الأسرة لا يختل إن هو غاب عنها أيا كان طول ذلك الغياب .

ولكن بعد اشتغال المرأة ، وبعد أن خرجت من البيت إلى الحياة العامة ، سواء طلبًا للعلم أو طلبا للمال ، أو حتى طلبا للشهرة والجاه والسلطان ، فإن الوضع الأسرى قد تغير تغيرًا جذريا ، بحيث وجد الأبناء أنفسهم فى خواء . وأنَّى لهم أن يطمئنوا إلى بيت لا ينبض بالحياة ، بينما الدنيا خارجه زاخرة بكل ما هو حى ومغر ومثير ؟

ومن الطبيعى أن الوالد والوالدة الحديثين وقد وجدا أنفسيهما فى مواجهة واقع جديد يحتم عليهما ترك جنتهما القديمة كل يوم وإغلاق الباب من ورائهما. إن من المحتم عليهما أن يرسلا بأطفالهما إلى البديل الطبيعى للبيت ألا وهو المدرسة . والمدرسة لفظ نستخدمه هنا بالمعنى العام؛ لكى يتسع بحيث يشمل فى مضمونه الحضانة والروضة والابتدائى والإعدادى والثانوى والجامعة ، أو أية

دراسة أخرى بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية. وهكذا أخذ الطفل يغادر بيت والديه ولم يمر على ميلاده سوى أربعين يوما، بل إن البيت الحديث لم يعد مناسبا لكى يكون مكانا يستقبل الطفل الوليد، فصارت هناك نسبة كبيرة من الأمهات الحديثات يلدن بالمستشفيات، وصار الطفل الوليد لا يكاد يدخل بيت والديه وقد خرجت أمه من المستشفى حتى يجد أن الحضانة تستقبله .

وماذا ينجم عن مثل تلك الأوضاع فى نفسية الطفل ، وقد امتد به العمر إلى الشباب ؟! إنه لا يستطيع أن يحس بالولاء لأحد ، فأبوه كأى رجل آخر ، وأمه كأية امرأة أخرى ، وإخوته وأخواته كأى بنين أو بنات آخرين وآخريات . إنه لا يفرق فى هذه الدنيا بين شخص وآخر ، بل الجميع فى نظره سواء ، وجميعهم لا يرتبطون وجدانيا بقلبه. إنه لا يحبهم وقد لا يكرههم ، ولذا فإن موقفه من جميع الناس يتسم باللامبالاة . وهل هناك موقف نفسى اجتماعى أردأ من موقف اللامبالاة من الناس ؟! قالت إحدى الزوجات لزوجها أثناء نقاش حاد من جانبها ، بينما كان هو بارد الحس تجاهها ولا يعير ثورتها وغضبها العاصف أية أهمية: «ليتك كنت تثور ضدى أو حتى تكرهنى بدلا من هذا الموقف الذى تتخذه منى ، وهو الموقف المائع الذى لا يحمل فى ثناياه حبا أو كراهية» .

ولكن إذا كان موقف الأبناء من الآباء والأمهات هو موقف اللامبالاة ، فهل نستطيع أن نقول فى نفس الوقت إن هذا هو أيضًا موقف الآباء والأمهات من أبنائهم وبناتهم ؟ من المؤكد أن الآباء والأمهات المعاصرين ما يزالون يكلفون بأبنائهم ويغارون على مصالحهم ، ولكن إذا قسنا مواقف الآباء والأمهات قديما تجاه أبنائهم وقارناها بمواقف الآباء والأمهات الحاليين إذن لظهر لنا الفارق الكبير بين كلا الفريقين من حيث مدى تأجج العاطفة نحو الأبناء والبنات من جانب آبائهم وأمهاتهم .

ونستطيع أن نقرر فى نفس الوقت أن العلاقة الوجدانية بين الزوجين حاليًا صارت متسمة بالفتور إلى حد بعيد . والسبب كما هو معروف بعد الزوجين أغلب الوقت الواحد منهما عن الآخر ، بل وعدم وجود اهتمامات مشتركة فيما بينهما . أضف إلى هذا كثرة العلاقات الاجتماعية التى تربط كلا منهما بالكثير من الناس دون الآخر . فمعارف وأصدقاء وزملاء الزوج ليسوا هم فى نفس الوقت معارف وأصدقاء وزملاء الزوجة ، بل وأكثر من هذا فإن المشكلات التى تجابه كلا منهما تختلف اختلافا بعيد المدى عن المشكلات التى تجابه الطرف الآخر . وأخيرًا فإن الاهتمامات التى ينفق فيها الزوج وقته ، وكذا تعلقاته القلبية ليست هى فى الأغلب الاهتمامات والتعلقات التى تلعب بأوتار قلب الزوجة .

والشباب الحالى يعانى نفسيا من هذا الجو الأسرى الحديث المتسم بالبرود واللامبالاة . والواقع أن الشاب والشابة قد ورثا عدم الولاء وعدم الطمأنينة فى نفس الوقت منذ عهد الطفولة . إنهما لاحظا أن ما يربط الوالدين بعضهما ببعض ليس التكريس القلبى الذى يجمع فيما بينهما ، بل تجمعهما المصالح الاقتصادية إلى حد بعيد ، بحيث لم يترك للقلب إلا الحثالة من الوقت والعاطفة . فجل الاهتمام وجل الوقت، وجل الأمر قد ارتبط بأشياء بعيدة عن جوهر العلاقة الزوجية. إن الشاب يحس أن الكثير من السنوات التى عاشها فى رحاب الأسرة كانت العلاقة الأسرية محفوفة خلالها بالتوتر وكانت أيضًا قابلة للتحلل والانفساخ. فليس كون الطلاق لم يقع بين الوالدين أن الأسرة كانت متينة الأركان قوية البنيان، وقادرة على صد عوامل الانقسام والانفساخ بل إن العكس هو الصحيح. ففى كثير من الأحيان نجد أن الأسرة القائمة على أنقاض قديمة بالية ؛ يكون هدم صرحها هدما تاما هو أفضل من بقاء أطلالها قائمة على غير أساس وبغير فائدة أو فاعلية.

لقد كان الشباب يرى قديمًا فى الوالدين الملجأ النفسى الوجدانى الذى يصد عنه زوابع الأيام ، وكان يجد فى قوة والده ونخوته ما يشعره بأنه فى أمان وطمأنينة ، بل إنه كان يجد فى حكمة والدته ما يقفه على ما يجب أن يسلكه فى خضم الحياة. وهنا يجب أن ننوه إلى الحكمة الحدسية التى كانت تتمتع بها الأمهات القديمات ، حتى وإن لم يسعد الواحدة منهن أن تكون حاصلة على مؤهل دراسى ، بل إن نعمة الحكمة كانت هبة طبيعية يضفيها الله سبحانه على الأمهات حتى الأميات منهن بحيث كن يقدمن النصيحة الصائبة فى المواقف الحساسة . كان هناك ما يشبه الوحى أو الإلهام ينزل على عقول الأمهات والجدات ويقدمن المشورة فى هديه وبتوجيه منه إلى الأبناء والبنات ، وكانت المشورة المقدمة ناجحة وناجعة دائمًا بغير تخلف إلا فى أندر النادر من المواقف حيث لم تكن نفوس الأمهات والجدات صاحبات المشورات الحمقاء صافية ومستهدية بالإرشاد الإلهى فيما يعن لهن من مواقف أو فيما يطلب منهن بصدده الرأى والمشورة .

ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن من أخطر المشكلات النفسية التى تجابه شباب هذا العصر الإحساس بضعف الآباء واهتزاز مكانتهم فى الأسرة . لقد كان الأب قديما – قبل اشتغال الزوجة – هو صاحب الكلمة العليا فى الأسرة ، وصاحب الرأى الحاسم فى المواقف الحساسة أو الحرجة ، ولكن الأب الحديث وقد شاركته الزوجة – أعنى: الأم – فى مسئولياته الرئاسية العليا ، فإنه استسلم فى النهاية لسلطان المرأة فى البيت ، بحيث لم يعد لرأيه قيمة ، وصارت المشورة ضائعة بين الأب والأم ، بل قل : إن الأمر صار نهبا فى الأسرة لكل فرد فيها ، وكثيرًا ما يترك الشاب أو الشابة لمواجهة مصيرهما فى أدق شئون حياتهما ، وقد عجز جميع أفراد الأسرة عن تقديم أى رأى إليهما .

ولا شك أن اهتزاز مكانة الرجل فى الأسرة قد عمل على ضياع هيبة الرجل سواء فى نطاق الأسرة أو حتى خارجها . ولعلنا نعزو ما نراه اليوم من ضعف فى الرؤساء بالمصالح والشركات وجميع الوحدات الإدارية إلى ما أصاب مكانة الرجل فى الأسرة وفى المجتمع بعامة . فالواقع أن حالة الرجل بالمجتمع خارج الأسرة تعد انعكاسا أو رد فعل لحالته ومكانته فى الأسرة . ولعل الهزيمة التى حاقت بالرجل فى نطاق الأسرة – وقد استلبت منه جميع سلطاته التى كان يتمتع بها قديما فى تسيير دفة شئونها – هى المسئول الأول عن انتشار الرجال المهزومين فى جميع مواقع العمل . وشاهد ذلك أن المدير الحالى على الرغم من تمتعه بنفس السلطات والصلاحيات القديمة التى كان يتمتع بها المدير قديمًا – أو حتى أكثر منها – لا يستطيع أن يفرض إرادته على من دونه أو أن يدير دفة العمل بسلطان كما كان يفعل السابقون من المديرين فى عهود ما قبل تحرر المرأة واشتغالها . ولقد سبق أن عرضنا لذلك وغيره بالتفصيل فى عمل آخر [1] .

ومن الطبيعى أن يفقد الأب العرش الذى كان متربعًا عليه فى الأجيال القديمة بعد أن شاركته الأم فى الإنفاق على الأسرة . كان الرجل قديما يرفض بإباء أن تشارك زوجته فى تدبير شئون معيشته أو أن تسهم فى الإنفاق على الأبناء والبنات ، بل كان يتعفف عن مد يده إلى نقود زوجته . فكان جميع ما تمتلكه المرأة عن طريق ما يئول إليها بالوراثة أو عن طريق أهلها بالإهداء أو العطاء ، لم يكن ليدخل فى ميزانية الأسرة أو فى حسبان الزوج للإنفاق منه على المعيشة ، بل كان كل ما لها محبوسًا عليها لرد غوائل الأيام .

والشباب أيضًا يحسون بأن مفهوم الجنس بين الوالدين قد ضاق نطاقه بعد أن كان واسع النطاق جدا فى الأجيال القديمة . كانت العلاقة بين الجنسين تنحصر فى نطاق الزوجين دون غيرهما ، ولم يكن يسمح للرجل بأن يحادث أحدًا

(١) انظر كتاب «المرأة والحرية» للمؤلف – مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

من الجنس اللطيف إلا زوجته ومن يدخلن فى نطاق المحارم . وكذا كان حال الزوجة ، فقد كانت لا تعرف رجلا أو تتحادث معه حديث ود إلا زوجها ومن يدخل فى نطاق المحارم من الرجال . أما وقد اشتغلت المرأة وأخذت تزاحم الرجال فى كل مكان بما فى ذلك وسائل المواصلات ومقار العمل . فإن التشتت الجنسى صار هو القاعدة بالنسبة لها ولزوجها ، ولم يعد كل منهما بالنسبة للآخر الموضوع الجنسى الوحيد الذى يركز عليه اهتمامه . ويجب أن نميز بهذا الصدد بين الجنس وبين التناسل . فالنشاط الجنسى يشمل النشاط التناسلى وغيره . ولكن حيث إن دائرة الجنس أوسع نطاقًا من دائرة التناسل ، فقد نجد بعض المناشط يمكن أن توصف بأنها مناشط جنسية ولا توصف بأنها تناسلية . فمجرد الإحساس بتمايز الجنسين والشعور بشيء من الانجذاب أو الاستلطاف تجاه الطرف الآخر يعد نشاطا جنسيا ولكنه لا يعتبر نشاطا تناسليا . وعلى هذا نستطيع القول بأن الزوج الحديث والزوجة الحديثة لدى احتكاكهما بأفراد الجنس الآخر فى مجالات الالتقاء بين الجنسين إنما يمارسون جميعًا نشاطا جنسيا حتى وإن وصف بأنه نشاط غير تناسلى . من هنا فإن التكريس الجنسى بين الوالدين لم يعد قائمًا وهو ما ينعكس على نفسية الرجل الحديث ، ويهز عرشه فى نظر نفسه وفى نظر الآخرين من حوله بما فى ذلك أبنائه وبناته الشباب .

يا رجال التربية . . استيقظوا

نشأت المدرسة أول ما نشأت على مسرح الحياة لنقل الخبرات العملية من جيل لآخر ، ولم تنشأ لحشد مجموعات كبيرة من المعلومات فى الأذهان ، لا يراد من ورائها أى شيء والتى يعرف الذين يقومون بتدريسها سلفا أنها حمِّلت بالمناهج المدرسية لا لشيء إلا لكى ينكب عليها التلاميذ أو الطلبة لكى يفرغوها من رؤوسهم فى آخر العام على ورقة الإجابة ، وأنها سوف لا تكون مفيدة لهم ولا لغيرهم فى الحياة العملية .

ولقد قام المصلحون التربويون ينادون بأن: «احذفوا كل ما ليس منه فائدة من المناهج» ، ولكن القائمين على شئون التربية بمصر يصرون على حشد المعلومات بالمناهج وإنك لتجد كل تفتيش يتسابق على إحراز أكبر قسط من الخطة الدراسية بالمراحل المختلفة ، وعلى أن يثقل كواهل الطلاب بأكبر قدر من المعلومات ظنا منه أن مادته هي الكفيلة بصقل الشباب .

وأمامنا فلسفتان تربويتان : الأولى: تنادى بأن يطلب العلم لذاته ، والثانية: تنادى بتوظيف ما يراد تعليمه، فكل ما لا يصلح للحياة ينبغي أن يبحث له عن مأوى يأوى إليه غير المدرسة. وعلى الرغم من أن غالبية المربين فى مصر يناصرون الفلسفة الثانية ، ويطالبون بالقضاء على ذلك البعبع البغيض – أعنى: الامتحانات فى آخر كل عام – وعلى الرغم من أن المؤتمرات تعقد والبحوث تكرس لجعل الدراسة بالمدارس والجامعات جزءًا لا يتجزأ من الحياة ، وبتحويل العمل بالمدرسة والجامعة إلى ممارسة مثمرة فى حياة التلميذ وعملا نافعًا له فى مستقبله ، بل وله نتائجه الاقتصادية الإيجابية المفيدة فى مستقبل وحاضر الاقتصاد القومى ، إلا أن المدرسة ما تزال خاضعة من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين للفلسفة الأولى التى تقوم على أساس أن العلم للعلم لا للحياة ، وهى الفلسفة التى تحتقر العمل اليدوى وتناصر الفكر المجرد والأفكار التى لا تتصل بالواقع أو بالأشياء الجزئية .

والشباب فى هذه الدوامة التى ليس فيها أية مسئولية يركن إلى الانزواء بعيدًا عن الحياة الواقعية ويطلب لنفسه النجاة من التهمة التى قد يصوبها إليه كل من يعرفه بأنه غبى أو مهمل وغير مقدر للمسئولية ، فيعكف على تلك الوريقات المكتوبة يحفظ ما تتضمنه بغير أن يكون لما يدسه فى عقله أية صلة وجدانية بقلبه ، وكأنه يفر من عار الهزيمة بتجرع جرعة من دواء يكرهه ، وإن كان دواء لا يصل به إلى الشفاء بل يصل به فى الواقع إلى هامش الحياة لا إلى الحياة .

ذات يوم قابلت فى الطريق ابن أحد الأصدقاء وكان يحمل مجموعة كبيرة من الكتب ، وكان ذلك فى بداية العطلة الصيفية ، فظننت أنه استعار من أحد أصدقائه كتب العام الدراسى التالى للاطلاع عليها قبل بدء الدراسة . ولكنى فوجئت بعد الاستفسار منه بأن الكتب التى يحملها هى كتبه التى انتهى من دراستها وأنه متوجه بها إلى محل اللب ليبيعها هناك بأبخس الأسعار؛ لكى يمزقها بدوره ويحيلها إلى قراطيس يبيع فيها اللب والسودانى للزبائن . وعندما استنكرت ذلك منه مقدمًا إليه الحجج بأن العلم أقيم من أن يهان على هذه الصورة، نظر إلى باستهتار قائلا: «يا عمى الكتب دى مليانة بالكلام الفارغ ، ودليل هذا أنى لم استفد منها شيئًا إلا النجاح فى الامتحان» . ولم أستطع أن أقدم إليه برهانا جديدًا مقنعًا؛ لأنه قدم أكثر البراهين إقناعا وهو أن المواد التى تدرس بالمدارس ليست قابلة للتطبيق ، وليس من ورائها فائدة عملية فى الحياة .

وأعرف شابا كثير الاطلاع وقد شق طريقه فى الحياة العملية بنجاح على الرغم من فشله الدائم كطالب . وفى لقاء معه تصارحت بالسؤال عن هذه المفارقة العجيبة بين فشله فى الحياة الدراسية وبين نهمه على الاطلاع ونجاحه فى شق طريقه فى الحياة العملية . فقال بصراحة: «أنا لم أفشل ، الذى فشل هو المدرسة والمناهج المدرسية التى لم تستطع تقديم الخبرات المناسبة لى . أنا أحب العلم ولكنى لا أحب أن أجبر على استذكار أشياء لا أؤمن بجدواها» .

وهناك قصة الطالب الذى - بعد فشله فى الدراسة وتركه المدرسة إلى الحياة العملية - اكتشف فجأة قيمة ما كانت تتضمنه بعض الكتب الدراسية التى كان يحس أيام الدراسة بالبغض الشديد نحوها: «المدهش أنى أصبحت مولعا بنفس تلك الكتب التى كنت أحس بالبغض الشديد نحوها . ولما تساءلت مع نفسى عن السر فى ذلك اكتشفت أن التغير الذى حدث فى موقفى مرده إلى زوال الكابوس الذى كان جاثما على صدرى ، أعنى المدرس والتسميع والامتحانات والتهديد والتوبيخ وكل الجو الإجبارى الذى كان يلاحقنى بالمدرسة . أما الآن فإنى أتناول الكتاب بمزاجى الشخصى ولإشباع رغبة عندى للاطلاع» .

وفى إحدى جلسات لمجلس الآباء والمعلمين بإحدى المدارس الإعدادية دارت مناقشة حول استعانة بعض المدرسين بالضرب فى التدريس . فانبرى أحد المدرسين مدليا برأيه بصراحة فى الموضوع قائلا : «أصارحكم بأننا نحن المدرسين نستعين بالضرب لحمل الطلبة على الاستذكار والانتباه فى أثناء الدرس ، وذلك لأننا نعلم جيدًا أنهم لا يرغبون فى تحصيل ما نقدمه إليهم من مناهج . وأكثر من هذا فإننا نحن أنفسنا الذين نقوم بالتدريس لا نحب تدريس تلك المناهج؛ لأننا لم نشارك فى اختيارها ولم يؤخذ رأينا فيها قبل تقريرها» . ولما سئل ذلك المدرس عن أهم نقاط الضعف فى المناهج قال: «إنها تعزل الطالب عن الحياة ولا تساعده فى تطبيق ما يدرس على مواقف الحياة المختلفة ، ومن ثم فإنها مناهج غريبة عن حياته وعن واقعه الذى يحيط به فى البيئة» .

وفى إحدى القرى حرر محضر لأحد الآباء لأنه لم يجبر ابنه على مواصلة الدراسة فى المدرسة الابتدائية وآثر أن يبقى ابنه إلى جانبه فى المزرعة . ولما قامت الإدارة التعليمية التى تتبعها تلك المدرسة باستطلاع آراء آباء الأطفال غير المواظبين على الدراسة عن أسباب عدم حرصهم على مواصلة أبنائهم للدراسة بالمدرسة الابتدائية ، قرر ذلك الأب أن المدرسة مضرة لاقتصاد الأسرة؛ لأن ابنه يمثل ركنا أساسيا فى موارد رزقها ، بينما يعتبر ذهابه إلى المدرسة مضيعة لذلك الرزق . وأكثر من هذا فإن الطفل الريفى وقد أخذ فى ارتداء ملابس التلاميذ ، فإنه يرفض بعد ذلك العودة مرة أخرى إلى ارتداء ملابس أهل القرية الصالحة للعمل بالحقل ويتشبث بلبس «الأفندية» على حد تعبير ذلك الأب .

وحدث فى ذات يوم أن جمع أحد نظار المدارس الثانوية الطلبة الذين لم يوفقوا فى امتحان الفترة بالصف الأول الثانوى ، وأخذ يوبخهم قائلا: «كان أحرى بكم أن تلتحقوا بإحدى المدارس الصناعية؛ لكى تعرفوا قيمة المدرسة الثانوية» . وطبيعى أن مثل هذا التقريع يحمل تحقيرًا ضمنيا للعمل اليدوى ،

وكان ذلك الناظر يمجد العمل العقلى ويصفه بالأرستقراطية بينما هو يحقر من شأن العمل اليدوى ويصفه بالضعة والانحطاط .

ونأسف إذ نقرر: أن الغالبية العظمى من شباب القرية المصرية يهجرونها إلى غير رجعة بعد أن ينخرطوا فى سلم التعليم ، وليس هذا لأنهم يكرهون قريتهم أصلا ، بل لأن المدرسة جعلتهم غرباء عنها وخلعت عنهم انتماءهم النفسى والعقلى والاجتماعى إليها . ومهما علت صيحات المصلحين بالدعوة إلى وجوب رجوعهم إلى مسقط رأسهم والمساهمة فى شئون الحياة بين أهليهم ، فإنهم لا يستطيعون تلبية النداء وقد فات الأوان بعد أن عملت التربية على إفساد وجدانهم، وبعد أن دربوا على أشياء بعيدة عن اهتمامات الحياة بالقرية .

والواقع أن الدعوة إلى الارتفاع بمستوى القرية المصرية، لكى تلحق بالمدينة لم يكن يقصد بها أن تستحيل القرية إلى مدينة فتتوقف عن الزراعة وعن الصناعات الزراعية . وهل يمكن أن يكون هذا شيئًا معقولا ونحن بالمدينة عالة على القرية ولا نأكل طعامنا إلا من يد الفلاح الذى يزرع ؟. الواجب أن تفهم الدعوة إلى الارتفاع بمستوى القرية بمعنى مغاير للمعنى القائل: بإبطال الزراعة وترك الفلاحين للحقول . الواجب أن نفهم دعوة الارتقاء بالقرية على أنها الارتقاء بالزراعة ذاتها ، والارتقاء بمستوى القيم الاجتماعية بل أكثر من ذلك يجب أن توجه المدينة المصرية اهتمامها إلى القرية فتصدر من أبنائها إليها أشخاصًا أقدر على خدمة الأرض بما تعلموه من دراسات عليا فى الفلاحة بكليات المدينة.

ولكن للأسف هذا غير حادث . إنك تجد كليات الزراعة عندنا لا تستقبل إلا أولئك الطلبة الذين لم يوفقوا فى الثانوية العامة. والخريج فى هذه الكليات لا يحب أن يصبح فلاحا يقوم على خدمة الأرض . إنه يرغب فى أن يكون مهندسًا زراعيا باللقب الذى يحمله فقط وليس بالعمل الذى يمارسه . فهو مهندس زراعى

ولكنه لا يزرع . إنه يقبع فى مكتبه؛ ليدير شئون ذلك المكتب ، ولا علم له بما يحدث فى الأرض. وليت المدرسة المصرية وكلياتنا تعلى شعارًا جديدًا لها: «إلى خدمة القرية بحقولها؛ لأنها أمنا» . وليت هذا الشعار يترجم إلى عملية ربط التلميذ المصرى وطالب الجامعة بالأرض الطيبة التى نأكل منها ونعيش على إنتاجيتها.

إن مشكلة الهجرة الداخلية التى تعانى منها مدننا المصرية إن هى فى الواقع إلا انعكاسًا لفشل مناهج المدرسة فى ربط التلميذ بالقرية . ورجال التربية بالقرية هم أولا وقبل أى مخلوق آخر المسئولون عن نزوح أبناء القرية عنها إلى المدن . ونحن لا ندعو إلى أن يصدر قانون بالحجر على المواطنين من أن يتحركوا عبر الجمهورية كيف يشاءون ، ولكننا نعلق مسئولية غرس الولاء فى نفوس الناشئة على ضمير المدرس بالقرية . ولكن بالله كيف يستطيع معلم القرية ذلك وهو نفسه ناقم على اليوم الذى وجه فيه مدرسا بالقرية . وكيف يستطيع الإحساس بالولاء هو شخصيا لقريته ، بينما تقرر الإدارة التعليمية أن أصحاب المجاميع الكبيرة من خريجى كليات التربية يعينون بالمدينة ، وتعين الحثالة بالريف ؟

ومهما بحثنا عن المسئولية فى مشكلة النزوح عن القرية إلى المدينة ، فإننا لا نستطيع بأية حال أن نخرج عن حدود مسئولية رجال التربية . إنهم وحدهم المسئولون عن عدم القيام بتربية وجدان الريفى وربطه بقريته والارتفاع بمستوى القرية. وإنى لأنقم كل النقمة على تلك المناهج الغريبة عن بيئة القرية. تلك المناهج الدراسية التى يقوم نفر بالقاهرة بوضعها ثم تأليفها فى كتب ، ثم إرسالها كالفرمانات إلى المدرسين بالقرية؛ لكى يستخدموها لسلخ أبناء القرية عن بيئتهم . ونستطيع فى الواقع تلخيص مشكلة المناهج فيما يلى :

هناك نوعان من المناهج الدراسية : نوع يبدأ من عقل مؤلف المنهج ،

والنوع الثانى يبدأ من الواقع البيئى . من أعمال السكان ومن عاداتهم وتقاليدهم ومن غنائهم ورقصهم ومن صميم حياتهم . ووزارة التربية عندنا تأخذ وتؤمن بالنوع الأول من المناهج؛ لأنها لا تثق فى تراث القرية ولا تؤمن إلا بالقراءة والكتابة والحساب وبالمفاهيم التى تشغل بال المتحضرين بالمدينة . وكان الأحرى بالوزارة أن تبدأ من حيث القرية لا من حيث العلماء بالقاهرة . كان الواجب أن تذهب المدرسة إلى الحقل لا أن يذهب الفلاح من الحقل إلى المدرسة . ولا نقصد هنا المعنى الحرفى للفظ ، بل نقصد: أن تذهب المدرسة إلى الحقل؛ لكى تستلهم المناهج منه . ينبغى أن نشجع طفل القرية على الزراعة وعلى رعاية البقر والجاموس وعلى أن يشارك فى إنتاج الألبان وفى غير ذلك من أعمال الحرث والزرع . وكان ينبغى أن تدور القراءة والكتابة حول ما يمارسه الطفل بحقله ، وأن تدور المسائل الحسابية أيضًا حول تلك الأمور المتعلقة بصميم حياته ، وألا تستورد المسائل الحسابية من القاهرة فتدور حول صناعة الصلب والحديد والنقل بالطائرات وغير ذلك من أمور بعيدة عن أجواء القرية المصرية .

وحتى تصور مدرس القرية ينبغى أن يتغير عن التصور الموجود اليوم ، ولسنا نغالى إذ نقول: إن «فقى» القرية كان أقرب إلى طبيعة القرية من خريج كلية التربية اليوم . ذلك أن دور كليات التربية بعد أن تستقبل أبناء القرية إلى رحابها ، تبدأ فى عزلهم نفسيا وعقليا واجتماعيا عن القرية ، فيضحوا بعد سنوات قليلة من أبناء المدينة ، ويأبى معظمهم أن يتنازل فيعمل بالقرية ، وإن هو تنازل وقبل العمل هناك ، فإنه يستشعر امتهانا لحق به؛ إذ يتعامل مع أولئك الصبية الفلاحين، فيتعالى عليهم ويسمهم الخسف والامتهان .

وحرى بوزارة التربية وبرجال التربية عموما أن يوفقوا بين إعداد معلم المدرسة الابتدائية وبين ضمان ولائه لقريته . وحبذا لو كانت طبيعة ومناهج كليات التربية تتسم أيضًا بالمهارات اليدوية وبالفلاحة بحيث لا نخرج «أفندية»

لا يعرفون شيئا فى دنياهم إلا تلك الرموز التى نسميها: القراءة والكتابة والحساب، والتى أضحت كأصنام نسجد لها مع أنها لا تنطق وحدها ، ولا تستطيع أن تستحيل إلى معنى يستساغ إلا إذا ارتكنت إلى مهارة عملية وإلى واقع خارجى تستمد منه حيويتها ووجودها .

وإذا كان جان جاك روسو قد أطلق دعوة إلى الرجوع إلى أحضان الطبيعة وتصور تربية تقوم على التفاعل مع الطبيعة لولده الخيالى «إميل»؛ اعتقادًا منه أن تربية الفصول غير مجدية ، فإننا اليوم أيضًا نطلق الدعوة: «بأن اهدموا تلك الحوائط الشامخة التى أقمتموها يا رجال التربية سدودًا بين الطفل وبين واقع حياته. وابدأوا بنهج جديد وبفلسفة جديدة هى فلسفة العمل اليدوى» ، ذلك أن الأمة التى تريد أن تجعل من شبابها شبابا منتجا جادا فى عمله يجب عليها أن تبدأ بالشخص منذ أن يفتح عينيه على الدنيا من حوله ، فتحمله على تشغيل يديه بالإمساك بالأشياء والتعرف عليها والتمرس بالمهارات المختلفة فى معالجتها وإخضاعها لمشيئته . أما الأمم المتخاذلة الضعيفة فهى تلك التى تكتفى بالنظريات تسقيها لأبنائها ثم تمتحنهم فيها فيتقيئوها على أوراق الامتحان فى آخر العام .

والخطأ التربوى الذى وقع فيه المربون عندنا يكمن فى مفهوم تربوى أفلاطونى يرتد أصلا إلى سقراط فيلسوف اليونان . فلقد اعتقد سقراط ومن بعده أفلاطون أن العلم بالشيء أو بمعنى أدق العلم بالفضيلة موجب للإتيان بها وعدم الحيد عنها ، وأن الجهل بها لا يسمح بالتمرس بها . والواقع أن الشطر الثانى صحيح، أما الشطر الأول فهو خطأ . ذلك أن مجرد معرفة الفضيلة لا يحتم انتهاج طريقها . وقد سرت هذه الفكرة الخاطئة كالنار فى الهشيم إلى أن وصلت إلينا وسيطرت على رجال التربية فى وضع المناهج . فمجرد معرفة وسائل استصلاح الأرض مثلا كاف فى رأيهم للقيام باستصلاحها . ومجرد معرفة وسائل علاج المرض كاف لقيام الطبيب بعلاج المرضى ، ومجرد دراسة التجارة بكليات التجارة كاف لتخريج تجار على المستوى العالمى ... وهكذا .

والواقع مخالف لهذا على طول الخط . ذلك أن العلم الصحيح لا ينبع من الفكر بل من الخبرة الحية . فإذا قدم إليك الفلاح خبرة نتيجة تمرسه باستصلاح أرضه فإنها تكون خبرة حية. ويمكن أن يستفيد نفس هذا الفلاح من خبرات زملائه الفلاحين . ومادام ذلك الفلاح مرتبطًا بأرضه ويقوم بالزراعة فإنه يكون أكثر تفتحًا من غيره على الخبرات الجديدة . ولكنه إذا ترك أرضه فإنه لا يصير بعد ذلك قادرًا على الإفادة من الخبرات الجديدة . فشرط الإفادة من خبرات الآخرين هو الارتباط عضويا بالعمل نفسه . وعلى نفس النحو فإذا بدأت بالعمل دائمًا ، فإنك تستطيع أن تخصب العمل بالنظريات والكتب .

ولقد أخطأ المربون عندما أنشأوا مدارس ثانوية لا يعرف طلابها سوى الكتب وقد عزلوا عن الحياة العملية عزلا تاما . وأخطأ المربون عندما تصوروا طفل المدرسة الابتدائية بمعزل عن بيئته ، لا يشارك فيها؛ خوفا من إرهاقه بالعمل وخوفا من الرجوع إلى عهد استغلال الطفولة بالأعمال المضنية . وكان الأحرى بهم أن يحموا الطفولة من الإرهاق مع عدم حرمانها فى نفس الوقت من تشغيل اليدين فى العمل ، ومع عدم حبسها بين جدران لا تعمل شيئًا سوى التفكير العقلى والكتابة والقراءة والحساب والامتحانات . لقد أفسدت التربية الطفولة ومن بعدها الشباب ، بل نجرؤ فنقول: إن ما يعانى منه مجتمع الكبار من نقص فى الإنتاجية ومن تهرب من المسئولية ومن التمرس بالحياة العملية إنما يرجع أصلا إلى تلك الأفكار التربوية الشائهة التى لا تقوم على أساس متين .

ولعلنا نصرخ بأعلى الصوت مع روسو قائلين: «عودوا إلى الأرض الطيبة يا رجال التربية واستلهموا منها مناهجكم التى تريدون تدريسها ، وأزيلوا الأسوار الشاهقة التى جعلت مدارسكم سجونا تعزلون فيها الأطفال والشباب عن الحياة العملية» .

المجتمع – أى مجتمع – كالفرد الواحد يجب أن يعرف أين يقف وهل الوسائل التى يستعين بها فى حياته هى أفضل وسائل ممكنة ، أم أن هناك وسائل أفضل منها كان أحرى به أن يلتمسها ويستعين بها ؟ والمجتمع أيضًا كالفرد من حيث ضميره ومحاسبته لنفسه فهو يأخذ فى معاتبة نفسه على أخطاء سبق له أن اقترفها ، ويندم عليها ويعاهد نفسه وغيره من مجتمعات بعدم العودة إليها وأنه سينهج نهجًا جديدًا أفضل ، سوف يوفر له راحة الضمير والرضى عن الذات . والمجتمع أيضًا كالأفراد من حيث قياسه لما أصابه من نجاح وما ابتلى به من فشل ، ومن حيث مدى ما أحرزه من فوائد ومزايا ومدى ما أصابه من أضرار وخيبة أمل .

ومعنى هذا أن المجتمع يستعين بمجموعة من المعايير يقوِّم بها حياته ويقف بواسطتها على قيمة تلك الحياة . بيد أن بعض المجتمعات تتسم بالتعصب للطرائق التى ألفتها واعتادت على التمرس بها بحيث لا تكون مستعدة لاستبدال غيرها بها مما يكون أكثر نفعا لها . ولكن هناك مجتمعات أخرى تتسم بالانفتاح العقلى والخبرى فتكون توَّاقة دائمًا إلى تجديد الوسائل التى تستعين بها وإحلال غيرها محلها إذا ثبت أن ما تحله من جديد محل القديم أكثر نفعا لها وأكثر قدرة على تخليصها من الصعوبات التى تعتور طريق حياتها .

ولقد تعمد بعض المجتمعات إلى إضفاء صفة التقديس على الوسائل التى اعتادت أن تستعين بها فى حياتها والتى ظلت متشبثة بها عدة قرون . فهى تضفى على الوسائل سمة الغايات ، فتجعل الأداة التى كانت تستعين بها ذات يوم لتحقيق مآربها غاية مقدسة يجب العمل على الحفاظ عليها مهما كلفها ذلك من تضحيات ومهما نتج عن ذلك من ألوان الفشل . وطبيعى أن يتزعم بعض القادة

الرجعيين بالمجتمع المتخلف الدعوة إلى الحفاظ على الوسائل القديمة وعدم المساس بها ، ويحذرون من أن الكوارث ستحل بالأمة إذا هى استنت سنة جديدة وأخذت بالجديد الذى لم يسبق للأسلاف اتباعه ، ويحاولون بكافة الوسائل نشر التوجس والخيفة والشكوك بين الناس من كل جديد يلتمسونه فى حياتهم أو من كل طريقة قياس جديدة يستعينون بها فى وضع الضوابط لحياتهم وتقويمها؛ للوقوف على نقائصها ومزاياها .

وأول تقويم – والتقويم معناه: الوقوف على قيمة الشيء – يجب القضاء عليه هو تقديس القديم لمجرد أنه قديم . وهنا ينبغى أن نقرر أن القديم ينبغى ألا يهدم أيضًا لأنه قديم . فالواجب على أبناء كل جيل أن يقوموا بغربلة قيمهم حتى يستبقوا ما يتناسب معهم وأن يستبعدوا مالا يتناسب مع واقع حياتهم . ويجب أيضًا أن نحذر من إتلاف الماضى مهما كان ، بل يجب الحفاظ عليه فى أماكن أو مؤسسات خاصة تعنى بالتراث كتاريخ للأمة وكسجل يحفظ به ما مرت به من خبرات .

خذ مثالا لذلك ما يجب أن تتباين فيه مكتبة المدرسة أو مكتبة إحدى الكليات عن دار الكتب . ولنوضح هذه النقطة بأكثر جلاء ، نقول: إن الطالب الحديث ينبغى أن يقف على آخر ما انتهى إليه العلم الحديث، ولكن الباحث فى تاريخ العلم يجب أن يجد مراجع تضم مالا يأخذ به العلم الحديث اليوم من نظريات علمية ، هذا المصدر للخبرات التى ثبت بطلانها ينبغى ألا يكون مكتبة المدرسة أو مكتبة الكلية ، (إلا إذا خصصت الأخيرة قسما لتاريخ العلم) ، بل يجب أن يكون دار الكتب.

وعلى نفس النحو نقول: إن معرض السيارات المعروضة للبيع يجب أن يضم آخر صيحة فى عالم السيارات ، بينما يجب أن يشتمل متحف السيارات على نماذج أو عينات للسيارة منذ اختراعها حتى العصر الحديث .

والخطأ يكمن فى أن يحتفظ المجتمع بالقديم - سواء كان أشياء أو عادات اجتماعية - لا لشىء سوى أنه قديم ، وقد اكتسب القديم صفة التقديس بسبب قدمه واستمرار توارثه جيلا عن جيل . خذ مثالا لذلك عادة تشييع الميت حتى مثواه الأخير . إنك إذا جرؤت وأعلنت أن هذه عادة غير صالحة لمجتمع المدينة حيث تزدحم المواصلات وحيث يمثل تشييع الجنازة عائقًا أمام المرور ، فإنك ستسمع أيضًا أصوات السخط والغضب ، ويحتج عليك المحتجون بأنك تريد تحطيم عادة اجتماعية هامة وخطيرة توارثتها الأجيال المتعاقبة جيلا عن جيل . والواقع أن مدينة كالقاهرة لا تتحمل - أو سوف لا تتحمل فى المستقبل القريب - تعطيل أحد الشوارع الرئيسة ووقوف المرور به ولو لبضع دقائق؛ تكريما للميت المحمول على الأعناق أوالمحمول على عربة وقد سار حشد من الناس وراءه . وأكثر من هذا فإن ساكن المدينة اليوم - وساكنها غدا بالأحرى - سوف لا يجد الوقت ليقضيه مشيا على الأقدام وراء الميت ، وإذا هو فعل ذلك ، فإنما يكون ذلك على حساب أعمال هامة يعطلها ومصالح جمهور من الناس ينتظرون كل دقيقة من دقائق وقته لإنجاز مصالحهم خلالها، ولعلهم يسخطون ويضجرون أو حتى لقد يعلنون شكاواهم إلى من بيدهم المسئولية ويطالبون بألا يترك الموظف عمله حتى ولو لتشييع إحدى الجنازات .

وثمة قيمة اجتماعية أخرى ينبغى أن تحطم تماما ، هى تلك الزيارات التى تستهلك من وقت الإنسان الحديث ما لا يتمشى مع عصر السرعة وعصر الحساب بالثانية . إن المواطن الحديث يزداد تقديرًا لوقته ، ولعل الزائر الكريم يعطل صديقه ويفسد عليه برنامج عمله الذى وضعه لنفسه ، بل لقد يسبب له أضرارًا جسيمة فى عمله ؛ لأنه قد يكون مكلفًا بإنجاز بعض الأعمال الهامة فى البيت؛ لعرضها على الرئيس فى اليوم التالى . ولكن للأسف يفاجأ صاحبنا بالزائر الكريم يدق بابه لقضاء الوقت جزافا فى غير المجدى من الأقوال وفى نقل

الشائعات أو لوك الأخبار الزائفة أو الطعن فى سير الآخرين أو لإفشاء بعض الأسرار أو غير ذلك من لغو كان الأفضل عدم الاستماع إليه أصلا وتكريس الوقت لما هو مفيد . والواجب على أبناء هذا الجيل أن يعلنوا الحرب الشعواء ضد مضيعى الوقت فى الزيارات التى كانت تناسب المجتمع الريفى الذى لم يكن للوقت فيه بعد العودة من الحقل أى حساب .

وثمة قيمة اجتماعية ثالثة ينبغى أيضًا القضاء عليها . إن شبابنا على الرغم من انخراطه بالسلك التعليمى حتى الجامعة ، فإنه ما يزال أسير الأحكام التى يطلقها الوالدان فيما يتعلق باختيار شريكة أو شريك الحياة . وعلى الرغم من أن التليفزيون والإذاعة يقدمان التمثيليات التى قد تظهر أن الشاب والشابة الحديثين صارا حرين فى الاختيار ، فالواقع يخالف ما نراه أو ما نسمعه . فما يزال رأى الوالدين هو الأول والأخير فى تلك المسائل. وقلما – ربما لا يزيد على ٢٪ من مجموع الشبان والشابات – من يصدق فى وعوده للطرف الآخر . إن كل شاب يعلن لصديقته أن الكلمة هى كلمته وأن ما يقدمه من وعود فى التقدم رسميا للخطبة هى وعود رجل يصدق فيما ينطق به . ولكن ما إن يتقدم بإعلام النبأ السعيد لأسرته حتى يجد ألف اعتراض واعتراض ، وألف اقتراح واقتراح بعرائس أفضل . وإذا وجدت الأسرة شيئا من العناد لدى الابن فإنها تغرقه عندئذ بالحنان والاستمالة حتى يلين لها فى النهاية ويذهب مع أمه أو أخته لمشاهدة العروس التى تقترحها عليه . إنها بالطبع لا تقول له: إنها مسيطرة على إرادته ، بل تؤكد له أنها مجرد مقترحة ، وأن الأمر النهائى موكول إليه هو . فهو الذى سيقبل أو سيرفض : «وماذا يحدث إذا أنت قارنت بين الآنسة التى نريك إياها وبين تلك التى وعدتها بالزواج ؟. إنك يجب أن ترى واحدة واثنتين وثلاثا ، بل وأن ترى أكبر عدد ممكن من الشابات؛ لكى يكون الاختيار موضوعيا وبالمقارنة» وكأن الزواج عملية شراء قطعة من القماش. فهل يستطيع أبناء هذا الجيل أن يتخلصوا من هذا

التقويم للأمور ، وأن يتركوا فرصة لشبابنا للتعبير عن أنفسهم الحقيقية ولو فى أخص خصوصياتهم ، أعنى: مسألة اختيار شريكة أو شريك الحياة ؟!

وهناك ناحية رابعة ينبغى أن يتغير فيها التقويم أيضًا . إننا ننظر إلى المؤهل الدراسى بنظرة مطلقة لا بنظرة نسبية ، فنقول مثلا: إن فلانا حصل على بكالوريوس الطب . وربما يكون هذا الشخص قد حصل على بكالوريوس الطب منذ عشر سنوات ، وأنه لم يساير ما حدث فى مجال الطب من تطورات لسبب أو لآخر ، فيكون بذلك قد تخلف عن الركب الطبى ، وصار ما سبق له دراسته فى كلية الطب مما لا تأخذ به نفس الكلية التى تخرج فيها منذ ذلك الوقت ، بل وتعتبره لغوا أو على الأقل ضمن تاريخ الطب وليس من الطب الحديث فى شىء .

إذن لا يكفى أن يكون الشخص حاصلا على بكالوريوس الطب؛ لكى يكون طبيبًا كفؤًا أو حتى طبيبًا مناسبًا أو طبيبًا يعيش عصره . وما يقال عن الطب ينسحب أيضًا على كل مهنة وعلى كل مؤهل دراسى . والواضح أن المؤهل لا يشير إلا إلى فترة خبرية معينة كانت نفس الكلية أو المعهد يمر بها ، وقد خرج منها إلى فترة خبرية أخرى فثالثة فرابعة .. إلخ . ذلك أن الحضارة لا تتوقف . إنها تيار دافق لا يعرف التوقف .

لذا ينبغى أن نغير نظرتنا إلى المؤهلات الدراسية . فلا ينبغى لنا أن ننظر إليها بالتقديس المطلق الذى ننظر به اليوم إليها. كم من أشخاص يحملون مؤهلات عالية ، ولكنهم لم يواصلوا السير مع تدفق تيار الحضارة والعلوم ؛ فصاروا فى حقيقة أمورهم فى طى التاريخ برغم ما ينزوون وراءه من دعوى تقديس المؤهلات الدراسية واعتبارها أشياء لها قيمة ذاتية .

الواقع أن المؤهل الدراسى – مهما كان – لا يعدو أن يكون عملية . إنه ليس شيئا كتلك المادة التى أمامى إنه يعبر عن ممارسة أداها الشخص فى لحظة

زمنية معينة واكتسب وقتها خبرة معينة بمستوى معين . ولكن تلك الورقة التى تسمى: بالمؤهل ليست صكا أو فرمانا يصير الشخص بمقتضاه العالم المطلق فى مجال تخصصه . إنه مجرد اعتراف بمرور الشخص فى خبرة معينة . وإذا كان هناك شيء يظل عالقا بالمؤهل فهو ما اكتسبه الشخص من أدوات معرفية أو مناهج للدراسة؛ لكى يستعين بها فى مواصلة الدرس .

وما ندعو هنا إلى هدمه هو ذلك التقديس المطلق المنوط بالمؤهلات الدراسية ، والأولى بنا أن نستعين بشيء آخر غير المؤهل الدراسى – أو إلى جانبه على الأقل – للوقوف على قيمة الشخص . وفى تصورى أن هناك حلا من حلين : الأول : مواصلة الشخص للدراسة بطريقة رسمية ، والثانى : مواصلة الاطلاع على الجديد فى مجال تخصصه بحيث يظل دائمًا على السطح لا تغمره تيارات التطور المتدفقة . وفى كلتا الحالتين فإن اعتبار المؤهل الدراسى – أيا كان مستواه – صكا أخذه الشخص من المجتمع ، لا يصل إليه البلى ، لهو شيء أو نظرة يجب القضاء عليها وعدم الأخذ بها .

ماذا عن التقاليد والعادات ؟

ليس هناك من ينكر أن هناك تفاوتا فى التقاليد والعادات فى جميع الأقطار وفى جميع العصور بما فى ذلك أكثر البلاد تزمتا واستمساكا بالتقاليد والعادات، وأيضًا أكثر البلاد تحررًا وعدم التقيد بالتقاليد والعادات الاجتماعية . فتفاوت التقاليد والعادات من حيث أطيافها أمر مقبول ومعقول ، ولكن ما ليس بمعقول أو مقبول أن نرى فى المجتمع الواحد تقاليد وعادات اجتماعية متضاربة بعضها مع بعض ومتنابذة بعضها مع بعض كأشد ما يكون التضارب والتنابذ . ونستطيع أن نشبه التفاوت فى مدى الاستمساك بالتقاليد والعادات الاجتماعية القديمة والأخذ بنفس تلك التقاليد والعادات ولكن بشكل مخفف نوعا بالتفاوت الذى نلاحظه فى

سرعة السيارات التى تمر جميعًا فى اتجاه واحد ، إذ يلتزم بعض السائقين بالبطء والحذر فى القيادة ، بينما يخرج سواهم عن قاعدة البطء والحذر ويطلقون لأرجلهم العنان فى الدوس على البنزين فتنطلق سياراتهم كالسهم المارق بين العربات البطيئة . ولكننا من جهة أخرى نستطيع أن نشبه تضارب التقاليد والعادات الاجتماعية وتنابذها فى المجتمع الواحد بالسيارات التى لا تأخذ بقاعدة واحدة فى السير (كالتزام الجانب الأيمن فى القيادة بصفة أساسية) بل تأخذ بقاعدتين متضاربتين (كأن يلتزم بعض السائقين بالجانب الأيمن والبعض الآخر بالجانب الأيسر) ومن ثم يحدث التصادم المؤكد بين الفريقين .

فالبنسبة للأزياء مثلا كان المجتمع المصرى ذات يوم لا يعرف للرجال إلا زيا واحدًا هو القفطان والعمامة ، ولم يكن يشذ عن القاعدة إلا من لا يستطيعون شراء العمامة فكانوا يكتفون (باللبدة) وبالجلباب .

أما النساء فكن جميعًا يرتدين زيا واحدا . وكان التباين لا يتعلق بالجوهر بل بالصيغ الفرعية. كانت بعض النساء آنذاك يقلدن النساء التركيات فيما يلبسن؛ وكانت التركيات مستمسكات بالحشمة الشديدة كالمصريات تماما . وبعد الحملة الفرنسية على مصر بدأ التباين يشتد بين الرجال فيما يرتدون من زى ، وكذا بين النساء . فصار هناك فريق من الرجال يرتدون الجبة والقفطان والعمامة والبعض الآخر منهم صاروا يرتدون الزى الأفرنكى الذى قلدوا الفرنسيين فيه وأخذوه عنهم، وكذا النساء المصريات انقسمن إلى فريقين : فريق استمر فى ارتداء الزى التقليدى وفريق آخر أخذ يقلد الفرنسيات ويرتدين الفساتين .

ونستطيع أن نقول: إنه عند نقطة تطورية معينة انقلبت المفارقة فى الأزياء من التباين إلى التضارب . وفى عصرنا هذا يجد الشباب أنفسهم فى مجابهة تضارب شديد فى الأزياء . فبالنسبة للشبان نجد فئة محافظة تستمسك بأشد

الموديلات رجعية فيما يرتدونه ، بينما نجد فريقًا آخر يرتدى المناقض تماما لذوق الفئة المحافظة على القديم. وأكثر من هذا فإنك قد تجد بعض الشبان يرتدون ملابس مشتركة بينهم وبين الشابات . والبعض من الشباب من الجنسين يمعنون فى ارتداء قمصان كتبت عليها عبارات جنسية مثل : «أنا أحبك» أو رسم عليها قلب نفذ فيه سهم . وحتى القلب المرسوم يحتل مكانا حساسا من جسم الفتى أو الفتاة . وكأن الزى قد صار بدوره معبرًا عن الفلسفة الجنسية التى يأخذ بها مرتدوه ، ناهيك عن الضيق الشديد المفتعل للبنطلون على جسم الشاب أو الشابة بحيث يكاد يلامس الجسم ويظهر ما فيه من جاذبية ويخفى فى نفس الوقت ما فيه من عيوب .

وتلعب الألوان أيضًا دورًا خطيرًا فى التقاليد المتعلقة بالأزياء . فهناك ألوان هادئة وهناك أيضًا ألوان صارخة . ولقد وجد علماء النفس أن هناك صلة كبيرة بين اللون وبين ما يمكن أن يستحثه من عاطفة . فاللون الأحمر بأطيافه المتباينة يثير الشهوة الجنسية أو يثير الغضب، والغضب والجنس يتآخيان ويتواكبان فى سياق واحد . وشاهد ذلك أنه لدى بعض القبائل البدائية تقام حفلات صاخبة وتقرع الطبول برتابة معينة تثير حماس الموجودين وتنتهى بهم إلى احتدام انفعالاتهم وتجعلهم فى حالة أشبه ما تكون بحالة الغضب ، أو بتعبير أصح نشوة الغضب والفوران الوجدانى، وعندئذ يمارس الجنس الجماعى مصحوبا بالوحشية البادية فى طريقة الممارسة الجنسية ذاتها .

أضف إلى اللون وما نلاحظه من تناقض واضح فى التقاليد الاجتماعية المتعلقة باختيار الألوان ، موقف المصريين من العطور المستخدمة . فالأذواق متضاربة بهذا الشأن أشد التضارب . فالعطر الذى يستخدمه أحد الرجال أو إحدى السيدات كثيرًا ما يسبب نفورًا شديدًا لدى وصوله إلى أنوف المقتربين منها، وكأنما يشمون جيفة من الجيف أو على الأقل ينبون عن الشم كارهين لرائحة

العطر المستخدم مبتعدين بقدر إمكانهم عن المستخدم له . وفى نفس الوقت تجد أناسا آخرين تستهويهم تلك العطور ويقبلون عليها ويعجبون بأصحابها .

وبالنسبة للشعر سواء كان شعر الرأس أو شعر اللحية والشارب ، فإنك تجد التضارب الشديد فى موقف الناس منه . فبينما تجد البعض يطلقون شعر الرأس بحيث يكون اهتمامهم به بقدر لا يقل عن اهتمام المرأة، وقد افتن أصحاب الصالونات فى فرد شعر أصحاب تلك التقاليد الجديدة التى تستحسن استطالة شعر الرأس ، فإنك تجد فريق المحافظين لا يزالون يواظبون على قص شعر الرأس ولا يسمحون بأن يزيد طوله عن بضعة سنتيمترات قليلة . وكذا فإن التضارب يتضح بإزاء شعر اللحية وشعر الشارب. فبينما تجد فئة تواظب على حلق اللحية والشارب بانتظام كل يوم أو كل يومين ، فإنك تجد فريقا آخر وقد أطلق اللحية ، وقد تجد شخصا حلق شعر رأسه وشاربه بالموسى تماما بينما أطلق للحيته العنان فاستطالت حتى صدره .

وطبيعى أن يجد الشاب نفسه وقد انسلخ من عهد الطفولة والمراهقة وانخرط فى سلك الشباب بإزاء جميع تلك التقاليد المتضاربة ، لا يكون أمامه سوى أن يختار من بين تلك الاتجاهات اتجاها يلائمه أو يلائم من حوله استرضاء لهم . وهنا ينبغى أن نقرر: أن المسألة ليست مجرد وقوع على زى دون آخر أو على لون دون لون أو على طريقة لتصفيف الشعر دون أخرى ، وإنما المسألة تتجاوز ذلك إلى حد الانضمام إلى فريق دون فريق . فالشاب إذن باختياراته الحتمية على مسئوليته الشخصية يكون قد كسب بالتأكيد مجموعة من الأصدقاء هم أولئك الذين ينضم إليهم فيما سبق لهم اختياره ، كما أنه يؤلب عليه فى نفس الوقت مجموعة من الأعداء ، وهم أولئك الذين لم يتواءم فى اختياراته مع ما ارتضوه لأنفسهم من اختيارات .

ولكن ليت المسألة تتوقف عند حد الأزياء وتصفيف الشعر ، بل تتعداها إلى التقاليد الاجتماعية المتعلقة بالعلاقة بين الجنسين . فمجتمعنا يجمع بين فئتين من الرجال يتضارب أفرادهما تماما فى علاقتهم بالجنس الآخر . فهناك فئة من الرجال الذين يعتبرون المرأة نجسة حتى ولو لم تبلغ من العمر سوى يومين ، وأن على المرأة ألا ترفع صوتها فى المجالس أو فى الأماكن العامة؛ لأن صوتها يعتبر عورة ، ويستوى فى ذلك أفراد فئة المحافظين على التقاليد القديمة من المسلمين والمسيحيين على السواء. وهناك من جهة أخرى مضادة فريق من الرجال يؤمن بالمساواة بين الجنسين، ويعطى المرأة جميع الحقوق التى ظل الرجل يحظى بها عبر الأجيال المتعاقبة. ففى مجتمعنا اليوم الرجل الذى يسير فى الشارع أمام زوجته بينما يفصل بينهما حوالى خمسة أمتار، وفى نفس الشارع يسير الخطيب وخطيبته أو الزوج وزوجته وقد تأبطت الخطيبة أو الزوجة إبط خطيبها أو زوجها، كما أخذ يقدمها فى الدخول أو الركوب، ولا يجد حرجا فى أن يعرفها بأصدقائه، أو أن يراها تتحادث معهم وهو ليس واقفا فى حلقتهم أو تستقبلهم فى بيته فى أثناء غيابه، أو أن تذهب معهم إلى النادى أو السينما أو أن ترقص معهم .

وفى المجتمع الواحد تجد الرجل الذى لا يسمح لنفسه بأن يتحدث أو أن ينظر إلى إحدى قريباته بالشارع أو بأى مكان خارج نطاق أسرتها ، بينما تجد أيضًا الرجل الذى يسمح لأبنائه بإقامة صلات مع الشابات ، بل ويسمح لبناته الشابات بإقامة صلات صداقة (أو حتى حب) مع أصدقائهن فى النادى أو الجامعة . والشاب والشابة يجدان أنفسهما فى مواجهة تلك التقاليد الاجتماعية المتضاربة بإزاء الجنس والمناشط الجنسية ، ولا يجدان فروقا ضئيلة أو تفاوتا بسيطا مما يسهل معه الاختيار ولا يحمل صاحب الاختيار مسئولية كبيرة ، بل يجدان أنه باختيارهما يكونان قد انضما إلى فريق من الفريقين المتضاربين وهو الفريق الذى يعد متطرفا فى نظر أفراد الفريق المضاد .

ونفس الشيء بالنسبة للموقف من التدين . ولا نعنى: بلفظ «التدين» تصديق المعتقدات الدينية أو عدم تصديقها ، بل نعنى الموقف السلوكى فى إطار الدين الذى تؤمن به مجموعتان من الأفراد. فثمة مجموعة متدينة كأشد ما يكون التدين. بحيث يتشح سلوك أفراد بالتقيد الشديد بحرفية النصوص الدينية والتقاليد الدينية المتوارثة وهى التقاليد التى تتعلق بأجيال سابقة بعيدة فى طيات التاريخ ، بينما نجد مجموعة أخرى لا تكاد تجد للدين الذى تنتسب إليه صدى فى سلوكها ، فلا تكاد تعرف فى سياق تعاملك معهم أى دين ينتسبون إليه. وفى مواجهة هذين الموقفين المتعارضين: موقف التدين المتصلب وموقف اللاتدين المتسيب، يجد الشاب والشابة أن عليهما أن يختارا- ولابد أن يختارا- ولا يمكن أن يقفا موقفا وسطا بين الطرفين المتنازعين حيث يأخذ كل طرف منهما فى جذبهما إلى صفه وخرطهما فى نطاقه بكل ما فى وسعهما من جهد وما فى جعبتهما من إغراءات ووسائل إيحاء وإقناع .

وثمة جانب آخر يتباين فيه الناس كأشد ما يكون التباين هو موقف الصغار من الكبار . فبينما نجد أن بعض الأسر تحمل أبناءها وبناتها من الشباب على احترام الكبار أيا كانوا بأكثر أمارات السلوك إبداءً للاحترام كتقبيل اليد والانحناء وعدم إلقاء رجل إلى أخرى فى الجلوس ، بل وعدم الجلوس فى حضرة الكبار وعدم الضحك بصوت عال فى أثناء وجودهم ، أو حتى الامتناع عن الابتسام واستخدام ألقاب معينة فى الحديث معهم مثل: «حضرتك» أو «سيادتك» أو أفندم بالنسبة للذكور من الكبار ، «وأبلة» «وتيزة» «وطانط» وغير ذلك من ألقاب بالنسبة للإناث من الكبار ، فإننا نجد فى مقابل ذلك فئة أخرى تبدى مناهضة ومقاومة للكبار ، بل وتبدى تحديا بإزاء كل ما يتعلق بهم . فهم وإن استخدموا تلك الألقاب فى مخاطبتهم فى أثناء الطفولة والمراهقة ، فإنهم ينفضون عنهم ذلك حالما ينخرطون فى طور الشباب ، وتجدهم يلتزمون بالألقاب الرسمية، أعنى: الحد الأدنى من الألقاب .

فبعد أن كان الشخص ينادى «بعم فلان» يصير «الأستاذ فلان» أو «الدكتور فلان» وينسى الشاب من هذه الفئة تماما أن هذا الشخص بعينه كان فى الأمس القريب محفوفًا بالاحترام والتقدير من جانبه ، وأنه لم يقترف جرمًا حتى ينزله الشاب أو تنزله الشابة من العرش الذى كان متربعًا عليه وتحطه إلى مرتبة الأنداد والأتراب . والواحد من هذه الفئة من الشباب لا يكتفى بعدم إبداء أمارات الاحترام للكبار ، بل إنه يمعن فى احتقار كل ما يتعلق بعالم الكبار ، ولا يكون هجومه على الكبار مضمرًا فى طيات سلوكه ، بل يكون أيضًا معلنًا على لسانه فى المجالس التى تضمه معهم ، وإنك لتجد كل شاب وكل شابة من شبابنا حال انسلاخه من طور المراهقة ، وقد اتخذ مواجهة صريحة وحاسمة بإزاء هذين الموقفين : موقف الاحترام الشديد للكبار ، وموقف مناهضتهم والثورة ضدهم ، ويكون على كل منهما أن ينضم صراحة إلى طرف من الطرفين المتضادين المتنابذين .

ولعلنا نستطيع أن نلخص الموقفين المتعارضين اللذين يجب أن ينضم الشاب والشابة إلى واحد منهما دون الآخر ، بأن نقول: إن هناك موقفا متسما بالانتماء إلى الموروث من التقاليد الاجتماعية والحفاظ على العادات الاجتماعية التقليدية ، بينما نجد أن هناك موقفًا مناهضًا يدعو إلى القضاء على كل قديم يتعلق بالتقاليد والعادات الاجتماعية وعدم الأخذ إلا بما يريده الفرد وينبع من صميم كيانه . والشباب فى حيرة بحيث لا يستطيع أن يطمئن إلى الموقف الذى يتخذه ؛ لأنه مهما اختار فلابد أنه مؤلب عليه أفراد الفئة الأخرى المناهضة للموقف الذى ارتضاه لنفسه وضم صوته إليه .

حذار من البطالة المقنعة

انتشر استخدام لفظ البطالة المقنَّعة Underemployment فى هذه الأيام للتعبير عن الحالة الناتجة عن حشد موظفين أو عمال فى عمل ليس بحاجة إليهم

جميعًا وكان يكفى للنهوض به تشغيل عدد معين منهم ، كما يدل هذا اللفظ على وضع شخص فى مكان غير مناسب لما درب عليه ولما يتمشى مع استعداداته أو ميوله لا لشىء إلا لمجرد تشغيله وعدم تركه متعطلاً بالشوارع .

وعلى الرغم من أن تشغيل الناس خير من تركهم فى حالة من البطالة ، فإن تشغيل الناس لمجرد تجنب حالة البطالة وحشد جمهور منهم فى عملية لا تحتاج إلا إلى عدد معين ، وتوجيه الأشخاص إلى أعمال لم يؤهلوا لها ولم يسبق إعدادهم لها ، إنما يشكل مشكلة نفسية واجتماعية خطيرة قد لا تقل خطورتها فى بعض الحالات عن خطورة البطالة الصريحة .

ولسنا بالطبع نناهض سياسة التشغيل والإفادة من كل موطن ، ولكن الذى نسعى إليه هو الجوهر . فجوهر التشغيل هو إفادة المواطن والاستفادة من جهوده فى نفس الوقت . ذلك أن تشغيل المواطن ليس إحسانا تقدمه الدولة لفئة من الفقراء والمعوزين . إن توظيف الناس يجب أن يتسم بالتوازن فيما بين ما تقدمه الدولة من أجر وفيما بين ما يقدمه المواطن من جهد مثمر . ولكن إذا أحست الدولة أنها تنفق من ميزانيتها الأموال الطائلة فى التوظيف ، ولكنها لا تأخذ عائدا مماثلا عما تنفقه ، فإنها بذلك تكون قد قصرت فى حق المواطن الموظف وفى حقها بل وفى حق جميع المواطنين .

يقول لنا علماء النفس – مكدوجال مثلا – : إن الإنسان فى أى عمر يحتاج إلى تحقيق اعتباره لنفسه من خلال اعتراف الناس به . وحتى الطفل الصغير ليس مغايرا للكبار فى هذا الصدد . ولقد اكتشف علماء النفس حديثا أن الطفل لا يحب أن يكون موضوعا لعبث الكبار ، ولا يريد أيضا أن ينظر هو نفسه بعبث إلى الأشياء . إنه يريد مراعاة الجدية فى كل شىء حتى فى اللعب ذاته . إنه يريد أن يعمل شيئًا ، وشيئًا ذا بال يحمل الآخرين من الصغار والكبار على الاعتراف

بقدراته وبعبقريته وفردانيته . إنه لا يرغب أن يكون صورة من أى طفل آخر . إنه لا يريد أن ينظر الناس إليه بازدراء ، وألا يتناولوا ما يعمله بالسخرية ، ولا حتى بغير اكتراث . إنه يريد أن يكون إيجابيا ، وأن يكون كائنا مؤثرا ، كائنا يستطيع ترك بصمة تأثيره على كل ما تلمسه يداه ، وعلى كل ما يحيط به من أشياء .

وإذا كان هذا هو شأن الطفل ، فهو بالأولى شأن الشباب . إنهم لا يريدون أن يكون توظيف الدولة لهم لمجرد أن الدولة لا ترغب فى أن يرمى بالخريجين فى الجامعات والمعاهد والمدارس إلى الشوارع . إن الشاب يريد أن تقول له الدولة «أنا بحاجة إلى جهودك التى لا يمكن الاستغناء عنها . إنى لا أرغب فى توظيفك للإحسان إليك. أنا أرغب فى أن أقدم إليك عوضا عما تقدمه إلى». الشباب يريد أن يريد أن يعمل شيئًا ، وأن يقدم ثمارا حقيقية لتعلمه بالجامعات والمعاهد إنه يريد أن يجعل الصحراء تنبت زرعا ، وأن يقضى على الأمراض بما يبتكره من وسائل جديدة للعلاج . ولا يريد أن تكون حياته رتيبة وقد رسمت خطوطها له حتى التفاصيل . إنه يريد أن يترك له مجال يتحرك فيه ، ويثبت من خلاله ما تمتاز به شخصيته من مواهب ، وما يفوز به عقله من أفكار جديدة ، وما يشتعل فى نفسه من حماسة ، وما يعتمل فى كيانه من إرادة لا تُفَل .

والشباب يكره بمقت شديد أن يُحمل على الاضطلاع بعمل مغاير تمامًا لما كرس نفسه من أجله . إنه يريد أن يحقق ذاته فى عمل متمكن منه ومهيأ له بكفاية. ولعل ما نسمع عنه من تقصير أو تهاون إنما يرجع أولا وقبل كل شىء إلى أن ما نيط بالشخص من مهام ليست أساسا مما يتمشى مع ما جبل عليه أو مع ما أعد له خلال دراسته أو خلال توجيهه المهنى .

ولعلنا نعود مرة أخرى إلى عتاب المدرسة والكلية عتابا شديدا بإزاء نقطة حيوية تتعلق بالمناهج الدراسية . ذلك أن واضعى المناهج لا يأخذون غالبًا فى

اعتبارهم ما سيواجه الشخص فى الحياة ، بل يستمسكون بنظرية العلم للعلم ، ومن ثم يجد الشاب نفسه غريبا عن الحياة العملية برغم إقرار الجامعة أو المعهد بأنه انتهى من دراسته فيها على خير وجه ، وأن الدراسات التى تلقاها قد هيأته للعمل بنجاح فى الحياة العملية .

ويمكن أن نعزو الفجوة فيما بين الدراسات التى يتلقاها الشباب بالجامعات والمعاهد وبين ما يجابهونه فى الحياة العملية من مواقف ومشكلات إلى عدم ارتباط هيئات التدريس بالحياة العملية وعكوفهم لساعات طويلة كل يوم وهم منكبون على التحصيل وحشد الذهن بأحدث النظريات . ولسنا نقلل من قيمة معرفة الأستاذ بمادته ، ولكنه يكون مقصرًا فى حق الطالب إذا هو أغمض عينيه عما يحدث فى الحياة ، وإذا هو لم يقس ما يقدمه إليه من معلومات فى ضوء مدى الاستخدام الفعلى فى الواقع بعد التخرج .

إن كل شىء نابض بالحياة يكون قابلا للتطبيق أو قابلا للتفاعل مع الناس بالمجتمع. أما ما ليس له صلة بالحياة الاجتماعية الخاصة بعصرنا ، فإنه يكون بالنسبة لنا أثرا من الآثار ، وشيئا غريبا عن واقع حياتنا . ومن ثم فإننا لا نحس بقيمته . فالهامشية التى يحسها رجال الأعمال والرؤساء فى الموظفين الجدد إنما ترجع أولا وقبل كل شىء إلى أن معاهد العلم فى عزلة عن الحياة العملية ، ولأنها ترغب فى أن تكون قوَّامة على واقع الحياة . والأحرى بها أن تكون خادمة للحياة؛ حتى تصير نابضة بالحياة .

ولكن يجب أيضًا ألا نلقى بكل المسئولية على جهات التعليم والتدريب ، بل يجب أيضًا أن نوجه العتاب إلى جهات التوظيف . لماذا لا نأخذ رغبة المواطن الفرد فى الاعتبار ؟ لماذا لا نوجه الشخص إلى الحياة وفق ما أعد له فعلا فى الجامعة أو المعهد ؟ لماذا نوجه الشخص الذى كلفته الدولة بأن يتغرب فى أمريكا

أو روسيا - ليتعلم استخدام الذرة فى الطب - إلى الوحدات الصحية بإحدى القرى التى لا يوجد بها شىء من طب الذرة؟! ولماذا نندهش ونضجر من ذلك الطبيب العائد لأنه صار مهملا لعمله ؟ أو لأنه يجلس فى بطالة مقنَّعة لا يكاد ينتج شيئًا من التطبيب لخدمة مرضاه بالقرية ؟ الواقع أن النواحى النفسية لها أكبر الآثار وأعمقها فى تسيير دفة سلوك الإنسان فى أى سن وفى أية وظيفة مهما كان حاصلا على علم قليل أو كثير.

فى إحدى المؤسسات شاهدت ثلاث آنسات علمت أنهن خريجات فى معهد السكرتارية كُدِّسن جميعا فى مكتب واحد ، ولا يكاد يكون لأى منهن أى عمل تقوم به . ليس على الواحدة منهن إلا أن توقع بالحضور ، ثم توقع فى آخر النهار بالانصراف، وتقدم فى آخر الشهر لتتقاضى مرتبها . وليس الذنب ذنب الواحدة منهن إذا هى أهملت مواهبها ولم تستثمرها فى تعلم أشياء جديدة مما يعود بالفائدة على عملها . ذلك أنها لا تعمل شيئًا بما تمرست منه . إنها كم مهمل وستظل كذلك بعد أن تعتاد الحياة الرخيصة السهلة المليئة بالكسل الجسمى والكسل العقلى.

وأكثر من هذا فإن وجود هذا الفائض من الأيدى العاملة بالمكاتب يبث روح الفتور والتوانى بين أولئك الذين دأبوا على بذل الجهد فى العمل . يقول الشخص الذى دأب على الإخلاص: «وماذا أخذت أكثر من زملائى هؤلاء الذين يعبثون ويمرحون ويذهبون ويجيئون عبر المكاتب يتحدثون مع هذا ويمزحون مع ذاك، ويقضون الساعات فى المكالمات التليفونية الشخصية ، أو فى لوك سمعة الآخرين بالنقد والتقريع أو بالتهكم والسخرية؟!» .

ومن المناظر المألوفة التى نراها أول كل شهر لدى تجديد اشتراكات الأوتوبيس أن تجد اثنين من الموظفين وقد وقف أمام كل منهما طابور قد يبلغ المائة شخص ، بينما جلس على مقربة من هذين الموظفين المكدسين بالعمل خمسة أو ستة موظفين وقد انهمكوا فى شرب الشاى أو فى تناول الطعام وليس فى

يد واحد منهم ورقة ولا قلم وقد امتلأت نفوسهم بالبهجة لهذا العذاب الذى يلقاه المواطنون فى تجديد الاشتراك الشهرى ، أو لعل سر تلك البهجة المرتسمة على وجوههم أنهم لا يعملون شيئا بينما يغرق زميلاهم فى العمل . ويتساءل المساكين الواقفون فى انتظار الفرج بالوصول إلى الشباك : لماذا لا يوزع العمل على أولئك المتعطلين ؟ ولكن الإجابة عن ذلك التساؤل لا تجد سبيلها إلى آذانهم؛ لأنها محبوسة فى عقول المسئولين عن التوظيف وتوزيع العاملين وتطوير أعمالهم .

والواقع أن السيادة على العمل هى سر نجاح الأجهزة الإدارية فى أى مكان وهناك مجموعة من الأذكياء يقومون بوضع الروتين تسهيلا لإنجاز العمل . ولكن أولئك الأذكياء ما يفتأون يتركون العمل الذى وضعوا له الروتين . ويأتى من بعدهم أشخاص يحكمون على أنفسهم بالانغلاق والغباء ؛ لأنهم بدلا من أن ينظروا إلى الروتين على أنه خادم للعمليات التى يراد إنجازها ، فإنهم يعمدون إلى تأليهه والانحناء له ، ولا يتمكنون من أخذ الظروف المتغيرة فى اعتبارهم . ذلك أن الوسيلة التى تستعين بها فى موقف ما وفى عصر ما يجب أن تتباين عن الوسيلة التى يجب عليك أن تستخدمها فى موقف آخر أو فى عصر آخر . وأكثر من هذا فإن الوسيلة التى تستعين بها أنت فى تسيير أعمالك قد لا تتناسب مع مزاج وإمكانيات شخص آخر يضطلع بنفس العملية . فإذا حكمنا على الأشخاص جميعا باتباع نفس الأسلوب ، وجعلنا من الروتين صنما نخر له ساجدين ، فإننا لا نستطيع أن نطور الأعمال التى نقوم بتنفيذها ، ولا نستطيع أن نفسح لأنفسنا مجالا نعبر فيه عن ذكائنا وخيالنا وقدرتنا على الابتكار .

والبطالة المقنعة التى نجدها متفشية فى مكاتبنا ترجع فى كثير من الأحيان إلى الخوف من الجديد ، والخوف من الانتقاد؛ لأننا بدأنا فى الحيد عن المتبع . وهناك فئة من الموظفين الذين يستعينون بالروتين كأداة فعالة فى الهيمنة على كل الجهاز الإدارى فهم سرعان ما يتصدون لكل موقف بالتعليق

بعبارات مخيفة لكل من يقرؤها . من تلك عبارات «حسب التعليمات» «جرت العادة على ...» وأكثر من هذا فإن أولئك الموظفين يحتفظون بصيغ فى طيات مكاتبهم يخرجونها من جعبهم وقت الحاجة ، والبعض منهم يخبئ القرارات الوزارية أو الأحكام الإدارية أو غير ذلك من حجج ليستخدموها وقت الحاجة فى السيطرة على كل من تسول له نفسه بالتحرك أو التجديد . ومن السهل عليهم أن يحكموا بأن ذلك الموظف المبتدع إنما يلجأ إلى أسلوبه الجديد لا لشىء إلا لتغطية جهله بالقانون والروتين . من هنا فإن الأسهل على الموظف والآمن له أن ينزوى تحت راية ذلك الموظف المقتدر الحافظ لنصوص القانون وأحكام الروتين؛ حتى لا يعرض نفسه للملامة .

وقد يلجأ بعض الموظفين إمعانا فى البطالة المقنعة إلى أسلوب تحويل الأوراق بنفس الصيغ القانونية «يحول إلى جهة الاختصاص» وطبيعى أن تسافر الورقة إلى جهة الاختصاص التى تحيلها بدورها إلى جهة اختصاص أخرى إلى أن يموت الموضوع الذى تحمله تلك الورقة المعذبة بين أيدى أصحاب الروتين ؛ أو بتعبير أدق المهيمنين على البطالة المقنعة .

وهناك وظائف معينة شبه رئاسية يعرف الجميع أنها خصصت لأولئك الذين يراد ركنهم على الرف . وعلى الرغم من أن تلك الوظائف أرقى من الناحية الرسمية من بعض الوظائف الأخرى المسئولة ، فإنها من الناحية الجوهرية وظائف بلا عمل . إنها أيضًا بمثابة عقوبات مقنعة . فبدلا من أن يوقع الجزاء على الشخص ، وبدلا من الدخول فى دوامة التحقيقات التى لا يضمن عقباها على أى من الأطراف المعينة ، فإن قرارًا يصدر بالنقل أو حتى بالترقية إلى تلك الوظائف الهامشية كأنه قد حكم بالنفى على ذلك الشخص غير المرغوب فيه . والكل يعلم المغزى المختفى وراء حركة النقل أو الترقية ، ولكن ذلك لا يتناقل إلا همسًا فى آذان باقى الموظفين .

وهناك أعمال تختفى كلية وأعمال تختفى منها بعض الأجزاء أو يجب أن تختفى . والاحتفاظ بها أو بالموظفين الذين كانوا يضطلعون بها فى نفس أماكنهم معناه الحكم عليهم بالبطالة المقنعة .

ولتقديم مثال عن ذلك ، أذكر أن الهيئة العامة للاتصالات السلكية واللاسلكية كانت تستخدم فى إرسال البرقيات جهاز المورس ، ثم بدأت تستخدم الفاكس . فماذا حدث بالنسبة لأولئك الذين كانوا يشتغلون على المورس ؟ كان الأحرى أن يتم تدريبهم على الفاكس ولكن الذى حدث هو استمرار الاحتفاظ بهم فى وظائفهم التى تمرسوا بها ، وعين شبان جدد دربوا منذ بداية الأمر على الفاكس . ومعنى هذا: أن الهيئة قد حكمت على الفئة الأولى بالبطالة المقنعة، وقد أحس كل واحد منهم بأنه صار غير مطلوب فى سوق العمل . وكان المخرج الذى لجأت إليه تلك الشركة وقتئذ هو العمل على ترقية هذه الفئة العاطلة وجعلهم رؤساء على فئة المشتغلين برغم جهلهم بالعمل .

وإلى جانب هذا المثال فإن هناك أمثلة عديدة يمكن أن نسوقها . نذكر مثلا أولئك الذين كانوا يحترفون بحرفة السروجية وحرفة صناعة الطرابيش . فبعد أن تلاشت الخيول من حياة الناس اليومية وحلت السيارة محل الحصان ، وأيضًا بعد أن أقلع الناس عن ارتداء الطربوش ، صار أصحاب هاتين الحرفتين عاطلين فعلا. ولكنهم سرعان ما انخرطوا فى سلك الحياة ؟ ولكن انخراطهم الجديد فى أعمال جديدة كان بطريقة عشوائية واجتهادية ، لذا يمكن أن نعتبر اشتغالهم بالأعمال الجديدة لا يعدو أن يكون بطالة مقنعة .

ومما لاشك فيه أن القضاء على البطالة المقنعة بكافة صورها ، إنما يعود بالنفع على كل من الفرد والمجتمع . وينبغى ألا يكون الحل الذى نقدمه لمشكلاتنا حلا أعجف لا يترك وراءه سوى الوقوع فى مشكلات جديدة من نوع جديد .

★ ★ ★

الفصل الثانى

أزمة اللياقة الجسمية

شكرًا للطب ... ولكن ..

لا يستطيع أحد أن ينكر فضل الطب على الإنسانية . فلقد أخذ الإنسان منذ فجر التاريخ يحاول التغلب على الأمراض التى تفتك بأطفاله وحمايتهم من الإصابة بها عن طريق العدوى، كما أخذ يحمى نفسه من أخطار الطبيعة ومن تقلبات الجو، وذلك بتشييد المساكن، وبارتداء الملابس المناسبة؛ كما أخذ يجاهد لاكتشاف أسرار التغذية، وذلك باستخلاص المواد التى إذا ما تناولها الشخص فإنه يستطيع أن يعوض عما فاته أخذه بطريق الغذاء الطبيعى. وما يزال الإنسان يفكر مستفيدا بالخبرات الماضية وما يزال يجرب ما يستحدثه من عقاقير على الحيوانات قبل أن يجربها على أبنائه إلى أن يتأكد من فاعليتها وفائدتها . وعندئذ يبدأ فى عرضها بالأسواق؛ لكى يفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس المحتاجين إليها .

ولقد كانت الطبيعة قبل بزوغ الحضارة تقوم بعملية تصفية للأطفال قبل أن يشبوا عن الطوق ، أو كما عبر عن ذلك تشارلس داروين بالاختيار الطبيعى Natural selection ، فكانت الطبيعة تجرى مسابقة بين جميع أطفال الكائنات الحية بما فى ذلك أطفال الإنسان نفسه . وكان الاختيار قاسيا ومستمرا. وكلما كان

الشخص ينجح فى أحد امتحانات الطبيعة كان البقاء يقيض له إلى حين اجتيازه الامتحان التالى . وفى اللحظة التى كان يفشل فيها الشخص فى اجتياز أحد الامتحانات ، فإنه كان يقضى نحبه ويوارى التراب . فلم يكن البقاء على قيد الحياة مكفولا إلا للصفوة التى تستطيع الثبات للامتحانات التى تجريها الطبيعة. أما فئة الواهنين ، فإنهم كانوا يتركون أماكنهم على هذه البسيطة لمن يستحقون البقاء .

والواقع أن المجتمعات القديمة كانت منسجمة إلى حد بعيد مع ما كانت الطبيعة قد انتحت إليه من عقد امتحانات مستمرة للناس والأحياء بعامة . فكانت تلك المجتمعات تعرض ناشئتها لامتحانات قاسية، ولا تسمح بالبقاء من الأطفال الممتحنين إلا لأولئك الذين يثبتون الجدارة والتحمل والنضال فى سبيل البقاء . فمجتمع مدينة إسبرطة مثلا (القرن الخامس قبل الميلاد) كان يعرض أطفاله الصغار للبرد فيظل الطفل عاريًا على سفح الجبل فوق الجليد طوال ليلة بكاملها . ومن يظل من أولئك الأطفال المعرضين لذلك الامتحان القاسى حيا ، كان يعاد به إلى نطاق مدينة إسبرطة؛ ليعتنى به .

بيد أن تلك العناية التى كان يلقاها الطفل الإسبرطى لم تكن بالتدليل والحفاظ من تقلبات الجو أو الصيانة من الأخطار . العكس هو الصحيح . لقد كانت التربية الإسبرطية تفهم العناية بالطفولة بأنها التخشين وتوفير القدرة على مجابهة الواقع بأقسى ما يحمله من ظواهر ، سواء كان ذلك الواقع يتمثل فى الصقيع البارد أو فى الرياح النافحة أو اللافحة أو الشمس الحارقة أو فى البحر الهائج أو فى الوحش المفترس المتربص للانقضاض والفتك ،أو كان متمثلا فى الأعداء من البشر الذين كانوا يتمثلون وقتئذ فى أهل آثينا وفى السكان الأصليين بإسبرطة ذاتها .

وكانت التربية الإسبرطية تقوم أساسًاعلى تعلم المغالبة والصمود . ومعنى هذا أن الطفل الإسبرطى ، والشاب الأسبرطى والرجل الإسبرطى والمرأة الإسبرطية كانوا فى حالة مستمرة من توقع الخطر ، وكانوا بالتالى يدأبون على إعداد أنفسهم لما يمكن أن يستجد بالموقف من أخطار . ومعنى هذا أيضا: أن الضعفاء والمتخاذلين كانوا يلقون حتفهم ، ولم يكن يظل على مسرح الحياة الإسبرطية إلا أولئك الذين تثبت جدارتهم للبقاء .

وإذا كنا نسوق هنا مثلا بإسبرطة ، فليس معنى هذا أن المجتمعات الأخرى كانت مخالفة لنهج إسبرطة . نعم إن إسبرطة القديمة كانت وما تزال مضرب الأمثال للإشارة إلى استخدام العنف والتعريض للخطر فى التربية . ولكن الواقع أن هذا كان هو القاعدة بالمجتمعات البدائية والقديمة . ذلك أنها كانت قريبة نسبيا من حالة الطبيعة . ومن ثم فإنها كانت تستشف من الطبيعة طرائقها فتأخذها وتستهدى بها فى ممارستها .

بيد أن الجنس البشرى قد بعد عن الطبيعة باختراعه للحضارة ، ونستطيع القول: إن هناك شبه حرب بين الحضارة الإنسانية وبين الطبيعة . وبالتالى فإن الإنسان الحديث قد صار كائنا غير طبيعى . إنه كائن حضارى بمعنى الكلمة ؛ وشاهد ذلك أنك إذا عرضت أى طفل حديث لما كان يتعرض له الطفل الإسبرطى– وهو الطفل الذى كان يتعرض لما كان يتعرض له أفراد الكائنات الحية فى حضن الطبيعة– فإنه يموت بالتأكيد خلال بضع دقائق. ولكن ما السبب فى ذلك؟ أليس الطفل الحديث مثل الطفل الإسبرطى ؟

الواقع غير ذلك على طول الخط . لقد أوهنت الحضارة الإنسان الطفل من حيث أرادت حمايته والحفاظ على كيانه . فحماية الطفولة عبر الأجيال بالوسائل الصناعية – الأغذية الصناعية والعقاقير الطبية والمساكن الدافئة بالأماكن

الباردة والمساكن المنعشة بالأماكن الحارة والملابس وغير ذلك – إنما جعل الإنسان الحديث كائنا ذابلا من الناحية الجسمية ، وبالتالى فإن الكثرة من أبناء الأجيال البشرية الحديثة قد ضرب الذبول عليها ، وقد أخذت الحضارة تهيمن عليها بالوسائل الصناعية التى تعمل فى المدى الطويل على زيادة اضمحلالها وضعفها .

والإنسان فى حال الطبيعة كان فى الواقع خاضعًا لامتحانين أساسيين: الامتحان الأول: امتحان يتعلق بوجوده شخصيا على قيد الحياة إلى أطول فترة ممكنة . أما الامتحان الثانى فهو: امتحان قدرته الجنسية . ولم تكن تلك القدرة منفصلة عن القدرة على العراك وإثبات الجدارة فى الاستيلاء على الأنثى . لم تكن هناك اعتبارات تتعلق بالمهنة أو بالثروة ، بل كان الاعتبار الأول والأخير يقام لما يستمتع به الشخص من قوة عضلية ، ومن قدرة على إثبات المهارة فى الفتك بالأشخاص الآخرين الراغبين فى الاتصال الجنسى بنفس المرأة .

كانت هناك مجموعة من الغرائز الطبيعية تعمل عملها فى هذا النوع الأخير من استمرار البقاء . كانت هناك الغريزة الجنسية بالطبع ، ثم كانت هناك غريزة العدوانية والسيطرة ، ثم كانت هناك غريزة الامتلاك ، بالإضافة إلى غريزة الاستطلاع والغريزة الوالدية إلى آخر تلك الغرائز الطبيعية أو الدوافع كما يحلو للبعض تسميتها مفضلين لفظ دافع على لفظ غريزة .

وحتى إذا كان بإمكان الشخص إثبات وجوده كفرد على قيد الحياة فى مقابل ما يتعرض له من أخطار ، فلم يكن يضمن استمرار وجوده فى ذريته التى ينجبها . فلم يكن يستطيع القيام بالاتصال الجنسى من بين كثير من الذكور إلا أولئك الذين يثبت أنهم أقوياء . وحتى أولئك الذين كانوا يستطيعون ذلك فى غفلة عن أعين الأقوياء الباطشين . فإن ذريتهم كانت سرعان ما تتعرض للهلاك؛ لأن

امتحان الطبيعة كان قاسيا ومستمرا . فالمصفاة الطبيعية كانت تضمن للجنس البشرى استمرار العمالقة الأكفاء على قيد الحياة ، بينما كانت تحكم على الضعفاء بالموت وهى غير آسفة على موتهم .

والواقع أن حضارتنا – والطب بالذات – قد كفل الوجود للغالبية العظمى من الناس أى لكل من هب ودب ،. فاستمر بفضل جهوده على قيد الحياة كثير جدا ممن كان يحكم عليهم بالموت فى ضوء مبدأ الاختيار الطبيعى الذى كان يمثل القانون الوحيد للبقاء . ولسنا بالطبع ننعى على الطب قيامه بحماية الإنسان ، ولكننا نود أن نبرز ناحية ربما لا تجذب انتباهنا ، وربما كان لسان حال الطب وهو يؤدى واجبه تجاه الإنسانية هو: «لقد قمت بواجبى أيتها الحضارة ؛ فعليك أنت أيضًا أن تقومى بواجبك» .

ولقد كان المتوقع من الحضارة الإنسانية أن تأخذ اللياقة الجسمية فى اعتبارها ، فتحاول بالتربية أن تقوى الأبدان ، وأن تكفل النشاط الجسمى للناشئة، وأن تحاول بالقانون منع السقماء من الإنجاب . ولكن الذى حدث عكس هذا تماما . إنها انحرفت بالتربية إلى ما يضر وليس إلى ما يفيد . ولقد سبق أن أوضحنا أن التربية التى تستمسك بها الحضارة هى تربية لا تكاد تأخذ فى اعتبارها تربية الأجسام ، بل تصب جل اهتمامها على تربية العقول ، بل تربية الذاكرة أو حشدها – بتعبير أدق – بالمعلومات ، ناهيك عن أن التربية الحديثة تضعف حاسة البصر بسبب الإضاءة الرديئة وبسبب كثرة تركيز البصر على الكتب والأوراق . ولا شك أن النظام المدرسى الحديث الذى يقضى بعدم تحرك الأطفال وبتقييد حريتهم فى النشاط التلقائى ، وبمنعهم من التعرض للمغامرات خوفًا مما قد يصيبهم من حوادث إنما يحكم بأن يكون الناشئة ضامرى الجسم واهنى العزيمة .

والحضارة الحديثة بمعاييرها للشخصية المتحضرة تقلل من قيمة الناحية الجسمية ، بينما هى تنوط جوانب أخرى كالثروة والمهنة مكانة مرموقة. وبالتالى فإن الزواج بعد أن كان يعتمد بالمجتمعات البدائية والقديمة على الركن الصحيح الضامن لبقاء النوع ، أصبح يعتمد على أركان حضارية غريبة عن طبيعة الوجود . ولم يعد الإنسان الحديث يتنافس على الأنثى بالتعبير عن قوته وبطشه وقدرته على حمايتها والاستئثار بها ، بل صار العرف والتقاليد وما تقضى به الأسرة والمفاوضات بين العريس وأهل العروس هى الوسائل التى تكفل الوصول إلى المآرب . ولعل أهل العروس يتقصون كل صغيرة وكبيرة عن ظروف العريس عدا ناحية واحدة هى الناحية الجنسية . فهذه ناحية لا تظهر ولا يتم الحديث فيها إلا إذا شكلت مأساة زوجية وطلبت الزوجة الطلاق من زوجها؛ لأنه لا يستطيع القيام بمهام الزوج الجنسية . ومعنى هذا فى الواقع أن مجرد الكفاف فى القدرة الجنسية كاف لحماية الزوج من الفضيحة . ولم يكن الأمر كذلك بالطبع فى المجتمعات البدائية التى كانت تشترط القوة والصلابة واللياقة المستمرة لاستمرار الإنجاب .

والحضارة بما تستنه من قوانين وبما تقرره من شرائع كأنما تعمل فى الواقع على حماية الضعفاء من مؤامرات وبطش الأقوياء . ولقد حددت القوانين الحضارية كل صغيرة وكبيرة فى المناشط الجنسية بحيث لم تكد تترك مجالا ولو صغيرًا للاختيار الطبيعى وكلما علت صيحات المصلحين الاجتماعيين بالحد من تناسل الضعفاء ، وبالوقوف بالمرصاد لمن لا تثبت جدارتهم الجنسية ، فإن القانون يرفع صوته بالفيتو ويمنع تلك الدعوات من أخذ طريقها إلى حيز التنفيذ، أو حتى لمجرد النشر على صفحات الجرائد أو بالإعلان عن نفسها من خلال الإذاعة والتليفزيون .

وقد نتج عن الحضارة الإنسانية وما تذرعت به من طب وتشريعات وتربية

أن قضى على مفعول وسلطات الاختيار الطبيعى ، وانهار التوازن فيما بين إمكانيات الطبيعة وبين زيادة عدد السكان . ولقد قرر مالثوس أن السكان فى ظل الحضارة يتزايدون وفق متتابعة هندسية ، بينما لا يتزايد استثمار الأرض إلا فى ضوء متتابعة حسابية .، فالنسل البشرى يتزايد على النحو التالى ١ – ٢ – ٤ – ٨ – ١٦ – ٣٢ ... إلخ . أما استثمار الأرض فإنه يتم على النحو التالى ، ١ – ٢ – ٣ – ٤ ... إلخ . ولقد أحس مالثوس: بالتشاؤم إزاء إمكان التوصل إلى حل لهذه المشكلة ، فلجأ إلى التنبؤ بما سيحدث بدلا من تقديم الحل الإيجابى الناجع . والنبوءة التى قدمها مالثوس هى انتشار المجاعات مما ينتهى إلى تلاشى الزائد من الحمولة البشرية التى لا تستطيع الأرض إطعامها . أما النبوءة الثانية فهى: انتشار الحروب المبيدة التى تنتهى إلى القضاء على أعداد مهولة من الجنس البشرى والارتداد بالإنسان إلى حالة فطرية تهدد بضياع الحضارة كلها ، إن لم يكن بتلاشى الإنسان من سطح الأرض ومعه باقى الأحياء .

وحتى إذا لم تتحقق نبوءة مالثوس – وهو ما نرجو عدم حدوثه – فواضح أن الإنسان الحديث يقع تحت وطأة ضغوط كثيرة تهدد صحته وسعادته إن لم تهدد كيانه ذاته . فالزحام ونقص المواد الغذائية والمساكن الضيقة ونقص التهوية وتلوث الهواء والماء ، وضعف النبات والماشية وغير ذلك يتجمع كله للتربص بصحة الإنسان الجسمية والنفسية ، والواقع أن تهديد صحة الإنسان على هذا النحو وحرمانه من مقومات الغذاء الكافية لأمر أخطر من الحل الذى تنتحى إليه الطبيعة ، بل وأخطر من الحل الذى كانت تلجأ إليه المجتمعات القديمة بعدم تحقيق البقاء إلا للأقوياء القادرين على مقاومة الفناء .

ونحن فى مصر – وفى مدنها بالذات – نجد أن الأفنية والملاعب بالمدارس وقد أخذت تتقلص مساحتها حتى لتكاد تنقرض . أضف إلى هذا أن المتنزهات العامة قد أخذت هى أيضًا فى التلاشى، لكى تحل محلها المبانى الشاهقة التى

تسد الهواء وتحول بين الشخص وبين التنفس الطلق ، ناهيك عما تزخر به المدينة من مصانع تصدر الدخان الكثيف إلى الغلاف الجوى المحيط بالبيوت فينعقد فوقها كجدائل ويفسد على مواطنى المدينة تنفسهم الصحيح . ولا تنس أيضًا ما تدفع به المصانع والمجارى من مواد كريهة وضارة إلى النيل والترع مما يعمل على تلويث المياه العذبة .

وحتى الطب الذى أثقلنا الكلام عليه صار مرهقا هو نفسه بسبب كثرة زبائنه . فبعد أن كان الإنسان القديم يقضى نحبه إذا لم يكن صالحًا للحياة ، فإن فتح صدر الطب لأبناء الحضارة الحديثة ، قد جعل المقبلين على طلب العلاج فى تزايد مستمر . أضف إلى هذا أن الحضارة الحديثة لها أمراضها الخاصة بها والتى تتزايد جيلا بعد جيل . ويبدو أن تزايد السكان قد صاحبه تزايد فى الميكروبات عددا ونوعا ، ولا شك أن الإرهاق النفسى وزيف الحضارة الإنسانية – لأنها تخالف القانون الطبيعى – قد انتهى إلى فقدان الجسم البشرى لاتزانه ، فانهارت قوى الجهاز العصبى البشرى ، وصار غير قادر على صد كثير من الأمراض التى تلحق به وتكتنفه من كل جانب .

ونأسف إذ نقرر: أن الحقيقة مُرَّة ، وأن ضعف الجسم البشرى قد بلغ حدا خطيرًا لا يمكن السكوت عليه . ولا يغرنك ما لجأ إليه الإنسان الحديث من وسائل التمويه لإخفاء ما أصاب جسمه من ذبول وضمور . أرأيت إلى البدل التى يرتديها الرجال وقد افتن الترزية فى إخفاء الأرجل المعوجة والعظام الناتئة . أما النساء فإن سوء حالهن قد ألجأهن إلى المساحيق البيضاء والقمحية والحمراء؛ لكى يخفين ما عملته الحضارة فى وجناتهن الذابلة الصفراء ، كما أنهن استعن بالملابس ذات الألوان الجميلة وبالتفصيلات التى تخفى عيوب أجسامهن ناقصة النمو ، وغير ذلك من تشوهات لا تخفى على المتفحص لها ولو بطريقة سطحية . والسؤال هو : هل يستطيع التزييف أن يغير من الحقيقة المرة شيئًا ؟ إن شبابنا

يعانى أزمة فى اللياقة الجسمية ، ونخشى أن يستمر التدهور ويتزايد جيلا بعد جيل ، مما يهدد الإنسانية عامة بالخطر.

فضلة من عضلات

تستمر الحضارة فى إحلال الأدوات والآلات محل الإنسان . وهى وإن كانت تبدو مهتمة براحته ورفاهيته ، فإنها فى الواقع تحوك مؤامرة ضده وتسعى للقضاء عليه رويدا رويدا . ذلك أن قانون الحياة يقول: إن القطاع من الحياة الذى يغفل استخدامه ، يبدأ فى الذبول حتى يتلاشى تماما . والإنسان عندما كان يناضل للبقاء بعضلاته ، فإن تلك العضلات كانت ضخمة وكانت مفتولة ، وكان جسم الإنسان طويلا ومفعما بالقوة ، وكانت كل قطعة منه هادرة بالدماء التى تتدفق فى شرايينها . وكان الشخص مستعدا لبذل المجهود ليل نهار.

ولكن الإنسان الحديث يقضى جل وقته فى التفكير. لقد أصبح كائنا عقلانيا لا كائنا عضليا . والعقل غريب على الحياة . إنه وظيفة لجزء من الإنسان – أعنى: المخ – ولكن المخ ليس أهم جزء بالإنسان باعتباره كائنا حيا ، وإن كان أهم جزء بالإنسان باعتباره كائنا حضاريا. والكائن الحضارى لا يماشى بالضرورة الطبيعة الجية . ذلك أن الحضارة مضافة إضافة ، ومصنوعة صناعة، وليست من لحم الكيان الحيوى . إنها نتاج الفكر الإنسانى ، وليست نتيجة لبيولوجية الإنسان.

وأهم ما تهتم به التربية التى ينزع الإنسان إليها هى تلك التربية التى تحاول القضاء على الكيان البيولوجى للطفل ، لتحل محله كيانا آخر غريبا عن طبيعته . إنها تحاول خدمة الفكر والمجتمع ، أو بتعبير أدق: خدمة الحضارة الموجودة بالمجتمع ، غير عابئة بما قد يترتب على ذلك من ذبول للكيان العضوى فى الطفل . وحتى إذا هى أدخلت فى نطاقها التربية الرياضية ، فإنها تكون تربية ترقيعية زائفة ، وليست تربية بيولوجية طبيعية فى مواقف حية كتلك التى كان

يحياها الإنسان البدائى . لم تكن التربية البدائية الفطرية بحاجة إلى الاهتمام بالتمرينات الرياضية التى يعكف على رسمها مصممون . بل كانت الرياضة تتم فى أحضان واقع الحياة نفسه . كان الإنسان البدائى يحرك كل عضو بجسمه ، صغر أو كبر . كان يجابه الطبيعة ، يعاركها ويصارعها . فكان عليه أن يصرعها أو كانت هى تصرعه وتقضى عليه . وكانت المحصلة النهائية هى تلك العضلات المفتولة والقوام الصلب ، وما كان يتبع ذلك من عزيمة قعساء وهمة لا تفل .

والحضارة بما تختاره لنا من وسائل الحماية والصون ستقضى على قوتنا البيولوجية . فمنذ اللحظات الأولى من ميلاد الطفل ، تبدأ أسرته بلفه والضغط عليه بتلك الملابس التى تحول بينه وبين الهواء والشمس . وتكون تلك اللحظة الأولى لتقميط الطفل هى نفسها لحظة القضاء على حيويته، والحكم بالذبول على جسمه. بيد أن الحضارة بعد أن تسلب باليسار ، فإنها تسارع لنجدة ذلك الطفل باليمين، فتأخذ فى تجريعه العقاقير بقصد حمايته من نزلات البرد ومن لفحات الشمس ، وكأن الحضارة وقد أخذ ضميرها فى تأنيبها على جريمتها بإزاء الطفولة قد أخذت فى التكفير عن ذنوبها محاولة تصحيح ما أفسدته.. فلا تجد أمامها سوى تلك الأساليب الترقيعية التى تحاول بها تصحيح ما أخطأت فيه من وسائل تربوية زائفة . ولكن هيهات أن يصلح العطار ما أفسده الدهر .

إن ما يهون علينا خطر الكارثة العضلية التى تردينا فيها ، أننا لم نشاهد ما كان عليه حال أجدادنا من قوة عضلية عظيمة . ولكن لعلك تتخيل كيف كان حال أولئك الأجداد وأنت تزور الأهرامات بالجيزة . لقد كان هناك بشر مثلنا يحملون تلك الأطنان من الحجارة ليرفعوها إلى تلك الارتفاعات الهائلة . نعم إن أفرادًا عديدين كانوا يتعاونون بعضهم مع بعض فى رفع الحجر الواحد . ولكن ماذا كان شأن كل واحد من أولئك الناس ؟ كان كل منهم مفتول العضلات ، وكان يتصارع مع ذلك الثقل الضخم ، يرفعه من مكانه ويسير به إلى المكان المطلوب.

ولعلك تأخذ الصورة المقابلة لترى ما عليه الحال اليوم . وهل رأيت إلى بعض عمالنا اليوم وهم يتعاونون على رفع حجر من مكانه ؟ هل رأيت أذرعهم النحيلة ووجوههم الصفراء؟ أليس أولئك العمال أقوى من الأشخاص العاديين الذين لايشتغلون بتلك الأعمال المرهقة؟ الواقع أن أولئك الأشخاص الذين لايعملون شيئًا طوال نهارهم وليلهم إلا التفكير وتلقى الخدمات من الحضارة لفى حالة تستحق الرثاء. لعلك تدهش عندما تشاهد صديقك الذى لا يُعْمل فى حياته سوى فكره وقد صحبته إلى الطبيب للكشف عليه فى إحدى مناسبات مرضه ، فخلع ملابسه عن الجزء العلوى من جسمه . ألا تأخذ الشفقة من رؤية ذلك الهيكل العظمى لذلك الإنسان الذى هو فى حقيقته البيولوجية شبه كائن حى ؟ ولكن لماذا تشفق على صديقك ، وأنت شخصيا أولى بهذه الشفقة ؟. إن الإنسان الحديث وأنت من أبنائه ذابل واهن . والسبب كما هو واضح؛ أن الطبيعة خاصمته؛ لأنه أعلن خصامه لها . لقد ناصر الحضارة عليها ، فهى بالتالى تناصبه العداء وتحيك له الخطط للانتصار عليه . وهل من انتصار تستطيع الطبيعة إحرازه أقوى من ضربه بالضمور واستلابه عضلاته التى كان يكاسر بها وحوش الغاب ، والتى كان بفضلها سيدا عليها ؟

ولعل عدوى ذبول العضلات قد انتقلت وتنتقل من الإنسان إلى حيواناته التى أخذ فى استئناسها . فالحضارة البشرية لم تكتف باستعباد الإنسان لها ، بل امتدت فى استعبادها وسيطرتها إلى مجموعة من الكائنات الحية ، وقد ضمتهم إلى الفئة البشرية ولم ترحم الحضارة الإنسانية تلك الفئة ، فتتركها على حالها التى كانت عليها بالطبيعة ، بل أخذت أيضًا فى تذبيلها – إن صح التعبير – بالوسائل الحضارية التى تذرعت بها مع الإنسان . وأول تلك الوسائل وأخطرها هى: حرمان تلك الكائنات الحية من صراعها مع الطبيعة . ومن ثم فإن الطبيعة وجدت أن تلك الحيوانات ليست إذن بمستحقة الحصول على تلك الوسائل

الشجاعة والجبارة التى أعارتها لها . فقررت سحبها منها كما سحبتها قبل ذلك من الإنسان. ولعلك اليوم ترى الفرق بين الحمار الوحشي وبين الحمار الحضارى. وحتى الحمار الوحشي الذى تراه بحديقة الحيوان لا يطابق فى حياته ذلك الحمار الوحشي الذى يوجد بالفعل فى أحضان الطبيعة . إن الحمار الوحشي الحقيقى يقظ للخطر . إنك إذا رأيته هناك ، فإنك ستعجب بلا شك بشجاعته وبرأسه المرفوع وبأذنيه اللتين تلتقطان دبة النملة ، بل إنك ستجد عضلاته مشدودة ومستعدة للعمل بمجرد أن يدق ناقوس الخطر . أما الحمار الحضارى – إذا جاز لنا أن نسمى الحمار الذى يمتطيه الفلاح بهذا الاسم غير المشرف – فإنه – على عكس جده الحمار الوحشي – كائن مسالم مدلل ، وقد هبط ظهره ووجه نظره إلى الأرض وخفض رأسه مطأطئا لكل إهانة تلحق به من صاحبه ، وقد حرم من تلك اليقظة التى يتمتع بها زميله بالغابة ، إنه صار مضربا للمثل فى الغباء؛ لعدم اكتراثه بالواقع . ولماذا يكترث وهو مطمئن لحماية صاحبه له ، وهو يعرف جيدا أنه فى مأمن من مجابهة أى خطر ؟ وحتى تلك العصا التى يضربه بها صاحبه هى عصا رحيمة على كل حال إذا ما قيست بأسنان الأسد أو الفهد التى يمكن أن تلتهم تربه الوحشي .

وحتى القيم الحضارية التى نتمرس بها منذ الطفولة هى قيم مناوئة لبروز تلك العضلات . أليس المطلوب من الطفل دائما أن يكون متعففا ، وألا يعبث بشيء وألا يعمل عضلاته فى أى شيء؛ خوف إصابته بمكروه وخوف إحداث فساد فى الأشياء من حوله ؟

ونظرة المجتمع إلى الناس وتقديرهم لقيمة كل واحد منهم ، لا تضع العامل العضلى إلا فى المقام الأدنى ، بينما هى تجعل العوامل العقلية والاقتصادية والاجتماعية فى المقام الأول . ولقد اعتبر الوجود البيولوجى أحط نوع من الوجود، ولا يحسد الشخص عليه ، بل لقد عمد البعض إلى المناداة بالتخلص منه،

أو على الأقل بإضعافه واعتباره شيئا رديئا بسبب اشتراك الإنسان فيه مع الحيوانات. إنه وجود بهيمى يسبب للإنسان الإحساس بالكدر ويحمله على التواضع واحتقار الذات. ولقد قامت الدنيا وقعدت عندما أعلن تشارلس داروين (١٨٠٩ – ١٨٨٢) قرابة الإنسان للمملكة الحيوانية ، وأنه لا يعدو أن يكون فرعا منها . وعلى الرغم من أن ما أعلنه داروين يجب أن يكون بديهية ، فإنه كان مما سبب هياجا وسخطا ما يزال احتدامهما غير بعيد عن الأفواه تنطق به والأقلام تقوم بتسجيله .

وليس من العجيب أن نرى واحدا مثل ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) وقد عاش فى ظل ثقافة تحتقر العضلات وتمجد العقل قد أقام حاجزا سميكا بين الإنسان والحيوان لدرجة أنه صور الحيوان بأنه آلة Les betes-machines يقول الدكتور عثمان أمين فى تفسير مذهب ديكارت: «وإذن فليست أنواع الحيوان إلا آلات شبيهة بالآلات التى يصنعها الإنسان ، وكل الفرق فى كمال الصنع . والحيوان عند ديكارت أشبه بالساعة المعقدة ، ولو بلغ صانع من الحذق أن صنع كلبا جمع فيه تفاصيل الأشكال والحركات التى نراها فى الطبيعة ، لم يكن لدينا وسيلة للتمييز بين ذلك الكلب المصنوع وبين الكلاب التى تنبح فى منازلنا» [١] .

ولكن ما النتائج التى ترتبت على هذه الفلسفات والقيم المناقضة لشرائع الطبيعة ؟ الوهن والذبول وضمور العضلات ، وبُعْد الإنسان عن واقعه الطبيعى باقترابه من واقعه الحضارى . وخطر الحضارة الإنسانية على الإنسان يكمن فى أنها تقوم بنزعه باستمرار وبدأب وإلحاح من بيئته الحقيقية ويضمه إلى بيئة صناعية غريبة عنه . وأكثر من هذا فإنها تعمل على تجريده من أسلحته الطبيعية وتجعل منه باستمرار كائنا حضاريا مسلوب القوة ضامر الجسم .

---

(١) الدكتور عثمان أمين – ديكارت – مطبعة الحلبى ١٩٤٦ ص ١٨٥ .

وليت الحضارة الإنسانية قد نجحت فيما استهدفته من أهداف . إنها فشلت أيضا فى ترويض الإنسان وفى نزع الميل إلى المقاتلة من قلبه . إن الإنسان بعد أن فقد اقتداره العضلى ، أخذ يحس بعقدة النقص تعمل عملها فى وجدانه ، فأراد أن يخبئ ما صار يعتمل بعمق فى لا شعوره، وذلك بإنكار أنه كائن واهن ضعيف، فأخذ فى التفنن فى تمزيق الطبيعة من حوله. ولكنه بدلا من أن يقوم بتمزيقها بعضلاته أخذ فى تمزيقها بتكنولوجيته . أخذ يسخر الآلات بدلا من تسخير عضلاته، فهدم الجبال واقتلع أشجار الغابات وحول الأنهار عن مساراتها وتسلق بسفنه أعالى البحار ومن بعدها إلى أعالى الفضاء ، وأخذ يهدد نظام البيئة ، فصارت مهددة بما هو معروف بفقدان الاتزان البيئى . وبعد اكتشاف أسرار الذرة وصنع القنابل الذرية والهيدروجينية وبعد تقدم صناعة الأسلحة ، أخذ الإنسان يفاخر بأنه وإن فقد عضلاته ، فإنه عوض عن هذا الفقد بما لديه من عقل ودهاء، وبما يستطيع الإفادة من خبرات ماضية . والفرق الأساسى بين التكنولوجيا الحديثة وبين العضلات القديمة ، هو أن تكنولوجيا الإنسان غريبة عن حقيقته البيولوجية ، أما العضلات فإنها تعمل وفقا لقانون الحياة الأصيل .

ومهما وصلت قوة الإنسان بتكنولوجيته وحضارته ، فإن الحسرة لابد أن تلم بقلبه وتعصر نياطه ، فيأخذ فى الحنين إلى ما كان يستمتع به الأجداد البعيدون من عضلات مفتولة ، ومن قوة بطش جديرة بالحفاظ على صاحبها . لاشك أن الإنسان القديم كان إنسانا سعيدًا بقوته . ولابد أن الإنسان الحديث شقى بعضلاته الشبيهة بالعضلات . ألست ترى إلى الشاب اليوم وقد خلع عن نفسه كل ما يدل على القوة والشكيمة ؟ ألم يحلق الرجال رؤوسهم ولحاهم وشواربهم وقد كان الإنسان القديم يتخذ من الشعر وقد علا الرأس والوجه هيبة الأسد بمعرفته البهية ؟ ألم يعمد الإنسان الحديث إلى قص أظافره بعد أن استعاض عنها بالسكين ؟ إنك تجد الشاب الحضارى ، وقد أخذ يتملق المرأة ، فإذا صدته يأخذ فى التقرب إليها بخذلان واسترحام . وقد صارت سيدته ، وهو عبدها الذى يقبل

حذاءها لاسترضائها . فإن لم تلن أخذ يقرض لها الشعر ويكتب إليها الخطابات استرحاما واسترقاقا .

وألم تعمد المرأة المتحضرة إلى إبداء شيء من علامات القوة – ولو أنها علامات زائفة – ولكنها علامات للقوة على كل حال ؟ ألست ترى إلى المرأة الحضارية وقد أخذت تطيل أظفارها وتدهنها بالأكلادور الأحمر مشيرة بذلك بطريقة لا شعورية إلى الدم الذى يلطخ تلك الأظافر الطويلة بعد أن تنشبها فى الفريسة ، وقد تكون تلك الفريسة هى الرجل ذاته ؟ ألم تسارع المرأة إلى السطو على ملابس الرجال ترتديها حتى تجعل من نفسها شبها له ، أو تجعل منه شبها لها . إنها على كل حال تكسب فى الحالتين ، فإما أن تحظى بما كان يستأثر به من ملبس ، وإما أن تزيل من تلك الملابس كل ما كان يحيطه بها الرجل من علامات الخشونة والقوة .

ولعل المرأة بذكائها القوى قد استشعرت فى بواكير الحضارة من أين يؤكل الكتف فاخترعت الأسرة ؛ وظلت ثابتة فى البيت تدير أسطورة الحضارة من وراء الكواليس . فأخذت تقوم بتربية الرجال وهم بعد صغار على التخنث شيئًا فشيئًا حتى بثت الرعب فى قلوبهم ، وجعلتهم لا يخرجون إلى الغابات . بل يظلون بمنأى عن كل أسباب القوة ، وأن يخوروا فى النهاية . ولعل المرأة أيضًا قد وضعت استراتيجية بعيدة المدى تستطيع من خلالها التغلب فى النهاية على الرجل ، وعندئذ سوف تعلن له انتصارها عليه ، ووضعه تحت رحمتها .

ومهما يكن التفسير والتأويل ، فمما لا شك فيه أن الرجل الحديث ، بل والإنسان الحديث بوجه عام – رجلا كان أو امرأة – فقد ما كان يتمتع به الأجداد البعيدون من قوة عضلية لا شك أنها كانت مفخرة لهم ، وكانوا بالاعتماد عليها قادرين على مقاومة أسباب الفناء وضمان أسباب البقاء .

فقدان الرشاقة

الرشاقة معناها: انسياب الحركة بحيث تتآزر جميع أجزاء الجسم الخارجية والداخلية فى أداء الحركات المطلوبة . ولا شك أن الصحة العامة والحيوية والتدريب المتناسق عوامل متضامنة فى تحقيق الرشاقة .

وشبابنا – شأنه شأن أجيال الحضارة – قد افتقد الرشاقة بسبب ما تتطلبه الوظائف والعمليات الحضارية من تخصص حركى رتيب ومستمر لبعض أجزاء الجسم دون باقى الأجزاء الأخرى الكثيرة . فالطالب الذى يجلس طوال اليوم أو أغلبه ساكنا لا يأتى بحركة وقد ركز عينيه على أوراق كتبه ، يفقد بالضرورة رشاقة الحركة . وما يقال عن الطالب ينسحب أيضا على جميع العاملين فى الحياة. على كاتبة الآلة الكاتبة وعلى عامل التليفون وعلى سائق السيارة بل وعلى المواطن أيا كان ، وقد حكمت الحضارة على الجميع باتباع خطوات معينة تحكم بالذبول على أجزاء معينة بالجسم ، ولا تستحث إلا عددا محدودا من العضلات فى عزلة عن باقى أجزاء الجسم .

ومطلب الرشاقة اليوم مطلب زخرفى وليس مطلبا حيويا يرتبط بالبقاء ، فالفتاة عندما تتدرب على الرشاقة فى المشية ، فإنما يكون ذلك لجذب الانتباه ، ولكى تضفى على نفسها جمالا يستهوى قلوب الناظرين . والشاب الذى يمارس بعض التمرينات الرياضية لإحراز كمال الجسم ، إنما يفعل ذلك لا عن مطلب البقاء ومصارعة الفناء أو التغلب على الصعاب التى تجابهه فى تحصيل الرزق ، بل لكى يدخل مسابقات كمال الأجسام ولكى يشار إليه بالبنان ويفوز بالجوائز السنية مما يعود عليه بالفخر والتبريز . أما الإنسان القديم فكانت الرشاقة بالنسبه له مطلبا يرتبط بالبقاء ، بل إن الرشاقة كانت نتيجة لوفرة الصحة وتدفق الحيوية واتساق العضلات وتآزرها بفضل استخدامها فى مواقف الحياة الواقعية المرسومة وغير المتكلفة .

ولعل أكثر أعداء الرشاقة ضراوة هو الجلوس الطويل أو النوم المستمر ، أو بتعبير شامل الحصول على الراحة بالمفهوم الحضارى للكلمة . ذلك أن الرشاقة التى كانت متوافرة للإنسان البدائى ، إنما كانت نتيجة طبيعية وحتمية لمداومته على النشاط والحركة . فقد كان يقضى معظم وقته فى المشى والجرى والقفز . وكان جسمه نفسه وظروف حياته تجعله على استعداد دائم لبذل المزيد من النشاط والحيوية . ولا شك أن الأخطار التى كانت تتربص بالإنسان ليل نهار لم تكن عامل تعقيد لحياته ، بل كانت عامل تنشيط لها . ذلك أن المقعدين والضعفاء والمتخاذلين لم يكن لهم وجود فى تلك الحياة المتحفزة والمتيقظة . لقد كان الإنسان فى ذلك الوقت كفوًا لمجابهة الأخطار بما كان يتمتع به من لياقة جسمية رائعة وبما كان لديه من رشاقة فى الحركات كانت تمكنه من الإفلات من العدو المتربص به .

ولقد كانت هناك مجموعة من العوامل الأخرى غير الحركة تحقق للإنسان البدائى قدرًا كبيرًا من الرشاقة . لم يكن ذلك الإنسان يحتفظ بمخزون من المواد الغذائية الزائدة فى جسمه ، وبالتالى لم تكن أجهزة جسمه مرهقة بالمواد السامة التى يحملها جسم الإنسان الحديث . لقد كان الاحتراق العضوى مستمرا على أشده فى جسم البدائى ، بحيث كان ذلك الجسم قادرًا على التخلص من الوزن الزائد أولا بأول ، ولم تكن هناك أية فرصة للكروش الممتدة ، ولا للعضلات المترهلة ، بل كان الجسم ممشوقا وكانت العضلات متوترة أبدا ومستعدة لتلبية النداء إذا ما طلب منها أن تتآزر فى إبداء الحركات الرشيقة والتعاون مع العضلات الأخرى القريبة منها والبعيدة .

واليوم نجد أن من عوامل فقدان الرشاقة تلك المساحة الضيقة التى يحظى بها الإنسان الحديث للتحرك فيها بحرية . قديما كان الناس لا يجدون صعوبة فى التحرك والجرى . كانت المساحات الشاسعة متوافرة أمام رجلى الإنسان للجرى

عليها ، وكان الإنسان يقفز ويتسلق الأشجار فى رشاقة قريبة من رشاقة القرد فى هذا المضمار ، بل إن الإنسان كان يأتى بالحركات الأكثر ذكاء مما كان يستطيع القرد القيام به . ولكن الإنسان الحديث لا يستطيع فى بعض الأحيان المشى فى الطريق إلا بحذر؛ خوف أن يصطدم فى مشيه ببعض المارة . والطفل الحديث بالبيت يطلب منه التقليل من الحركة والامتناع عن الجرى؛ خشية الإساءة إلى السكان المجاورين أو القاطنين بالشقة السفلى . وحتى بالمدرسة صار الطفل مكبلا – كما قلنا – لا يستطيع التمرس بحياته على الفطرة ، بل رصدت تحركاته بحيث لا يستطيع أن يأتى بحركة ناشزة عما رسم له وإلا وقعت عليه صنوف العقوبات التى تستلب سعادته وتضربه بالشقوة والحسرة على رشاقته الآخذة فى الذبول .

وحتى ما تتخيله الفتاة المعاصرة أو الفتى المعاصر من رشاقة ليست من الرشاقة فى شىء . ليس مجرد المشى فى اهتزاز مائع رشاقة ، وليس مجرد التخطر لجذب الانتباه رشاقة . إن الرشاقة كما سبق أن عرفناها هى التآزر بين جميع أجزاء الجسم لتتحرك فى انسياب وعدم كلفة بقصد تحقيق الاقتصاد فى الحركات وبحيث لا يتخلف أى جزء من أجزاء الجسم عن القيام بالحركات المطلوبة منه .

والواقع أن التربية الحديثة متمثلة فى الآباء والأمهات والمدرسين تحارب الرشاقة بشدة وتربط فيما بين الرشاقة والخلاعة . ذلك أن الفتاة العصرية والفتى العصرى يعمدان إلى الإتيان بالحركات فى المشى وفى الإشارة إلى الأشياء بحيث يكون لذلك أعمق أثر ممكن فى المشاهد . وليس هذا عيبا فى حد ذاته ، وإنما العيب فهو أن تزيف الرشاقة ، وأن يأتى الشاب أو الشابة بالحركات التى تبدو أنها رشاقة ، مع أن الجسم يكون مفتقدًا للرشاقة الحقيقية الناتجة عن كفاية جسمية حقيقية ونتيجة لتآزر حركى سديد .

ولكن موقف المربين من الرشاقة فيه تهديد فى الواقع لما يمكن أن يكتسبه شبابنا والأجيال القادمة من كفاءة جسمية تتمثل فى المشية الرشيقة والجلسة الرشيقة ، بل وفى الحركة الرشيقة أيا كانت . وبالتالى يعمل هذا الموقف التربوى الخاطئ على فقدان السعادة ذاتها من حياة شبابنا وناشئتنا . ولقد بذلت بعض الطلائع التربوية جهودًا مشكورة فى مصر؛ لتوفير الرشاقة للشابات والشبان ، ولكن تلك الجهود كانت محصورة فى نطاق معاهد التربية الرياضية وكان الأحرى أن تعم جميع المدارس والمعاهد بحيث نستطيع أن نحصل على جيل رشيق فى الحركة وبالتالى نحصل على جيل سعيد .

ولعل من أوائل من اكتشفوا العلاقة بين الرشاقة وبين الموسيقى . بل وبين الرشاقة والتفكير السليم متمثلا فى التفكير الرياضى هو فيثاغورث اليونانى (القرن السادس ق م) فلقد عمد هذا الفيلسوف إلى إقامة علاقة وثيقة فيما بين الحركة الرشيقة وبين المعرفة الدقيقة بالرياضيات . وهو يعتقد أن الوجود نفسه رشيق وأن النجوم تصدر حركات رشيقة وبالتالى فإنها تصدر موسيقى عذبة لا يتسنى لنا سماعها؛ لبعدنا عنها .

وعلى الرغم من أن الآلة قد حلت محل الإنسان فى كثير من الأحيان . وعلى الرغم من أن الحروب الحديثة لا تعتمد على العضلات فى المقاتلة ، فإننا نجد الشعوب المتقدمة تهتم بتحقيق الرشاقة لجنودها ؛ اعتقادا منها – وهو اعتقاد سديد – أنه مهما حلت الآلة محل الإنسان فى الحرب ، فإن الجندى الحقيق بالجندية يحب أن يكون انسيابى الحركات وأن يتمكن من الإتيان بالحركات المطلوبة فى المواقف الحرجة بحيث يسبق أعداءه فى مضمار الوعى . ويقول لنا الدارسون لشئون الحرب: إن الحرب الحديثة ليست خلوا من المواقف التى تحتاج إلى مبادرات فردية وإلى رشاقة فى الحركات ، وإلى سرعة فى الممارسة وإلى حذف كل زيادة فى التصرف . فالحرب الحديثة وإن كانت تستعين بالآلات

والتكنولوجيا ، فإنها تتضمن كل ما كانت تتضمنه الحرب القديمة من إقدام وبسالة وجرأة ، بل وتلاحم فردى وجها لوجه مع العدو .

وعلى الرغم من أن الحروب الحديثة مهولة للغاية وأنها تضرب الإنسانية بالوحشية . فإنها فى الواقع تعتبر مدرسة للرشاقة . ذلك أن الأكثر رشاقة يكون أكثر أمنا فى كثير من المواقف العراكية التى يضطر فيها المتحاربون إلى المجابهة الفردية . وتعود الحرب عندئذ إلى ما كان سائدًا بالعصور الوسطى حيث كان الفرسان البسلاء يتبارزون برشاقة وحيوية ، وحيث كان يكتب الانتصار لأكثر الفرسان قدرة على إبداء الحركات المناسبة فى الموقف الخطر . كما كان يكتب الموت لأولئك الأقل قدرة على تحقيق الرشاقة فى الحركات .

وحتى فى السلم تحتل الرشاقة مكانة ممتازة فى حياة الإنسان . ذلك أن العامل الرشيق يكون أكثر إنتاجية من العامل المفتقد للرشاقة . أضف إلى هذا أن المجهود الذى يبذله الشخص الرشيق فى أداء إحدى العمليات يكون أقل بكثير من المجهود الذى يبذله شخص آخر منعدم الرشاقة لأداء نفس العملية . ناهيك عن إحساس الرشيق بالسعادة وقد تركزت الأعين عليه بالإعجاب والتقدير لما يبديه من خفة ورشاقة .

وتحتل الرشاقة مكانا هاما فى مضمار الجمال والجاذبية الجنسية . فلا شك أن الإنسان الحديث شأنه شأن الإنسان فى كل عصر تستهوية الحركة الرشيقة واللفتة الحية التى تشبه النغمة الموسيقية الباهرة . ولا شك أن كل إنسان مرت بخبرته تلك الحالة الوجدانية التى يجد نفسه فيها متجاوبا مع حركة معينة رشيقة تصدر عن شخص آخر . وكأن لسان حاله وقتئذ يقول: «إن هذه هى الحركة الصحيحة مائة فى المائة وإن أية حركة سواها تكون خاطئة» . وربما حاول كل منا أن يأتى بالحركات الصحيحة فى المواقف المختلفة . ولعله ينجح أحيانا فى

ذلك ، ولعله لا ينجح فى بعض الأحيان . وقد نصادف بعض الناس الناجحين دائمًا فيما يبدونه من رشاقة فنعجب بهم ونتمنى أن نكون مثلهم، ولعل قسطًا كبيرًا من إعجابنا بأبطال الرياضة ، بل وبأبطال السينما والمسرح راجع إلى خفة الحركة والقدرة على التعبير عما يريدونه من معان وانفعالات بحركات رشيقة معبرة عما يقصدون إليه .

وعلى عكس ذلك فإذا نحن حللنا مواقفنا من الأشخاص الذين لا نستلطفهم ولا نحب معاشرتهم أو مجالستهم ، إذن لوجدنا أنهم يفتقدون الرشاقة فى حركاتهم ، وأن الحيوية قد فارقتهم . ولا شك أن الشباب بما يتصف به من حيوية ورشاقة بوجه عام أكثر اختلابا للقلوب وأكثر جذبا للانتباه من الشيوخ والضعفاء وفاقدى الرشاقة بوجه عام. وإذا فقد الشاب رشاقته فإنه يفقد أيضًا طالبيه ؛ لأنه يكون قد افتقد جانبا حيويا من مقوماته ، وبالتالى يكون ممجوجا وعامل نفور بدلا من أن يكون عامل انجذاب .

وحيث إن الشاب يتعشق الرشاقة ، فإن الدول المتقدمة حاولت أن تجعل من رواد الشباب والمدرسين والممثلين والخطباء شخصيات متمتعة بالرشاقة ، ومن ثم بالجاذبية حتى يكون تأثيرهم فى الشباب أكبر وأعمق . وفى مجالات التأثير فى الرأى والاتجاهات لم يعد ما يقدم من معلومات أو أفكار هو وحده موضع الاهتمام ، بل وجه الاهتمام أيضًا – بل وقبل كل شىء – إلى الرشاقة . فلقد وجد أن الشاب والشابة يهتمان بالمظهر الخارجى للمدرس والممثل والرائد الاجتماعى والخطيب قبل اهتمامهم بما يقولون لهم . فهناك حكم مبدئى يصدره الشاب والشابة على المتصدر لقيادتهم يقوم أساسًا على رشاقة المتحدث . فمن يستطيع أن يكسب المعركة الأولى معهم يستطيع أن يسيطر بما يقوله لهم . نعم هناك معايير أخرى يقيس بها الشباب الرواد المتصدرين للتأثير فيهم ، ولكن وجد أن للرشاقة أهمية خاصة فى التأثير .

ويخطئ كثير من الكبار بنسيان رشاقتهم فى غمرة الحياة . ذلك أن المشاغل وتركيز الانتباه على بعض المسائل كالمهنة وأداء المهام كثيرًا ما يلهى الشخص عن كيانه وعن تجديد رشاقته . ولعل الإنسان الجدير بالاحترام هو ذلك الذى لا ينسى أن فقدان الرشاقة معناه: فقدان ركن أساسى من شخصيته . وإذا كانت الحياة المتحضرة بما تزدحم به من مشاغل تعمل على فقدان كثير من فرص الرشاقة ، فالواجب على الكبار ألا ينسوا أيضًا أنهم يجب أن يكونوا رشقاء فى حركاتهم؛ حتى يتسنى لهم أداء أعمالهم على خير وجه ، وحتى يضمنوا لأنفسهم التأثير بعمق فى الصغار والشباب . ولا شك أنك لا تستطيع أن تحض أبناءك وتلاميذك – إذا كنت مدرسا – على التمرس بالرشاقة وأنت أكثر الناس حاجة إلى مشية رشيقة وإلى وقفة معتدلة وإلى إبداء حركات رشيقة فى أثناء كلامك .

ومن الجدير بالاهتمام ممارسة بعض التمرينات الرياضية التى يمكن أن ترد إلينا شيئًا مما فقدناه من الرشاقة . والواقع أن هناك بعض التمرينات الرياضية التى وضعت أصلا لغير المتخصصين فى الرياضة ، أى: للشخص العادى ، كما أن هناك تمرينات رياضية تناسب كل سن ، بل والتى تناسب كل مستوى من اللياقة الجسمية .

والمؤسف أن نرى شبابنا لا يهتمون بالرشاقة ، بل يهتمون فقط بمشاهدة الرشاقة فى الآخرين . وشاهد ذلك أنك تجد المعجبين بأبطال الكرة كثيرين ، ولكن القليلين من أولئك المعجبين من يهتم بتقليد البطل الذى ملأ عليه حياته وخياله، وصار يدافع عنه بكل جوارحه . وكان الأحرى به مادام الإعجاب به قد سيطر عليه بهذا الشكل أن يقلده فيما حصل عليه من رشاقة فى الحركة وفى الجرى بدأب وراء الكرة. ولكن بالله ما فائدة الإعجاب بأبطال الملاكمة والمصارعة وأنت جالس فى مكانك لا تبدى حراكا إلا ذلك التصفيق وذلك التهليل اللذين ليس من ورائهما أى طائل ؟! إنه لغو من اللغو وباطل من الباطل وسخف من السخف أن

نجد المشجعين لا يقلدون أبطالهم بل يتعصبون لهم تعصبا أعمى بلا فاعلية ولا اقتياد بما انتهجوه من سلوك .

الطعام غير المهضوم

يشكو الإنسان الحديث من سوء الهضم . فتجد عيادات الأطباء الباطنيين وقد غصت بالمشتكين من المعدة والأمعاء والكبد والمرارة ، ومن كل ما يتصل بعملية هضم الطعام . ولم يكن الحال كذلك قديما بلا شك حيث كان الاختيار الطبيعى لايبقى على قيد الحياة منذ الطفولة إلا أولئك الذين يستحقون الحياة والذين يتمكنون من مجابهة الحياة فى الخارج – أى: مواجهة الأخطار البيئية الخارجية – وبالداخل ، أى: القادرين على قهر المواد الغذائية التى تصل إلى المعدة، فتعصرها أجهزتهم الداخلية وتستحوذ على ما فيها من عناصر مفيدة لأجسادهم .

ولكن القصة لا تنتهى عند هذا الحد . فليس الاختيارالطبيعى هو وحده الذى كان له الفضل فى غربلة الإنسان والإبقاء على الأقوياء وحدهم دون الضعفاء ، بل إن الإنسان نفسه كان يعرف كيف يغربل طعامه ، وكانت فطرته التى جبل عليها أقوى من الحضارة وما تزخر به من علوم . ذلك أن الإنسان البدائى كان يستطيع بالحدس أن يميز بين الطعام الذى يفيده ، وبين الطعام الذى يضره . فكان يقبل على المفيد وينأى عن الضار . ولم يكن الإنسان القديم يفعل كما يفعل الإنسان الحديث من تزويق للطعام، بحيث صارت المائدة اليوم هدفا يقصد لذاته، بل كان الإنسان القديم؛ يأكل ليعيش لا يأكل؛ لكى يستمتع . نعم إنه كان يتذوق الطعام ، وكان يستمتع به ، ولكنه لم يكن ليتناول الطعام اللذيذ والضار فى نفس الوقت كما يفعل الإنسان الحديث اليوم .

فالحضارة الحديثة وقد تعقدت ، استطاعت أن تعزل اللذة أو النكهة عن

الفائدة . فصارت هناك أطعمة لذيذة وضارة فى نفس الوقت؛ كما صارت هناك أطعمة غير لذيذة ومفيدة. وطبيعى أن الإنسان الحديث رجح كفة اللذة الفائدة، وبالتالى فإنه حكم على ذريته من بعده بضعف الجهاز الهضمى. ومن سوء الحظ أن استعدادات الجهاز الهضمى للتوريث تنتقل للتوريث بالفعل إلى الأجيال التالية . فالأب الممعود أو الأم الممعودة لا ينجبان بالضرورة أطفالا أصحاء المعدة ، بل يحتمل جدا أن يأتى أولادهما من بعدهما وهم يحملون الاستعداد لسوء الهضم.

ويقدر فائدة العقاقير الهاضمة، بقدر ضررها أيضا . ذلك أن الإنسان الحديث وقد أخذ يحس بالخطر يتهدده من سوء الهضم أخذ فى نفس الوقت يتخدر ويطمئن وقد حملت صيدلية بيته تلك الأقراص الهاضمة ذات الألوان والأحجام المختلفة . هذا يؤخذ قبل الأكل ، وذاك يؤخذ بعد الأكل ، والثالث يؤخذ أثناء النهار. ولمَ يحتاط الشخص فى تناول الطعام ، ولديه الإسعاف فى جيبه . إنه إذن ينهال على الطعام اللذيذ ؛ وفى قلبه كل طمأنينة من أن وسائل تشغيل المعدة ووسائل تنشيط الكبد متوافرة لديه . ثم إنه لا يقلق؛ لأنه يعلم أن غالبية الناس على هذه المشاكلة . إن معظم أصدقائة وأقربائة يشكون من سوء الهضم ، إذن فنحن جميعًا فى الهم سواء.

والحضارة الإنسانية حضارة مادية واقتصادية . فكل نشاط يبذل إنما يقصد من ورائه كسب أو لذة أكثر ، ولا يقصد من ورائة صحة أكثر أو توفير سعادة أكثر . فالمطاعم الكبرى تتصدر سباق التجديد فى الطعام ، ويتبعها بعد ذلك المطاعم الصغيرة ، ويقفو الأثر ربات البيوت اللائى لا يردن التخلف فيما يقمن بطهوه من طعام عما يمكن أن يتناوله الزوج خارج البيت بالمطعم . ولا يهم بعد ذلك أن يكون ما تعلموه فى البيت أو ما يقدمه المطعم مفيدا أو ضارا المهم أن يكون شهيا جالبا للزبائن، والمهم أن تنجح ربة البيت فى إقناع زوجها بأن ما

تصنعه له بيديها لا يقل روعة عما يمكن أن يتناوله بأعظم المطاعم شهرة فى عالم التجديد فى إعداد الطعام وفى القدرة على إسالة اللعاب وشحذ الشهية لتناوله .

ولقد واكب ذلك الجرى وراء لذة الطعام أينما وجدت تلك اللذة . ومن ثم نشأت عادات تناول الطعام فى المناسبات . السارة والمكدرة ، ففى الأفراح والمآتم ترص الموائد ويقبل الناس على الطعام لا عن جوع يشكون منه ، بل عن رغبة فى الاستمتاع بما يقدم من طعام . والإنسان الحديث يقبل على ما يشحذ شهيته بغض النظر عن مدى إحساسه بالجوع . وهو يشرب الكوكاكولا وغيرها لا لأنه يحس بالعطش ، بل لأنه يهفو شوقا إلى الطعم اللذيذ . والمثلجات بوجه عام كانت من العوامل الهادرة للأسنان ، وبالتالى كانت من العوامل المفسدة للهضم، لأن هناك علاقة وثيقة بين فساد الأسنان وبين سوء الهضم . ذلك أن الأسنان تقوم بطحن الطعام تمهيدا للقذف به فى المعدة لامتصاص ما به من فوائد . فإذا كانت الحضارة الحديثة قد أخذت فى إفساد الإنسان ، بما تقدمه إليه من مشهيات، فإنها بالتالى تقضى على قدرته على الهضم ، وبالتالى تقضى على حيويته واحتمال بقائة على قيد الحياة مدة طويلة .

ولا شك أن الإنسان الحديث مسكين بسبب تعلقة بالشاى والقهوة والكحول والسجاير وغير ذلك من عناصر غريبة تختلط بجهازه الهضمى وتعمل على تعطيله أو إشاعة الاضطراب فى أنحائه . وحتى التأثير المنبه للقهوه والشاى تأثير ردىء على الهضم ، وذلك لأن ما تحدثه تلك المشروبات من تنبيه للمعدة وللجهاز العصبى المسيطر عليها يؤدى إلى فقدانها لقوتها ولسيطرتها على دفة العمل الهضمى .

والواقع أن المواصلات المتوافرة لنا اليوم ، تعدل بنا عن بذل الجهد فى

المشى . فنحن نأكل ولا نمشى ، ونبتلع كميات كبيرة من السوائل ثم نعمد إلى النوم والاسترخاء فتأخذ كروشنا فى التمدد ، كما تأخذ أجهزة هضمنا فى الركون إلى الكسل . ذلك أنها لا تجد الوقود الكافى لاحتراقها . فالجسم الكسلان لا تجرى فيه الدماء ، ومن ثم فإن حركة الهدم والبناء لا تتوافر للإنسان ، وبالتالى فإن إقبالة على امتصاص الغذاء الجديد يكون إقبالا ضعيفا ، إن لم يكن ينبو عنه ولا يرحب بقدومه إلى رحابه على الإطلاق . ولا شك أن الإنسان القديم كان يحرق كل الزائد من غذائه . بحيث لا تظل المواد الغذائية فى أنسجته ، وهى التى يعتبر تخزينها هناك عاملا خطرًا على كيانه العضوى فما نسمع عنه اليوم من انسداد الشرايين ما هو فى الواقع سواى مواد غذائية خزنت وماكان لها أن تخزن ، بل كان ينبغى أن تحرق وتستهلك حتى تستمر الدورة الهضمية فى العمل ، وحتى يستمر تجديد أنسجة الجسم ، ويظل الدم يجرى فى عروق الشخص بغير توقف وبغير انسداد .

ولا يخفى ما للعامل النفسى من أثر بعيد المدى فى سوء الهضم لدى الإنسان الحديث فأجهزة الهضم تخضع لإشراف جهاز عصبى هو الجهاز العصبى السمبتاوى . وعندما يصاب الإنسان بالقلق ، أعنى المخاوف الغامضة التى لا تجد لها تعبيرًا صريحا لديه ، فإنه يأخذ فى التوتر الذى يجد له صدى فى الجهاز العصبى المركزى والجهاز العصبى السمبتاوى على السواء . ومادام الإشراف العصبى على أجهزة الهضم قد أخذ فى الاختلاف فإن عمليات الهضم تختل بالتالى ، ويصاب الشخص بعسر الهضم . ولا يجدى فى صلاح حاله ما يمكن أن يتجرعه من عقاقير مسكنة أو مهضمة . ذلك أن الداء يمتد بجذوره إلى الجهاز العصبى المشرف ، ولا يتركز موضعيا فى العمليات الهضمية البسيطة أو الجزئية . ولعل الإنسان الحديث يحسد الإنسان البدائى لم يكن معرضا لاختلال جهازه العصبى السمبتاوى؛ لأنه كان يستطيع التعبير عن انفعالاته أولا بأول ، وبالتالى

فإنه لم يكن عرضة للإصابة بالقلق أو بالعقد النفسية أو بأى من تلك العاهات النفسية التى كثيرا ما يتعرض لها الإنسان الحديث .

وفى ظل الحضارة الإنسانية الحديثة ، وهى كما قلنا حضارة مادية تبحث عن الأكثر والأكسب ، فإن الكيمياء قد وجدت طريقها إلى الزراعة . فلقد أخذ الإنسان الحديث فى إضافة العناصر الكيميائية إلى الأرض متمثلة فى الأسمدة وذلك حتى يضمن لنفسة محصولا أغزر يدر عليه ربحا أكثر . ولم يقتصر الأمر على الزراعة ، بل امتد إلى عالم الحيوان ، فأخذ الإنسان فى إضافة المواد الكيميائية المنشطة إلى علف الحيوانات؛ حتى يتسنى له تسمينها ، وبالتالى الحصول منها على قدر أكبر من اللبن وقدر أكبر من اللحم والشحم . ولكن زيادة الكم لم تتواكب مع زيادة الكيف . فعلى الرغم من وفرة الإنتاج الزراعى والحيوانى، فمما لا شك فيه أن كثيرا من العناصر التى دخلت فى التسميد وفى تعليف البهائم لم تكن مواتية لصحة الإنسان ، بل كانت عاملا من عوامل فساد المعدة وباقى الجهاز الهضمى .

وعلى الرغم من الرفاهية الزائفة التى قد يبدو أن الإنسان الحديث متمتع بها فيما يتعلق بالطعام ، فمما لا شك فيه أن الحضارة الإنسانية الحديثة بمجابهة خطر جديد هو نقص المواد الغذائية ، بسبب زيادة السكان زيادة مذهلة بما يعبر عنه عادة بالانفجار السكانى وبسبب استهلاك كثير من طاقة الأرض الزراعية ، وبسبب جشع الإنسان فى الإجهاز على الحيوانات ، ومن ثم نقص الفائض منها وعدم إعطائها الفرصة الكافية للتناسل وبالتالى مده بما يرغب فيه من لحم أو ألبان أو بيض أو نحو ذلك من مواد غذائية .

ولسوف تترتب على ذلك نتائج لا يمكن التنبؤ بها جميعا، ولكن يمكن التنبؤ بحالة من حالتين : إما أن تجابه البشرية مجاعة تقضى عليها ، وإما أن تلجأ

البشرية إلى الكيمياء تستشيرها وتستغلها فى إعداد أنواع جديدة من الأطعمة للإنسان . ولا شك أن اعتماد الإنسان على الكيمياء فى المستقبل؛ لتوفير المواد الغذائية سيكون محفوفًا بأخطار صحية قد لا نتنبه إليها إلا بعد فوات الأوان .

ولاشك أن الإنسان الحديث لم يعد يتناول غذاءه إلا بعد أن يكون قد مر بعمليات مختلفة يعمل بعضها على إفساده. خذ مثالا لذلك الأسماك واللحوم . كان الإنسان القديم ينزل شبكته فى النهر أو البحر ليخرج السمك فيشويه ويأكله . أما الإنسان الحديث فإنه يذهب إلى محل الأسماك ليجد الأسماك هناك على اختلافها وقد رصت تحت الثلج ، وكان قد تم صيدها منذ عدة أيام أو أشهر ولا تصل إلى المستهلك إلا بعد أن تكون قد جمدت وذهبت عنها طزاجتها . نعم إنها ليست أسماكا منتنة ، ولكنها ليست أسماكا طازجة . وكثيرا ما لا يستطيع الإنسان الحديث حتى الحصول على تلك الأسماك المجمدة ، فيعمد إلى تلك الأسماك المحفوظة بالعلب . وشتان ما بين سمك يخرج من الماء يتلوى بالحيوية والحياة، وبين سمك محفوظ فى العلب . ومهما قيل عن الطعم من أنه أفضل أو أردأ ، فمما لا شك فيه أن الأسماك الطازجة أسلس من حيث الهضم من الأسماك المجمدة أو المعلبة .

وما يقال عن الأسماك ، ينسحب أيضا على اللحوم سواء كان منها لحوم البهائم أو لحوم الدجاج . إن إنسان الحضارة يجد نفسه أمام لحم مجمد فيأخذه جاهزًا وهو يظن أنه أسعد حالا من ذلك الفلاح القديم الذى كان يربى الماشية فى زريبته أو الدجاج فى حظيرته. والواقع أنه فى حال لا يحسد عليها . ذلك أن اللحم الطازج أفضل بكثير من اللحم المجمد من حيث القابلية للهضم ، وإقبال المعدة على تمثله والإفادة من عناصره.

ولكن ليس أمام إنسان الحضارة من سبيل إلى الاختيار. إن التصنيع يزحف إلى كل شىء فى حياة البشر حتى فيما يتعلق بالطعام . والحياة الصناعية ليست

كالحياة الطبيعية . ذلك أن الإنسان كان أكثر قربا من الطبيعة ، وكان بالتالى أكثر انسجاما مع قوانينها . وعلى العكس كلما كان الإنسان أكثر تحضرا وبالتالى أكثر تصنيعًا فى شئونه ، كان أبعد ما يكون عن الاتساق مع قوانين الوجود. ولكن ما حيلتنا نحن إلا الرضا بالواقع والرضوخ للقدر الحضارى الذى يجرف بنا بغير رحمة ولا هوادة .

ومهما كان الأمر فإن التربية التى تلقيناها ونحن فى الطفولة مسئولة إلى حد بعيد عن سوء الهضم الذى نعانى منه اليوم بعد أن تركنا طفولتنا وانخرطنا فى فئة الكبار . ذلك أننا لم نتعلم ونحن صغار كيف ننظم مواعيد تناول الطعام وكيف نقوم بمضغ الطعام مضغا جيدا ، وكيف نعتنى بأسناننا العناية التى تكفل الحفاظ عليها بغير تسوس أو التهاب ، كما أننا لم نتعلم الحذر من المواد الضارة كالقهوة والشاى والسجاير وغيرها مما يؤذى جهازنا الهضمى .

وأكثر من هذا فإن التربية مسئولة عما تلبسنا به من عادات فى طهى الطعام . ولعل من الصعب أن تنجح التربية فى تعويدنا تفضيل المفيد على اللذيذ من الطعام . فنجرى منذ نعومة أظفارنا وراء ما يفيد الصحة وما يكون سهل الهضم وسريعه . والواقع أن هذا يتطلب من التربية العمل على تغيير الذوق . ولاشك أن الرائحة الواحدة قد تثيرشهية الواحد وتنفر شهية الآخر حسب اعتياد كل واحد منهما . فرائحة الفسيخ مثلا تشحذ شهية المصريين بوجه عام ولكنها تنفر شهية الأوروبيين . ورائحة الضفادع المسلوقة فى فرنسا تثير شهية الفرنسيين ، ولكنها تثير اشمئزاز المصريين . ولكن المصريين لم يولدوا محبين لرائحة الفسيخ وكارهين لرائحة الضفادع المسلوقة، كما أن الفرنسيين لم يولدوا كارهين لرائحة الفسيخ ومحبين لرائحة شوربة الضفادع . إن التربية التى تلقاها المصرى والتربية التى تلقاها الفرنسى هى التى جعلت كلا منهما يحب ويميل إلى نوع معين من الطعام دون الآخر .

ولا شك أن التربية تخلق فى الإنسان طبيعة ثانية . ومن هنا فإنها تكون مسئولة عن تغيير وتطويع أمزجتنا بما يتفق مع صحتنا ومستقبلنا الصحى . ويجب أن يمسك رجال التربية الخيط من أوله ، وأن يحدث تلاحم مستمر فيما بين الفكر الصحى والفكر التربوى . وإنك لتجد المدرس مطالبا بتوجيه تلاميذه توجيها صحيا برغم أنه هو شخصيا كليل الصحة وقد أفعم بكثير من العادات الصحية الرديئة . وأكثر من هذا فإن ذهن ذلك المدرس المسئول عن بث الوعى لدى تلاميذه لا يعرف هو نفسه شيئا عن الفرق بين ما يؤدى إلى الصحة وما يؤدى إلى المرض ، لذا ينبغى أن نكفل لمن يتصدى لتعليم الناشئة المفاهيم الصحية السليمة والمتطورة وأن يبصر بالاتجاهات العالمية فى الصحة حتى لا ينساق الجيل الصاعد وراء ما جرت عليه الأجيال السابقة من عادات غير صحية.

أضف إلى هذا أن رجال تصنيع الأغذية أنفسهم ينبغى أن يكونوا على وعى بما يفيد وما يضر ، وألا يكون ديدنهم فى صناعتهم أن يعجب الزبون بما يقدمونه إليه . فليس بكاف أن يكون الطعام الذى يقدمونه غير ضار ضررا واضحا وسريعًا ، بل يجب أن يتوخوا فائدة ما يقدمونه إلى الزبائن . وأن يعطوا لذلك الأولوية على اعتبار آخر.

وإذا كانت الحضارة الإنسانية هى المسئولة عما انحدرت إليه الصحة العامة إلى هذا الحد وعن تدهور الجهاز الهضمى الإنسانى ، فإنها يجب إذن أن تتحمل المسئولية بعلاج أخطائها الماضية ، وأن تعمد إلى تبصير الناس بل وإلى تربيتهم تربيه سليمة تقيهم شر مايصل إلى معداتهم من مواد سامة بطيئة المفعول كالكافين والكحول والدهن وغير ذلك من عناصر لا تورث الإنسان إلا ضعفا فى جهازه الهضمى وما يتبع ذلك من انحطاط فى الصحة وتهديد بالموت الوشيك.

القلوب الخائرة

لعل هناك علاقة فعلية فيما بين القلب الضعيف الخائر بالمعنى الجسمى البيولوجى وبين القلب الخائر الواهن بالمعنى المجازى النفسى . ذلك أن الشخص الذى أوتى قلبا لحميا ضعيفا لا يستطيع أن يكون شجاعا مغوارًا ذا قلب نفسى أو مجازى شديد البطش والشكيمة . ومما لا شك فيه أن هناك علاقة توازن بين الحالة الجسمية وبين الحالة النفسية وأكثر من هذا ربما تكون الحالات النفسية والعقلية انعكاسا صادقا للجبلة ، ولما حظى به الشخص من مقومات جسمية موروثة.

ولكن هذا لا يعنى أن كل من حظى بقلب لحمى متين يقع بالضرورة والحتم فى فئة الشجعان. فالواقع أن القلب اللحمى المتين يعد أساسا أو خامة يمكن أن يقوم القلب الوجدانى على أساسها . فصاحب القلب اللحمى المتين يمكن أن يكون شجاعا ، ويمكن بالتربية الرديئة أن يسلك سلوكا جبانا، ولكن صاحب القلب الخائر لا يستطيع أن يكون شخصا شجاعا ؛ لأنه مفتقد للخامة التى يمكن أن يصنع منها القلب الوجدانى الشجاع .

وغنى عن القول أن الشجاعة فى أى عصر وفى أى موقف تحتاج إلى مجابهة ، والمجابهة تحتاج إلى دورة دموية متزنة . ومن غير الممكن فصل القلب والدورة الدموية عما ينصب فيها من هورمونات تقوم الغدد الصماء بصبها فى الدم مباشرة، وهناك علاقة تبادلية بين القلب وما يشرف عليه من أعصاب وبين تلك الغدد الصماء. فعندما يجابهنا موقف مثير ، فإننا بعد أن ندركه ونقف على مغزاه، تصدر الأوامر من المخ عن طريق الشبكة العصبية القوية والمنتشرة عبر الجسم كله إلى القلب بالاستعداد للمجابهة . وفى نفس الوقت تصدر الأوامر إلى مجموعة من الغدد الصماء بالبدء فورا فى العمل ، وبخاصة الغدتين فوق الكليتين

Super-renal glands اللتين تفرزان هورمون الأدرنالين . وبمجرد انصباب هذا الهورمون فى الدم بالقدر المناسب تسرع حركة الدم إلى الوجه كما تظهر مجموعة من العلامات عليه مما يشير إلى سيطرة الانفعال على الشخص .

وفى بعض الحالات يكون القلب من الضعف بحيث إنه لدى تلقيه الأوامر بالاستعداد للطوارئ ، فإنه يجد أنه ليس على مستوى المسئولية ، فيرتبك فى أداء مهامه ، ويبدأ فى التلعثم فى نبضاته – إن صح التعبير – ويزداد ارتباكه ويأخذ فى التشنج والخور والاضطراب ، وأخيرًا يفلس فجأة ، فيتعطل عن العمل ، ويقف النبض ويتلاشى وجود الشخص، ويكتب فى سجل الأموات ويوارى التراب .

وما نسميه أحيانا بالجبن ما هو فى الواقع إلا توخى الشخص الحذر من مجابهة الموقف؛ لأنه يدرك – ولو بطريقة لا شعورية – أن قلبه ليس من القوة بحيث يستطيع مجابهة الموقف . ولا يكون من سبيل أفضل من الهرب والبعد عن المثير المهدد لكيان القلب . فموقف الجبان هو فى الأغلب موقف تكيفى للحالة العضوية التى حازها ذلك الشخص الجبان . ويجب أن نضع نصب أعيننا دائما ذلك التوازى بين الحالة العضوية للشخص وبين حالته النفسية والسلوكية .

ولا يخفى ما للوراثة من أثر فى مدى كفاءة القلب للعمل . والواقع أن الوراثة قد أخذت تمتد فى نفوذها بعد بزوغ الحضارة وامتداد سلطانها على الطبيعة . ذلك أن الاختيار الطبيعى لم يكن يسمح لأصحاب القلوب الخائرة بالبقاء بل كان يقضى عليهم لأن الطبيعة كانت بامتحاناتها القاسية والمستمرة تقضى على أصحاب البنية الضعيفة وبخاصة أولئك الذين لا يستطيعون الثبات أمام الأخطار الجارفة فتصرعهم المخاوف قبل الانقضاض عليهم، وبالتالى فإن أولئك الخائرين لم يكونوا يستطيعون ترك ذرية من بعدهم وإن هم تركوها فإنهم يتركونها للهلاك الوشيك .

أما اليوم وفى ظل الحضارة الإنسانية ؛ وفى ظل الرعاية المستمرة ، والحماية من الأخطار والمخاوف ، وجعل الأهوال والمواقف المهددة هى الاستثناء بعد أن كانت فى حالة الطبيعة وفى أحضانها هى القاعدة ، صار أغلب الناس يخافون من كل شيء ، فكثير جدا مما كان أشياء عادية فى نظر الإنسان القديم ، صار مما يشيع الرعب فى نفس الإنسان الحديث . كان الإنسان القديم يجابه الموقف ، ولا يقضى الوقت يعمل خياله فيما يخيف . كان السلوك الجسمى له الأسبقية دائما . أما إنسان الحضارة ، فإنه يسلك بعقله قبل أن يسلك بجسمه. إنه يجيل فكره فى كل شيء ، بل إنه أصبح يصنع لنفسه الأشياء التى يمكن أن يخاف منها ؛ وصار بقدرة الإنسان الحديث تكبير الصغير من المخاوف فكما أنه اخترع الميكرسكوب ليكبر الميكروب فيجعله تحت نظره وكأنه حيوان ضخم، فإنه استطاع أيضا أن يخترع لنفسه ميكرسكوبا نفسيا يستطيع بواسطته تكبير الموقف، بل وتكبير ما يمكن أن يتأتى عنه من أخطار وبالتالى فإنه صار يستطيع أن يرى مالم تره عين بدائى ، وأن يسمع ما لم تسمعه أذن بدائى وصار يعتمل فى هواجسه وأحلامه ما لم يعتمل أو يخطر على قلب أحد من أجدادنا البدائيين .

وكما أن الإنسان الحديث استطاع أن يخترع التليسكوب فيقرب إليه البعيد وكأنه على مرمى قدم واحد منه ، فإنه استطاع أيضا أن يخترع تليسكوبا نفسيا يستطيع به أن يقرب الأخطار البعيدة عنه زمانا بحيث يراها قريبة منه تهدده فى اللحظة التالية. وأنه يستطيع أن يتنبأ بالمجاعات والحروب وما سوف يكتنفه من مصائب فى المستقبل القريب أو البعيد ؛ فيبدأ عندئذ فى الاستسلام لمخاوفه وهو يرى تلك الأخطار تحيق به وتهدد كيانه . ولم يكن هذا شأن الإنسان القديم . لم يكن ينظر إلى المستقبل ، بل كان يعيش حاضره دون مستقبله . ولم يكن يستخدم فكره ولا خياله لخلق مخاوف ذهنية تضاف إلى مخاوفه الفعلية .

ولم يقتصر الإنسان الحضارى على هذا ، بل تعداه إلى إضافة الرمز إلى الواقع . فبعد أن كان يخاف من الأسد ومن صورة الأسد، ثم من كلمة أسد مسموعة أو مقروءة . تصور جماعة من الناس تسير فى الشارع فسمعوا مناديا ينذرهم بأن أحد الأسود قد أفلت من قفصه بحديقة الحيوان ، وأنه يجرى فى نفس الشارع الذى يسير فيه هؤلاء الناس . ماذا يكون حالهم بعد سماع تلك الرموز الكلامية ؟ إنهم بالطبع يهرعون بالجرى لا يلوون على شىء ، ولا يفكرون إلى أين يلجأون .

وإنك لترى الناس يشاهدون أحد الأفلام السينمائية المرعبة ، وقد استبد بهم الخوف ، وهرب الدم من وجوههم ، بل قد تعلو صيحات بعضهم ، مستنجدين بمن يحميهم من تلك الأهوال . والواقع المؤكد أن ما يرونه ليس أكثر من ذبذبات مرئية فى صورة متتابعة ترمز للأصل ، بل إن أصل تلك الصور لم يكن سوى تمثيل يعبر عن خيال صاحب الفيلم السينمائى ، وقد لعب المشتغلون بالسينما بالخدع السينمائية، فجعلوا الأسد يفترس أحد الممثلين ، وقد أخذ فى تهشيم عظامه على مرأى ومسمع من النظارة، مع أن ذلك الشخص الذى صار على شاشة السينما فى خبر كان ، ما يزال يلهو فى استديوهات السينما منهمكا فى تصوير فيلم آخر وهو فى أمان وسرور؛ لأنه تمكن من إشاعة الخوف فى قلوب من يشاهدون فيلمه السابق المخيف وهو بين أنياب الأسد مأكولا ومهشومًا .

ولقد تجد واحدًا من أولئك النظارة وقد أصيب بنوبة قلبية ينقل بعدها إلى المستشفى؛ لينجده الأطباء إن استطاعوا إلى نجدته سبيلا . وقد يصاب شخص فى قلبه أيضا بنوبة تودى بحياته بعد أن يفاجأ بأنه ربح مبلغًا ضخمًا من المال لم يكن يتوقعه . وقد يموت شخص وهو غارق فى الضحك ؛ لأن قلبه المسكين الخائر لم يتحمل كثرة الضحك . وفى إحدى خطب العرش التى كان يلقيها رئيس الوزراء بحضور الملك قبل الثورة ، توقف رئيس الوزراء فى أثناء إلقائة خطبة العرش ونقل إلى بيته جثة هامدة؛ لأن قلبة لم يستطع احتمال الموقف الرهيب . وربما

تكون تلك النوبات القلبية التى تقضى على بعض الناس فى أثناء نومهم أحلاما مخيفة شاهدوها فى منامهم لم يتمكنوا من احتمالها بقلوبهم الخائرة ، فانهاروا أمامها مقتولين هابطين إلى لجة الموت .

بيد أننا لا نستطيع تحميل الوراثة كل المسئولية بإزاء القلوب الخائرة ، بل نحمل التربية الوزر الأكبر . ذلك أن الحضارة الإنسانية بما تستعين به من تربية لا تدرب الطفولة ولا الشباب على مجابهة الأخطار منذ نعومة الأظفار ، بل تحتضنهم وتقيهم كل ما يمكن أن يشتم منه رائحة الخطر ، أو كل ما يمكن أن يحدث بخيال الطفل من خوف . ولعل المواقف الخطرة شبيهة بالبيئة الصعبة . فكلما كان الطفل أكثر تعرضا للحر والبرد وكلما كان مدربا على ذلك منذ الصغر؛ كلما كان أكثر قدرة على درئها عن نفسه ، فلا يتأثر جسمه من لفحات الهواء البارد ولا من اشتداد القيظ الساخن . والطفل الإنسانى أيضا إذا درب على مواجهة المواقف الخشنة بل وعلى مجابهة المخاطر ، فإن قلبه إذن يكون أكثر قدرة على التحكم فى المواقف الأكثر خطرا ، ولا يكون بالتالى عرضة لتلك النكبات القلبية التى تصيب إنسان الحضارة فى مواجهة أخطار لم يكن قد اعتادها .

فالتربية بالخطر أفضل من التربية بالأمن . والتربية بالمجابهة وبالاخشوشان أفضل من التربية بالحماية والتنعيم . والشباب الحديث للأسف لم يحظ بالنوع الأول من التربية بل إنه يخضع للنوع الثانى الطرى الذى لا يساعد على تمتع القلب بالقوة والنشاط . ولم يخطئ الذين عمدوا إلى تدريب الأطفال والشباب بالكشافة والجوالة على مجابهة المواقف الخطرة وعلى تعلم الشجاعة . الواقع أن الشجاعة لا تعلم بالقراءة أو المواعظ بل تعلم بالتدريب على مجابهة المواقف الخطرة كان القدماء يعلمون أبناءهم الفروسية والمبارزة وركوب البحر ومغالبة الأمواج ، وكانوا يعرضون أبناءهم للعراك مع أبناء القبائل الأخرى ولا

يخشون عليهم ، بل كانوا يعتقدون أن المغالبة خير من المهادنة ، وأن الشجاعة لا تتأتى بالخنوع والاستسلام ، بل تتأتى بالتمرين المستمر منذ نعومة الأظفار.

ولكن تربيتنا للأسف تضرب الشجاعة فى صميمها ، ولا تسمح لأى طفل بإبداء أية لمحة من الشجاعة . ولقد أخطأ الذين نادوا بتأنيث المرحلة الأولى تأنيثا تاما حتى لا يتعرض الطفل لخشونة الرجال . إنهم بذلك حكموا على الطفولة بالليونة وبما يشبه الأنوثة . ومن شب على الأنوثة شاب عليها ، فينخرط الطفل فى سلك الشباب غثا تافها لا يستطيع إبداء الشجاعة ، إذ إن ما استشفه فى مدرسته من أنوثة ورقة ما يزال يجثم عل صدره لا يفارقه . ولسنا بذلك ندعو إلى عدم اشتغال المرأة بالتدريس فى المدرسة الابتدائية ، ولكننا ندعو إلى الإبقاء على بعض المدرسين الشجعان الذين يمكن أن يبثوا الشجاعة والحمية فى نفوس الناشئة، بما ينشئونه من فرق للأشبال ويما يقومون به من مناشط تدفع بالطفولة إلى طريق الشجاعة والإقدام .

ونستطيع القول – لا على سبيل المجاز بل على سبيل الواقع – إن القلب اللحمى يستطيع أن يخضع للتربية . فكما أن العضلات الخارجية والحواس تخضع للتأثير التربوى كذلك يخضع القلب لذلك . فالقلب المدرب على مجابهة المواقف الصعبة والتكيف لها بغير أن يصيبه ضرر ، يكون على استعداد لمجابهة المواقف الأكثر صعوبة بدرجة معقولة . والخطر الذى يحيق بالقلب يتأتى عن الطفرة فى مجابهة الخطر. فالجرعة الكبيرة من الخطر تزلزل الأرض من تحت رجلى القلب الخائر، وتعرضه لخطر التوقف عن استمرار العمل . وهنا تكمن أهمية تدريب القلب على مجابهة الأخطار رويدا رويدا بقدر تحمل طاقته. وبمرور الوقت باستمرار التدريب يكون القلب قد استطاع أن يحصل على مناعة ضد كثير من الأخطار والمفاجآت التى لا تعتبر فى الواقع أخطارًا ومفاجآت مادام اعتادها واستطاع امتصاص واستقطاب قوتها وشدتها .

ومن أكثر المخاطر تهديدا للقلب ، تلك المخاوف الدفينة التى تعمل عملها فى صمت وهدوء . وذلك أن الإنسان الحضارى صار بأجهزته النفسية ومنها أجهزته اللاشعورية يسلك سلوكا داخليا مستمرا لا يكاد يتوقف حتى أثناء النوم، أو أثناء الغفلة عما يحيط به من أشياء . والمخاوف المترسبة فى أعماق الإنسان لا تظل ساكنه بل تتحرك وتتفاعل فيما بينها ، بحيث تتكاثر. ولا يكون تكاثر تلك المخاوف عن وعى من جانب الشخص ، بل إنها تتفاعل وتتلاقح – إن صح التعبير – وهو ساهٍ عنها لا يكاد يدرك ما تضطلع به من نشاط . والعالم اللاشعورى اليوم أشد خطرا على قلب الشخص من عالم الشعور. وشاهد ذلك أن كثيرًا من المخاوف التى تحيق بالإنسان الحضارى ليست بالحجم الذى يرتسم به عالمه الداخلى اللاشعورى. فنحن فى الواقع نخاف من أشياء قد لا يكون لها وجود خارجي واقعى على الإطلاق ، أو قد يكون لها وجود واقعى ضعيف ومحدود للغاية . ولم يكن لها خطر بهذا الحجم الذى تصوره أخيلة الشخص لنفسه.

ومما يساعد على تهديد القلب البشرى ضعف المواد الغذائية التى يتشك منها الدم، أو فساد تلك المواد ودخول مواد غريبة إليه تعمل على إفساد الدو الدموية . فما نسمع عنه من انسداد للشرايين ما هو فى الواقع إلا إفساد مجمو من العناصر لعمل القلب على خير وجه . ولاشك أن المنبهات والمخدرات والكح والسجاير وغير ذلك من مواد إنما تعمل على إصابة القلب بالضعف والوهن ، إنها تجعل الشخص على استعداد للخوف وعدم الاستقرار؛ لأنه يصير مرتبطا تكيفه واتزانه بتناول تلك المواد . فاستمرار تدفقها إلى الجسم يضر به ، وامتد أو نقص تدفقها يفقد الجسم اتزانه .

ولا شك أن انضغاط الإنسان الحضارى فى تلك الآلة الكبيرة التى تد بالحضارة إنما يشكل عاملا خطيرا يهدده ويجعل حياته فى سأم وامتعا فالإنسان الحضارى لم يعد يضطلع إلا بشريحة صغيرة من العمل ، ولم تعد أ

الفرد الواحد بالشيء الجدير بالذكر. ومن ثم فإن الإنسان الحديث صار يشعر بأنه مجرد ترس فى آلة كبيرة، ولم يعد يحس أنه خالق أعماله أو المسيطر على تلك الأعمال. إنه صار يحس بأنه أسير العمل الذى يضطلع به؛ وبأن الحضارة تسوقه سوقا إلى حيث لا يعرف. وشعور كهذا مهدد بلاشك لقلب الإنسان الذى يخشى المجهول، ولا يعرف إلى أين يدفع به فى هذا الخضم الحضارى الرهيب. وهل من مجهول يمكن أن يؤدى إلى توفير الصحة للقلب؟ وهل من خطر يهدد نبضاته أكثر من ذلك الضغط الحضارى الذى يجعل منه آلة حضارية يدفع بها للعمل دفعا، ولا تندفع هى من تلقاء نفسها نحو ما تعمل؟

الشيخوخة المبكرة

من المفروض أن تقع الشيخوخة فى سن متأخرة أى فيما بعد الستين وليس قبل ذلك من أعمار. ولكن الملاحظ أن الشيخوخة لا ترتبط غالبا بالعمر الذى يمكن أن تبدأ منه. نعم إن الشيخوخة حتمية بعد الستين، ولكن حتميتها حتى بعد تلك السن إنما تكون حتمية نسبية، بمعنى: أن حتمية وقوعها بعد الستين لا تكون بنفس التوزيع بين الناس. فقد تكون نسبة الشيخوخة – إذا صح أن نتصور أن تكون الشيخوخة شيئًا يمكن توزيعه فى نسب على الناس – فى السن الواحدة موزعة توزيعًا مختلفًا على مجموعة من الأشخاص الواقعين فى نفس العمر، بحيث لا يكون ما بلغه الشخص من عمر باديًا عليه فى تقدير الناس أو حتى فى الحقيقة إذا ما قيس بمعايير الطب التى تقوم بقياس العمر النسبى لكل جانب من جوانب جسم ذلك الشخص. ومعنى هذا: أننا قد نجد شخصًا فى الستين ولكنه يحمل شيخوخة تصيب غالبًا الأشخاص الذين بلغوا السبعين أو قد تجد شخصًا فى السبعين قد حظى بصحة وحيوية لا تتوافر غالبًا إلا لمن لا يبلغ من العمر سوى خمسين عامًا[1].

(١) انظر كتاب «رعاية الشيخوخة» للمؤلف بمكتبة غريب بالفجالة.

يبدو أننا نلاحظ أن الإنسان الحديث سريع إلى الشيخوخة ، وذلك للأسباب التى سبق أن عرضنا لها . ومن أين تأتى الحيوية للإنسان الحديث وجميع الظروف الحضارية تتواكب ضده وتفت فى كيانه الحيوى وتعمل على إبطال نشاطه والحيلولة بينه وبين مغالبة الطبيعة من حوله بعضلاته ، أى بالطريق الطبيعى وليس بالطريق التكنولوجى كما حلا للحضارة وللإنسان الحضارى أن يفعلا، فالإنسان قهر بالأسف الطبيعة التى هو كيان من كيانها وجانب من جوانبها وعضو من أعضائها . وإذا كان الإنسان يفاخر بأنه قد هزم الطبيعة وأحل الحضارة محلها ، فإن تفاخره ذاك تفاخر أجوف إن لم يكن تفاخرا أحمق . ذلك أن الإنسان بقضائه على الطبيعة إنما يكون قد قضى على أمه التى تمده بالحيوية والنشاط والقدرة . ولكأن الإنسان الحضارى قد أعتق جنيا من قمقم كان سجينا به ، فعندما طلب منه الجنى أن يأمره بأمر واحد؛ لينفذه له مهما كان ذلك الأمر من الصعوبة والامتناع ، فكان أن طلب الإنسان من الجنى أن يقتل أمه الطبيعة وأن يحل الجنى محلها فى خدمته . فما كان من الجنى إلا أن نفذ الأمر ولكنه بجنيته وجبروته أخذ يستذل الإنسان وهو يزعم له أنه إنما بذلك الإذلا يقوم على خدمته والعناية به والرفع من شأنه والعمل على تفتيق مواهبه وفت الأبواب التى كانت موصدة بإزائه أيام كان فى حضن أمه الرءوم .

ونستطيع أن قول فى الواقع: إن إنسان الحضارة يشيخ فى عمر مبكر بين كان الإنسان البدائى ، بعيدًا عن الشيخوخة بحيث لم تكن تعرف طريقها إليه بعد أن يضرب فى العمر المديد بسهم وافر . ومن الطبيعى أننا بالنسبة للإنسا البدائى ليست بنا حاجة إلى أن نفصل فى قوامه ما نفصله من جوانب فى قو الإنسان الحديث . فنحن إذا ما تحدثنا عن الإنسان الحديث فإننا سرعان نتناول فيه الجانب الجسمى والجانب الوجدانى والجانب العقلى والجا الاجتماعى ؛ بل إننا قد نفصل فى كل جانب من هذه الجوانب الأربعة جوا

فرعية متباينة . وعلى الرغم من أننا نذكر الناس من حولنا بأن جميع الجوانب التى نفصلها فى قوام الإنسان الحديث تتكامل فيما بينها بحيث تفضى إلى الوحدة والتآزر ؛ فإننا فى الحقيقة نحس فى قرارة أنفسنا بأن الإنسان الحديث يفتقر كثيرا أو قليلا إلى التكامل المنشود ، بل إننا نجد فى حقيقة أمر الإنسان الحديث أن كل جانب من تلك الجوانب لا يكاد يتكامل مع باقى الجوانب الأخرى ، بل وأكثر من هذا فإننا نجد كل جانب من جوانب الإنسان الحديث يتعارض ويتنابذ مع الجوانب الأخرى . ناهيك عن أن المجتمع الحضارى يشجع على مثل ذلك التنابذ . ألسنا نقول للتلميذ: « اسهر على دروسك تنجح » . ألا يمكن ترجمة هذا القول بقول آخر هو: « حارب النوم الذى هو مطلب من مطالب جسمك؛ لكى تنجح فى مطلب آخر هو النمو التحصيلى الذى هو واحد من مطالب عقلك ؟ » ولكن بالنسبة للإنسان البدائى ، لم تكن ثمة منابذة بين جانب وآخر من جوانب تكوينه، بل إننا لا نستطيع أن نقف فى حياته على تلك الأشتات التى تتفرع إليها حياة الإنسان الحديث . إنه كائن متكامل بالطبع ، وهو أقرب إلى الطبيعة مما يمكن أن نتخيله اليوم وقد شاءت لنا الحضارة أن نقسم أنفسنا إلى جوانب متباينة بل وإلى جوانب فى كل جانب من تلك الجوانب الرئيسية حتى لكأن الإنسان قد استحال إلى آلة شبيهة بأية من تلك الآلات التى قام إنسان الحضارة بصنعها ، أو لعل إنسان الحضارة أراد من أبنائه أن يتشبهوا بالآلات التى تم له اختراعها ، فأخذ فى تقسيم كيانه إلى جوانب يختص كل جانب منها بعمل أو بمجموعة من العمليات التى لا تشارك فيها الجوانب الأخرى .

وحتى إذا نحن قمنا بقياس أنفسنا فى ضوء الجوانب الحضارية التى شاء إنسان الحضارة أن يقسم إليها نفسه ، وهى الجانب الجسمى والجانب الوجدانى الانفعالى والجانب العقلى والجانب الاجتماعى ، فإننا نجد الإنسان يصاب بالشيخوخة المبكرة فى جانب أو أكثر من تلك الجوانب ؛ ذلك أن الإنسان الحديث لا يستطيع أن يفى بحقوق جميع تلك الجوانب بالعناية والرعاية . ومن ثم فإنه

يهمل بعضها أو يهملها جميعا . وإذا نحن تذكرنا جيدًا أن الشيخوخة تتأتى عن عاملين : عامل تكوينى بنائى وعامل وظيفى ، وأن العامل الأول ينقسم بدوره إلى شعبتين : جبلية موروثة وشعبة مكتسبة من المقومات الخارجية ، وأن العامل الثانى يتأتى نتيجة تشغيل العضو أو ممارسة العمليات المطلوبة من العضو أو الأعضاء ، فإننا نستطيع القول: بأن إنسان الحضارة سريع إذن إلى الشيخوخة ، وذلك لأنه أولا من حيث المقومات الوراثية فإنه فى تدهور مستمر . ذلك أن الوراثة وراثتان : وراثة نوعية تتعلق بالنوع أى: الجنس البشرى ، ووراثة فردية تتعلق بالشخص وما سبق من أجداد قريبين أو بعيدين نسبيا . والواقع أن الوراثة النوعية فى تدهور مستمر . ولعل الحضارة تشكل المسئول الأول والمجرم الأكبر فى تدهور هذا النوع من الوراثة . فالحضارة التى تحمى الضعفاء – كما سبق أن ذكرنا – إنما تشجع على تشجيع الكم البشرى مغضية عن الكيف البشرى . فعلى الرغم من أن تعداد الناس على ظهر الكرة الأرضية يزيد حاليا على ستة بلايين نسمة [١] ، فإننا لا نستطيع أن نزعم: أن مثل هذا العدد الهائل ينم على تقدم فى الكيان البيولوجى للبشرية بل على العكس فإننا نستطيع أن نقرر: أن العكس هو الصحيح ، وأن ذلك الرقم المهول إنما يجلى عن وجود انحطاط بيولوجى خطير فى مقومات الإنسان . والأمر هنا كالحال فى مصر عندما تقرأ عن العدد الهائل من الجامعات المصرية بكلياتها الكثيرة وأعداد الخريجين المتزايد بها . فالغر قد ينبهر بتلك الأعداد الهائلة من خريجى الجامعات فى مصر معتقدا أن كثرة العدد تنم على التقدم العلمى والارتفاع الهائل بمستوى الثقافة والتمكن من أصول العلوم وإحراز قصب السبق فى المجالات الحضارية المتباينة . ولكن الواقع مخالف للكم الهائل ، بل نستطيع القول: بأن الكم مناقض للكيف فى كثير من الأحيان . وهو بالفعل مناقض للكيف فى حالتى خريجى الجامعات المصرية العديدين وفى الانفجار السكانى الهائل على مستوى العالم .

---

(١) انظر كتاب « إنه عالم واحد » ترجمة المؤلف وآخرين – دار المعرفة . ص ٢٨٥.

ومادمنا أننا عرضنا للعلم والثقافة فعلينا أن نعرض أيضا وبشكل سريع لهذا الجانب العقلى مخالفين بذلك الترتيب الذى وضعناه عندما عرضنا للجوانب الأربعة التى نستطيع أن نفصلها فى قوام الإنسان الحديث ، وهى: الجانب الجسمى، والجانب الوجدانى الانفعالى، والجانب العقلى ، وأخيرًا الجانب الاجتماعى . والواقع أنه كما أن الشيخوخة المبكرة صارت تدب حثيثا فى أوصاله، فإن شيخوخة أخرى من نوع آخر تدب أيضا فى أوصاله هى الشيخوخة العقلية . ولكى نوضح ما نقصده ينبغى علينا أن نميز جانبين أساسيين فى الحياة العقلية للإنسان : جانبًا يتعلق به وبمقوماته ، وجانبًا يتعلق بالوسائل التى يستعين بها سواء كانت تلك الوسائل أدوات أو أجهزة أو كانت مناهج وطرائق يتناول بها الأشياء والموضوعات ويستكشف بها العالم من حوله ومن فوقه وبداخله . ونستطيع القول بأن إنسان الحضارة قد تفوق على نفسه مئات المرات- إن لم يكن آلاف المرات – بصدد الجانب المتعلق بالوسائل . ولكن إذا نحن وجهنا النظر إلى الجانب الأول المتعلق بالمقومات العقلية؛ فإننا نجد أن إنسان الحضارة قد تدهور تدهورًا بالغ الخطورة فى كل واحد منها . لقد كان الإنسان قديما ذا خيال خصب؛ إذ كان يركب من المخلوقات التى تصادفه كائنات أُخرى ليس لها وجود فى الواقع الحى ولكنها كانت ترتسم فى مخيلته نابضة بالحياة، ولكن إنسان الحضارة قد استطاع بالعلم والتكنولوچيا أن يحيل الأخيلة التى اعتملت فى عقل الإنسان البدائى إلى واقع فعلى يتذرع به ويخضعه لمشيئته اليومية . ولقد سبق أن عرضنا لبساط الريح الذى تخيله الإنسان قديما بحيث كان يشكل متعه ذهنية فائقة للواقع المدرك ، ولكن البريق الذى كان يكتنف الخيال المتعلق ببساط الريح لم يعد ملتفا حول الطائرة أو الصاروخ . صحيح أن خيال أخوان رايت اللذين اخترعا الطائرة كان خصبا ، ولكن من عداهم من مستخدمى الطائرات أو المتلقين للعلوم المتعلقة بالطيران لا يجدون نشوة كتلك النشوة التى حظى بها صاحبا الخيال قبل إحالته إلى واقع يخضع لسلطة الإنسان ، ويطوع

لخدمته ويضطلع بمصالحه . وإنك لتجد أن الإنسان الحديث سقيم الخيال، بل إنك تجد الكثيرين من المربين يحاربون الخيال ويخضعون تلاميذهم على الاستمساك بتلابيب الواقع وبالموضوعية الذهنية الخالية من الخيال ، وهم بذلك يقتلون فى تلاميذهم جانبا من أقيم الجوانب فى الكيان العقلى للإنسان . ولعل أولئك المربين قد ظنوا أن الإنسان الحديث إذا ما التزم بالتفكير المنطقى المرتبط بالواقع الموضوعى فإنه يكون أفضل منه إذا ما ترك لخياله العنان ولكنهم خسئوا فى ذلك وكلت بصائرهم التربوية ، بل إنهم بذلك يكملون مشوار الحضارة فى الإتيان على الفضلة الباقية من الخيال لدى الإنسان الحضارى حيث ينادون بقتل جانب من أعز الجوانب في الكيان الذهنى للإنسان.

أما المقول الثانى الذى أخذ فى الخفوت والذبول لدى الإنسان الحضارى فهو القدرة على الحفظ والقدرة على الاسترجاع والتذكر. لقد كان الشعراء قديما – فى الجاهلية مثلا – يحفظون المعلقة التى نظموها أو التى نظمها سواهم من الشعراء بمجرد سماعها مرة واحدة ، وكان هناك من يعرفون بالحفظة ، وهم ونوابغ الناس آنذاك فى القدرة على الحفظ وفى القدرة على التذكر والإبانة عما حفظوه كما هو بغير زيف أو زيادة أو نقصان . ولقد اعتمد أبو بكر الصديق على أولئك الحفظة فى جميع الآيات القرآنية التى كانوا يحفظونها ، وكذا كان الحال بإزاء الكثير من الأخبار التى كان الحفظة يحتفظون بها فى ذاكرتهم بغير أن يداخلها خطأ أو تحريف، ولعلك تتساءل عن الحفظة حديثا ، فلا تكاد تجد إلا قلة نادرة من الشباب يستطيعون حفظ أو تذكر ما حفظوه بعد فترة تطول أو تقصر؛ ذلك أن الحضارة لم تجعل للحفظ أو للذاكرة عموما مجالا ترتكن إليه . فهى قد اخترعت الكثير جدا من وسائل التسجيل والتدوين بل ووسائل التذكير أيضا بحيث يستطيع الإنسان أن يذكر الشىء الذى نسيه أو أن يقف عليه بغير أن يحاول حفظه فى عقله. وبمرور الوقت بغر استخدام الذاكرة جيلا بعد جيل ، أخذ الحفظ

والتذكر لدى إنسان الحضارة ينكمشان لدرجة أننا قد لا نصدق أن القدماء كانوا يحفظون القصيدة أو المعلقة بمجرد سماعها مرة واحدة من الشاعر الناظم لها .

وثمة قدرة أو مقوم ثالث كان يتمتع به الإنسان القديم وقد حرم منه إنسان الحضارة . وذلك المقوم هو القدرة على الإبانه بالتقليد . لقد كان الإنسان قديما يستطيع أن يعبر عما يراه بالرسم . كان كثير من الناس يستطيعون رسم وجوه الأشخاص بما يتوافر لديهم من وسائل بحيث تأتى رسومهم مطابقة لما يقومون برسمه، من وجوه بشرية . وطبيعى ، أنه بعد اختراع آلات التصوير فإن تلك المواهبة البشرية التى كانت لها صفة العموم تقريبا قد أخذت فى التزايل لدى غالبية الناس . وكذا الحال بالنسبة للإبانة الصوتية سواء بتقليد أصوات الحيوانات والطيور ، أو بتقليد الخطباء والشعراء ونحوهم وهذه القدرة على التقليد الصوتى والحركى قد زايلت الإنسان الحديث أيضا بحيث نستطيع القول بأن أدوات الإعلام والحياة الحضرية بعامة قد ناهضت الخطابة والشعر ولم تعد فرص الإبانة متاحة إلا لقلة قليلة من الناس .

ونستطيع أن نقول: إن الإنسان الحضارى قد انكمش أيضا بالنسبة للجانبين المتبقيين أعنى: الجانب الوجدانى والجانب الاجتماعى . فبالنسبة للجانب الوجدانى فإنك تجد أن الحضارة تناهض الوجدانية وترجح كفة العقلانية والموضوعية . إنها تخض الإنسان على تناول كل شىء من الزاوية الواقعية النفعية بغير التفات إلى الجانب الوجدانى . من هنا فإنك تجد أن الحياة الوجدانية لدى الفرد والمجتمع قد تقلصت ولم تعد تحتل فى الحياة سوى جانب أو قطاع ضيق للغاية . صحيح أن الإنسان لايستطيع أن يتجرد عن عواطفه ولكنه استطاع أن يحيل عواطفه إلى عواطف ذابلة واهنة. وشاهد ذلك أن الإنسان الحضارى ما يكاد يخرج عن الطوق حتى يكون قد فقد القدرة على البكاء وكثيرا

ما يفقد القدرة أيضا على الضحك . ولعل فقدان الإنسان الحضارى القدرة على البكاء على التعبير عن خلجات نفسه تشكل أولى أسباب الأمراض النفسية والعصبية التى تشيع لدى الإنسان الحديث .

أما عن الجانب الاجتماعى ، فقد سبق أن قلنا: إن الإنسان البدائى كان لا يحس بفارق بين وجوده ووجود المجتمع الذى ينتسب إليه . إنه كان يعيش بوجود عضوى مكين يربطه عضويا بالمجتمع الذى أنجبه . أما الإنسان الحديث فإنه كثيرا ما يحس بالاغتراب عن مجتمعه ، بل إنه كثيرا ما يحس بالعداء نحو المجتمع . والكثير من الناس – إن لم يكن كل الناس – يحسون فى أنفسهم بوجودين متباينين أو بوجودين متعارضين : وجودهم كأفراد ، ووجودهم كأفراد فى مجتمع . وكل وجود من هذين الوجودين يحارب الوجود الآخر ، بحيث نجد الإنسان الحضارى وقد توزع أشتاتا بين ذاته الفردية وذاته الجماعية . وهذا ما حدا بفرويد إلى القول: « بالأنا » و « بالأنا الأعلى » والأنا هو: إحساس الفرد بفرديته ، بينما « الأنا الأعلى » هو: إحساس الفرد بالانتماء إلى المجتمع الذى يستظل بظله ويعيش فى نطاقه .

والواقع أننا بتصفح هذه الجوانب الأربعة التى عرضنا لها ، وهى الجانب الجسمى، والجانب العقلى، والجانب الوجدانى الانفعالى، والجانب الاجتماعى ، نجد أن الإنسان الحضارى وقد أخذت الشيخوخة المبكرة تدب فيه باستمرار ، بحيث إنك تجد أن الإنسان الحديث ما يكاد يخرج من نطاق الطفولة حتى يجد أن الشيخوخة قد بدأت تزحف إلى حياته . ولعل السبب ، أو لعل الجانى الحقيقى ضد الإنسان الحديث هو ذلك المسار الحضارى الردىء الذى أضل الإنسان بحيث أحال الشباب إلى شيوخ ، سواء من الناحية الجسمية، أو من الناحية العقلية، أو الناحية الوجدانية الانفعالية، أو من الناحية الاجتماعية .

الذبول الجنسى

سبق أن عرضنا لماما للمسألة الجنسية بالفصل الأول بصدد حديثنا عن تأجيل الزواج بالنسبة لمعظم الشباب ، وذلك لأن الاستعداد للزواج اجتماعيا لايماشى أو يتوازى مع الاستعداد البيولوجى لذلك . فبينما يكون الشاب أو الشابة فى أوج اللياقة الجسمية للنهوض بالعلاقات الجنسية ، فإن الجيب يكون خاويا فى الغالب ولا تكون المرحلة التعليمية المرموقة قد اجتيزت بعد ، ناهيك عن المشكلات الاجتماعية العامة التى تحول دون إنشاء أسرة جديدة إلا بصعوبة شديدة كأزمة المساكن وغيرها من مشكلات اجتماعية مماثلة . وقد خلصنا من هذه الإلمامة السريعة إلى أن الإنسان الحديث لا يقبل على الزواج إلا بعد أن يكون الذبول قد ضرب بجذور عميقة فى قوامه الجنسى البيولوجى المتمثل فى أعضائه التناسلية بالدرجة الأولى .

والواقع أنه لمخطئ من يقيم فاصلا بين اللياقة الجسمية بصفة عامة وبين لياقة الأعضاء التناسلية . ذلك أننا لا يمكن أن نتخيل شخصا نحيل الجسم ضئيل البنية واهن القوة والشكيمة وقد اصفر وجهه وفترت دقات قلبه وارتعشت يداه وخارت رجلاه واضطرب تنفسه وانحنى ظهره ومع ذلك يكون قويا فى جانب واحد هو الجانب الجنسى . صحيح أن الجسم يتسم بالفروق العضوية بين ما يمكن أن تتلبس به أجهزته وأعضاؤه المختلفة بالقوة أو بالضعف ، صحيح أيضا أنك قد تجد إنسانا مفتول العضلات ، وربما يكون من حائزى البطولات فى لعبة ما من اللعبات الرياضية ، ومع ذلك فإنه يكون غير قوى فى جميع النواحى الجسمية بالقدر الذى واتاه من القوة العضلية . ذلك أن التبريز فى ناحية جسمية معينة لا يستتبع بالضرورة التبريز فى جميع النواحى . فالفروق الفردية قائمة بين المناحى المتباينة من جسم الإنسان . فقد تجد أحد الملاكمين وقد برز فى العضلات المفتولة ولكنه لم يحظ بنفس القوة بالنسبة للدورة الدموية فتدهش إذ

تسمع أن ذلك الشخص قد مات فجأة بالسكتة القلبية مع أنه كان موفور النشاط ، ولكن الواقع أن قلبه كان عرضة للإصابة بسبب خلل كامن وجد الفرصة للإطلال برأسه فى موقف ما فوقع صريع توقف القلب عن الاستمرار فى العمل . ولكن هذا الكلام الذى يبدو متناقضا ظاهريا لا يوجب ما نزعمه من أن هناك علاقة عامة بين الصحة العامة وبين قوة الأعضاء التناسلية . والأمر هنا أشبه بأحد الفصول الدراسية ، فيمكن أن نقول : إن مجموعة التلاميذ الممتازين الذين يتشكل منهم الفصل الممتاز يؤثرون بعضهم فى بعض فى أنحاء متباينة ، بحيث نستطيع القول بأن المستوى العام للفصل يؤثر فى تلميذ بالفصل . فإذا كان المستوى العام للفصل ممتازًا ، فإنه يؤثر إيجابيا فى كل تلميذ ، وعلى نقيض ذلك فإذا كان المستوى العام للفصل متدهورا ، فإنه يؤثر بالسلب فى كل تلميذ به . ولكن حتى بالنسبة لأحد الفصول الممتازة، فمما لا شك فيه أنه توجد به فوارق فردية بين تلاميذه . وليس من التناقض فى شىء أن نعثر على تلميذ بليد جدا فى أحد الفصول الممتازة ، على الرغم من أن ذلك يعد استثناء .

وإذا كان ذلك كذلك ، وسلمنا بأن الصحة العامة للشخص تؤثر من قريب أو من بعيد فى قدرة الأعضاء التناسلية ، فإننا من جهة أخرى يجب أن نقرر أن النشاط الجنسى التناسلى لا يمكن أن يتم على الوجه الأكمل عن طريق الأعضاء التناسلية وحدها ، بل نستطيع القول بغير مجاز أو مبالغة: إن هناك نوعين من الأعضاء التناسلية : نوعًا أوليا أو جوهريا ونوعا آخر ثانويا . والنوع الأول يتمثل فى الأعضاء التناسلية المسئولة عن التناسل مباشرة . أما النوع الثانوى فهو مجموع الجسم ؛ وبخاصة ما يمكن أن يقوم بدور المثير أو المبهر كالعينين الجميلتين أو لون البشرة الرائق أو رشاقة الأعضاء أو متانة البنية التى تتمثل فى التجانس الحركى المطلوب فى الممارسة الجنسية بإزاء الطرف الآخر . ومعنى هذا فى الواقع: أنه لا يكفى أن تكون الأعضاء التناسلية لدى المرء قادرة على العمل

بكفاية؛ لكى يكون شاعرا بلياقته الجسمية . ناهيك عن إحساس الطرف الآخر ، بل لا بد أن تكون الأعضاء الجنسية الثانوية أيضا على أكبر قدر من الكفاية حتى يتسنى توافر أكبر قدر من الكفاية الجنسية مع الشرط طبعا بأن تكون الأعضاء التناسلية الجوهرية متينة قوية وغير مشوبة بالضعف أو الذبول ، وبحيث تكون خالية من الأمراض التى تسبب لها الوهن أو العجز عن القيام بعملها على خير وجه .

والواقع أن تأجيل الزواج الذى فرضته الحضارة على الإنسان الحضارى قد سبب له الكثير من الالتواءات الجنسية . فهناك أولا: الاستمناء ؛ فالكثير من الشباب الذين اشتهروا بالاستقامة من الناحية الجنسية وقد بدا عليهم العزوف عن الجنس واتصفوا بالتعفف ، هم فى الحقيقة قد حولوا دفة النشاط الجنسى إلى ما يسمى بالتلذذ الذاتى auto - eroticism ، فبدل أن يبحث الشخص عن موضوع خارجى يستشف منه اللذة فإنه يأخذ اللذة من ذات جسمه وعن طريق العشق الذاتى ، وهو ما سمى: بالنرجسية . ولقد تصل النرجسية عند بعض الشباب من الجنسين إلى حد بعيد بحيث تظل مسيطرة عليه (أو عليها) حتى بعد الزواج ، وقد تسبب له عدم القدرة على التكيف جنسيا للطرف الآخر بعد إتمام الزواج ، إذ تكون العادة النرجسية هى صاحبة الحول والطول فى الحياة الجنسية كلها للشخص .

ولقد يستبدل الشاب بالواقع الموضوعى الذى يمكن أن يقتبس منه اللذة ويرتشفها منه أخيلة ذهنية يركب منها ما يشاء ، ويعكف على تلك الأخيلة الوهمية بقصد الهروب من مسئولية السمعة الرديئة أو تجنبا للفضائح الجنسية . وهكذا يتمرس الشاب أو الشابة بذلك الوهم ويستدعى تلك الأشباح الآدمية إلى ذهنه مجتلبا منها المتعة وينتهى استمتاعه بها إلى ممارسة الاستمناء المقصود .

وسواء عكف الشخص على الاستمناء بالنرجسية أو بالأشباح الجنسية التى ترتسم فى خياله ، فإن النتيجة هى حدوث الضعف والذبول فى الأعضاء

التناسلية واستشعار العجز عن النهوض بالواجب الجنسى فى الزواج . وإنك لتجد الشاب أو الشابة، وقد فشلا فى الزواج ، ولكنهما يستمران فى الممارسة الاستمنائية ولا يبدو لدى أى منهما أى ضعف فيها ومعنى هذا فى الواقع أن الذبول الجنسى يمكن أن يفهم على وجهين : وجه بيولوجى وظيفى . فهناك عجز جنسى حيوى أو تكوينى سواء كان التكوين جبليا فطريا وراثيا ، أو كان مكتسبا، أى: حدوث خلل أوضعف فى ذات الأعضاء التناسلية بعد المتانة والقوة . أما الوجه الوظيفى ، فإن الذبول فيه يكون مرتبطا بالأداء نفسه وبالظروف المحيطة به . والأمر هنا يشبه حالة سائقين أثبت كل منهما عجزه عن قيادة السيارة ، ولكن لسببين مختلفين . فالأول عاجز عن قيادة السيارة؛ لأنه لم يتعلم قيادتها أو بسبب إصابة يديه أو رجليه برعشة نتيجة شلل جزئى وقع له . أما السائق الثانى فإن عجزه عن القيادة قد نجم عن سبب نفسى كأن يكون قد دهس أحد المارة فأصابته عقدة نفسية ضد القيادة أو لأنه اعتاد لعدة سنوات أن يقود سيارته بشوارع لندن مثلا حيث يقود الجميع إلى اليسار وليس إلى اليمين ، فعندما جاء إلى القاهرة ظهر عجزه الوظيفى عن قيادة نفس السيارة التى كان يقودها بشوارع لندن .

والواقع أن الحضارة الحديثة تشجع – من حيث تدرى أو من حيث لا تدرى – على ذبول الأعضاء التناسلية . فهى تقدم مندوبين عن الناس يمارسون النشاط نيابة عنهم ، بينما يظل الشباب فى حالة من السلبية التامة بحيث يكتفون بالمشاهدة دون الممارسة . فعلى الشاب والشابة أن يشاهد الأفلام السينمائية الحارة أو الملتهبة بالغرام ، ولكنه يمنع طبعا من تقليد ما يشاهده . وإذا ما ضبط متلبسا بتقليد نفس المناظر وفى ظروف مماثلة لما وقع فى سياق الفيلم السينمائى المعروض ، فإنه يعد فاسقا ناشزا وعليه أن يتحمل المسئولية الأخلاقية والجنائية . والأمر هنا شبيه أيضا بموقف الحضارة من رياضة كرياضة كرة القدم . فالشاب يستطيع – أو يسمح له – بأن يشاهد مباريات كرة

القدم التى يضطلع بها ممثلون للشباب . ولكن نفس ذلك الشاب الذى يتفرج على المباريات بانتظام إذا ما رغب فى الاشتراك فى فريق كرة القدم بالمدرسة أو الكلية ، فإنه يجد الكثير من الضغوط من جانب أسرته لثنيه عن ذلك .

ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن الكثير من شبابنا من الجنسين قد أصيبوا بعقد نفسية ضد الجنس ، أو ترتبط بالجنس ارتباطا مباشرًا أو غير مباشر . ولسنا نبالغ أيضا إذا قلنا: إن قلة قليلة من حالات الذبول الجنسى هى التى تعرض على الأطباء المختصين بالضعف الجنسى ، وأن الغالبية العظمى من تلك الحالات تظل مستخفية – أو بالأصح مستورة؛ خشية الافتضاح ، وذلك لأن غالبية الأوساط الاجتماعية تعتبر الضعف الجنسى وصمة عار فى جبين المصاب به ، ومن ثم فإن من يشعر بالوهن الجنسى عليه أن ينفذ الحكمة القائلة: « إذا بليتم فاستتروا » مع أن الحقيقة أن الشاب الذى قد يصاب بمثل ذلك الذبول أو العجز الجنسى لا يكون له يد فيما أصابه ويكون من حقه على المجتمع أن يأخذ بيده ، ومن حقه على الحضارة أن تسعفه إذا كان لديها الإسعاف وهى التى جعلته فى ذلك الوضع المهين .

وترتبط مشكلة الذبول الجنسى بواقع إنسانى يجب ألا نعزف عن ذكره . وهو أن الإنسان يختلف اختلافا جذريا عن الحيوان فى أنه يستطيع أن يباعد بين مطالب جسمه الحقيقية بما يستحثه لديه من رغبات مفتعلة أو رغبات ناجمة عن عوامل أو مقومات نفسية غير بيولوجية . كما سبق أن قلنا بإزاء الأكل من أن الإنسان الحضارى يستطيع أن يشتهى الطعام برغم شبعه خلافا للحيوان ، فإنه أيضا يفعل نفس الشىء بإزاء الموضوعات الجنسية . فالشخص الواهن جنسيا يمكن أن يستحث جنسيا بالمثيرات الجنسية أو بإقناع نفسه بأن متعطش جنسيا، أو إذا هو صادف موضوعا جنسيا جديدا يستحث رغباته الجنسية الفاترة .

فالخيال الجنسى مباين للقدرة أو للحاجة الجنسية الحقيقية . فنجد أن الشاب شاحب الوجه ضعيف البنية وقد شارف على الإصابة بالأنيميا ولكنه مع ذلك مفرط على الاستمناء أكثر من ثلاث مرات فى اليوم الواحد . وعلى الرغم من اقتناعه بأن ما يدمنه من نشاط جنسى لا يتواءم مع حقيقة بنيته ولا مع قدراته الجسمية الحقيقية .فإنه يقرر لك: أنه عاجز عن ضبط نفسة وأنه خاضع لساطان العادة التى تدفع به دفعا مهما كانت حالته وقدرته الجنسية .

ومما لا شك فيه أن إجهاد الأعضاء التناسلية وسوقها إلى بذل النشاط حتى وإن كانت غير مستعدة للنهوض بذلك ، إنما يرمى بها إلى التهلكة ويصيبها بالوهن المزمن . وشأن الأعضاء التناسلية شأن جميع الأعضاء والحواس . فالعين تصاب بضعف الرؤية إذا ما تحملت أكثر من طاقتها فى القراءة . والأذن تصاب بالصمم الجزئى أو بالصمم الكلى إذا تحملت سماع أصوات عالية مستمرة أو مفاجئة . وهكذا دواليك بالنسبة لباقى أجهزة الحس ، بل وبالنسبة لجميع الأعضاء التى تعتمد فى عملها أساسا على الأعصاب .. وثمه فرق جوهرى بين العضلات التى تقوى أكثر فأكثر بالممارسة ، وبين الأعضاء التناسلية التى تستثار بما تشتمل عليه من أعصاب مكثفة . فالأير (العضو الجنسى عند الرجل) ليس عضلة كتلك العضلات الموجودة بالذراعين والفخذين والساقين . بل هو نسيج عصبى مكثف على نحو معين يستجيب بالاحتكاك الخفيف فيحدث الانتصاب .. فإرهاق هذا العضو وكذا إرهاق الأعضاء التناسلية المناظرة عند المرأة ،لا يعمل تقويتها بل يؤدى إلى ضعفها .

وهناك فى الواقع فرق جوهرى بين الحاجة الجنسية وبين الرغبة الجنسية . فلقد يكون جسم الشاب أو جسم الشابة بحاجة إلى الجنس ، ومن ثم تتواكب الرغبة الجنسية مع تلك الحاجة . ولكن ربما تنشأ الرغبات الجنسية ، لدى واحد منهما بغير أن يكون الجسم بحاجة إلى ذلك . وهنا ينبغى أن نؤكد أن الحاجة الجسمية الجنسية يجب ألا تتركز فى نطاق ضيق للأعضاء التناسلية. بل يجب أن تأخذ باقى الجسم فى الاعتبار . فلقد نجد الطبيب ينصح أحد مرضاه

بتجنب الجنس نهائيا أو لفترة معينة حتى يضمن السلامة لنفسه من تأثير النشاط الجنسى على القلب أو الرئتين أو غير ذلك من أجهزة جسمية حساسة وجوهرية تتعلق بحياة الشخص نفسه .

ولقد تجد أشخاصا يستعينون ببعض المواد المنشطة جنسيا بحيث يتوهمون أنهم قد صاروا فحولا فى القدرة الجنسية ، مع أن الواقع عكس ذلك تماما . ذلك أن المواد المنشطة للرغبات الجنسية يكون لها ردود فعل مضادة بعد زوال مفعولها ، وفى المدى الطويل يكون على الشخص المتعاطى لها أن يزيد من الجرعة التى تؤثر فى نشاطه إلى أن يصير مدمنا ، ولا تنفعه تلك المواد المنشطة من قريب أو من بعيد ولا يكون عليه إلا أن يستمر فى تعاطيها مع عدم فائدتها له . وهيهات أن يتخلص من سيطرتها عليه . ومن أكثر تلك المواد شيوعا فى مصر الحشيش الممنوع قانونا . ونخشى أن نقول: إن إنسان الحضارة قد ابتلى بالمخدرات؛ لأنه يحس بالذبول يضرب بأطنابه فى أعضائه التناسلية .

★ ★ ★

الفصل الثالث

أزمة الصحة النفسية

الانهيار العصبى البطىء

يطلق لفظ الانهيار العصبى على الحالات التى لا يستطيع فيها الشخص مجابهة أعباء الحياة أو مقابلة الواقع بتكيف ناجح ، فينهار ويفقد قدرته على السيطرة على أعضائة وتوجيه طاقاته العصبية الوجهة الصحيحة . والواقع أن كل عملية صغيرة أو كبيرة تحتاج منا إلى بذل مقدار معين من التيار العصبى . فإذا ما جويهنا بموقف خطير مفاجئ فإن ما لدينا من طاقة عصبية قد لا يسعفنا إذ تكون متطلبات الموقف منا أكثر مما فى جعبتنا العصبية . فماذا يكون إذن أمامنا ؟ لا بد من إعلان إفلاسنا العصبى . ولا يكون موقفنا هنا مختلفا اختلافا جوهريا عن موقف التاجر الذى يجد نفسه بحاجة ملحة مفاجئة إلى مبلغ طائل من المال وليس فى خزينته ما يكفى ، وقد سدت أمامه جميع السبل لتدبيره ، فلا يكون إذن أمامه إلا إعلان إفلاسه على الملإ . وقد يضطر وقتئذ إلى الانتحار أو إلى الهرب من الواقع فيصاب بالجنون ، أو قد يهرب من سلوكه المعتاد إلى نوع من السلوك الإجرامى المفاجئ .

والواقع أن الإنسان البدائى لم يكن عرضة لأى نوع من الانهيار العصبى لأنه كان خاضعا لقانون الاختيار الطبيعى ، وكان يقضى نحبه قبل أن تنهار أعصابه . ذلك أن الطبيعة كما سبق أن قلنا كانت لا تسمح بالبقاء إلا لفئة الأقوياء القادرين على مجابهة الواقع بصلابة وشجاعة وإقدام . أما فئة الضعفاء

المتخاذلين فإنهم كانوا لا يفتأون ينهارون ويتلاشون من الوجود بغير أن ينجدهم أحد أو بغير طب يأخذ بأيديهم ويردهم إلى الصحة . فلم يكن هناك إلا حل من حلين : إما البقاء فى حالة من القوة وإما التلاشى من فوق سطح البسيطة . أما اليوم فهناك ثلاثة أنواع من الحلول : الحل الأول: الاستمرار فى قوة وأهلية ، والثانى : الموت وترك المجال للأقوياء . والحل الثالث هو: الحل الترقيعى الذى هو وسط بين القوة والضعف ، أو بين اللياقة النفسية والانهيار النفسى .

فالحضارة الإنسانية بما تتضمنه من ألوان الضغوط الكثيرة وما تحيط به الإنسان من أشكال مصطنعة من الحياة ، إنما تعرضه لحالة مستمرة من التدهور النفسى . وعلى الرغم من أن الحالات التى يعلن أنها انهيار عصبى فعلى هى حالات قليلة نسبيا ، فإن هناك حالات كثيرة يجب اعتبارها ضمن فئة المنهارين عصبيا ، أو على الأقل اعتبار أن أصحابها فى طريقهم إلى الانهيار العصبى .

وواضح أن الحضارة الإنسانية ترتبط ارتباطا شديدًا بالصخب وما يتبع ذلك من ضغط على الأعصاب . والواقع أن الصوت المرتفع مما يرهق الأعصاب ، ويعرض الشخص للإجهاد العصبى . وتعليل ذلك فسيولوجيا أن الأذنين ترسلان ما يصل إليهما من أصوات إلى المخ لترجمة تلك الأصوات إلى معان أو لتفسيرها والوقوف على مصدرها . وطبيعى أن الأصوات المكثفة تنتقل بشدة ووطأة إلى المخ فتهدد بإتلافه والتأثير تأثيرًا سيئا على الجهاز العصبى بأسره . وفى الحروب يتعرض الناس لما يسمى: بصدمة القنبلة Shell-shock . فلدى سماع صوت الانفجار الشديد فإن بعض الناس لا يتحملون تلك الأصوات فينهارون عصبيا ، ويكونون بحاجة إلى مساندة طبية لإنقاذهم وإعادتهم إلى ماكانوا عليه من صحة سابقة .

وفى الحالات العادية فإن ساكن المدينة يجد نفسه بعد يوم حافل

بالأصوات المثيرة للأعصاب بحاجة إلى التزام السرير أو البعد عن الناس أو البعد عن الصخب أيا كان حتى يتسنى له استرجاع ما كان عليه من هدوء وانسجام نفسى . ولعل الجهاز العصبى - شأنه شأن أى جهاز حساس - يكون عرضة للفساد كلما كثر استخدامه . إنه بحاجة إلى الراحة الكثيرة كلما كان استخدامه كثيرًا . ولعل الإدمان فى استخدامه والإثقال عليه يؤدى به إلى عطب لا يمكن الخلاص منه على الإطلاق .

وإنسان الحضارة يفتقد جانبا هاما كان يستمتع به الإنسان القديم . ذلك هو الإحساس بالانتماء والارتباط بشدة إلى مجموعة عضوية تتمثل فى العشيرة أو القبيلة، أما الإنسان فى ظل الحضارة فقد أصبح كائنا يساق سوقا إلى حظيرة المدنية أو إلى حظيرة الحضارة بغير أن يكون هناك وشائج فطرية تربطه بهذا الكل . لم يعد الإنسان الحضارى يحس بأنه واقع فى كل هو جزء منه ، بل يحس بأنه مرتبط بمن حوله ارتباط مصلحة فحسب، لقد افتقد ذلك الحب المتين الذى كان يحس به إنسان القبيلة تجاه قبيلته . لم يكن إنسان القبيلة بحاجة إلى تربية مقصودة تعلمه الحب والولاء والوطنية .. لقد كان الارتباط بالقبيلة ارتباطا عضويا ليس بحاجة إلى تدريب . أما إنسان الحضارة فإنه بحاجة إلى هذا اللون من التدريب . إنه بحاجة إلى تبصير وتذكير دائمين بالواجب نحو الوطن ونحو الجماعة، وأكثر من هذا فإن هناك بين المواطن الحضارى وبين من حوله شبه اغتراب . إنه لا يكاد يحس بالحب يربطه بمن حوله . فالوشائج الطبيعية التى كانت متوافرة بين الإنسان البدائى وبين عشيرته أو قبيلته أصبحت منعدمة اليوم بين أناسى الحضارة . إن مواطنى الحضارة غرباء بعضهم عن بعض ، ولا يكاد الواحد منهم يبتسم للآخر إلا بتكلف .

وافتقاد هذا الحب يجعل المواطن الحضارى مرهق الأعصاب. ذلك أنه وقد فقد عنصرا أساسيا من إنسانيته ، فإنه يحَس بالتالى بأنه مهدد من الآخرين ،

وبأن كل الأعين من حوله تتربص به وتنتقده أو تتهيأ للإيقاع به . ماذا يكون حال مواطن الحضارة وقد وقع مغشيا عليه بالشارع ؟ إن المارة ينظرون إليه بإشفاق ، ولا يكاد يجد من يضحى من أجله بنقله إلى منزله . ولكن ما الذى ينتظر أحد أبناء القرية – والقرية مجتمع عضوى نسبيا – إذا ألم به مكروه ؟ إن الجميع يسارعون لنجدته والأخذ بيده مما أصابه .

وهذا فى الواقع ما حدا بواحد مثل هوبز (١٥٨٨ – ١٦٧٩) إلى تخيل نشأة المجتمع الإنسانى بالاتفاق بين الأفراد على التهادن وترك ما كان بينهم من خلافات وشجارات . لقد تخيل الحالة الأولى للإنسان قبل نشوء المجتمع بأنها حالة تربص كل فرد بالآخر ، كما يفعل الذئب بالحمل . وخطأ هوبز فى هذا أنه استقرأ حال مواطن المدينة بإنجلترا وقتذاك ، ثم عمم على أساسه بإزاء تفسيره لنشأة المجتمع المتحضر . ولقد فات هوبز أن المجتمع البدائى كان هو الأساس الذى نبثقت عنه المجتمعات المتمدنة ولم يكن الأساس هو الأفراد كأفراد . فواقع الأمر أن الفرد لم يكن ليعيش وحده فى أى عصر من العصور . وأكثر من هذا فإن الإحساس بالفردية لم يكن ليخامر الإنسان البدائى ، بل إن الإنسان البدائى كان يحس بالروابط الوطيدة بينه وبين غيره من أفراد ، لدرجة أنه لم يكن يدرك إنيته كفرد مستقل . وشاهد ذلك أن القرابة لم تكن مجرد إثبات حالة ، بل كانت أكثر من ذلك إحساسا عضويا بين الفرد والقبيلة الأم . فالمجتمع البدائى كان إذن هو الأساس الذى انشعبت عنه المجتمعات المتمدنة وكان مجتمعا عضويا نابضا بالحيوية فى جميع أجزائه ، ولم يكن بحاجة إلى مؤسسات تربوية واجتماعية تشد من أزره وتحقق التكامل فيما بين أجزائه .

ولقد أخذ المجتمع المتمدن فى التعقد . ذلك أن اتساع الحجم وبزوغ وظائف متباينة بالمجتمع الحديث المتحضر ، قد جعل عوامل أخرى غير العامل العضوى الحيوى هى المؤثرة فى تشكيل مجتمع المدينة . العامل الأول المصلحة المادية

والمعنوية المتراكبة بعضها فوق بعض . ففى المجتمع الحضارى حلت المصلحة محل المحبة . فكل شخص يريد أن يحصل على فائدة معينة نتيجة اتصاله بالآخرين . فالتعامل بين الناس لم يعد مرتبطا بالعاطفة التى تجمع فيما بينهم كأساس ، صارت العواطف المتبادلة مجرد وسيلة يستعين بها المواطن المتحضر لتسيير أعماله . والعامل الثانى : القانون الوضعى . والقانون الوضعى يستبعد العواطف ، ويقرر نصوصا تطبق فى جميع الحالات المتشابهة بغير تدخل ذاتى من جانب القاضى ، وبغير إقامة اعتبار للعواطف التى قد تؤثر فى تطبيق القاعدة القانونية . ومحاولة قانون الحضارة هى محاولة جعل الإنسان شبيها بأية مادة فى خضوعها لقانون معين تسير وفقه فى كل مكان وفى كل زمان . فالقانون يريد إحالة الناس إلى فئات متشابهة أومتطابقة ، وأن يطبق على كل فئة قانونا خاصا بها . أما المجتمع البدائى فلم يكن يعرف القوانين ولكنه كان يوقع العقوبة على الخارجين عن نطاقه لا فى ضوء جسم الجريمة أو حجمها ، بل فى ضوء تأثير الفعلة الآثمة فى نفسية ذلك المجتمع البدائى ممثلا فى القائمين على شئونه وزعمائه . أما العامل الثالث المؤثر فى تشكيل مجتمع الحضارة فهو العلم والتكنولوجيا . والعلم والتكنولوجيا هما المحاولة المستمرة للسيطرة على الأشياء وتطويعها لخدمة الإنسان أو لحمايته أو للقضاء على الأعداء . ولم يعد علماء المجتمع الحضارى مثل علماء المجتمع البدائى فى المنهج والقصد ، بل تباينوا عنهم . فعلماء المجتمع البدائى كانوا يؤثرون بالسحر والمعتقدات الدينية فى كل شىء فى الزراعة والطب والإنجاب وفى كل شئون الحياة . أما علماء الحضارة فإن علمهم موضوعى خارج نطاقهم وخارج نطاق عواطفهم وميولهم الشخصية . ولا تعتمد صلابة القاعدة العلمية عند العالم الحضارى على موهبة يتفرد بها ، بل إن العمل فى فريق من العلماء والاستمرار بما انتهى إليه الآخرون هو القاعدة التى ينهجها العالم الحضارى الحديث .

وإنك لترى أن المجتمع الحضارى يبعد الفرد عن العمل مسرح العمل ، ويحل محله أشياء أخرى غريبة عن ذاتيته . لذا فإنك ترى أن ذلك الإبعاد للفرد عن واقع حياته جعله لا يحس بقيمة حقيقية لوجوده . إنه ترس فى آله ضخمة وهو ترس هزيل وتافه ويمكن أن يحل محله ترس آخر فى اللحظة والتو . ومما يزيد الطين بلة أن الفرد بالمجتمع الحضارى الحديث قد يحس بأنه ضمن الفائض العالة الذى لم يكن له أن يوجد على الإطلاق إنه إضافه ضارة إلى المجتمع . وحتى ما يقوم به من عمل لا يساوى شروى نقير . وكما سبق أن قلنا فإن العمالة الزائدة عن الحد المطلوب لأحد المصانع أو المصالح الحكومية لا تأتى بالفائدة بل تعود بالضرر على ذات العمل . فالمواطن الحديث قد يستشعر أنه عامل من عوامل الضرر بالمؤسسة التى يعمل فيها . ولكنه من جهة أخرى لابد أن يعيش . إذن كيف يستمر على هذه البسيطة ولا يكون فى نفس الوقت كائنا ضارا على هذا النحو الممض ؟ ليس هناك حل أمامه . إذن فليظل على هذه الحالة العصبية الثقيلة حتى ولو انهار جدار نفسيته وفقد قوامه العصبى المتزن .

وفى المجتمع الحضارى تتصدى كلمة « لا » كل موقع يتجه إليه الشخص ، إنك إذا تشاجرت واعتدى عليك الخصم بالضرب ، فقابلت بالضرب المماثل ، قيل لك: « لا » إنك مذنب ، وكان الأحرى بك أن تتحمل الإهانة لتذهب إلى عملك بدلا من اقتيادك إلى قسم الشرطة ومنه إلى السجن . فإذا قلت لمأمور القسم: « ولكنه هو البادئ بالضرب والإهانة » قال لك: « نحن هنا لنأخذ لك حقك . وليس من المسموح به لك فى مجتمعنا الحضارى أن ترد الإهانة بإهانه مماثلة ، أو اللطمة بلطمة مثلها ، بل كل ما تستطيع القيام به هو اللجوء إلينا مقدما الشكوى؛ لتأخذ مجراها . وحتى نحن رجال الشرطة لا نضرب ولا نعاقب إلا بأمر من القضاء » .

وليس الأمر مقتصرا على غريزة المقاتلة ، بل ينسحب على جميع الغرائز الإنسانية التى يشترك فيها الإنسان مع باقى الحيوانات . إنك لا تستطيع أن تعبر

عن غريزتك الجنسية كما تشاء وحسب أهوائك . ولا بد أن تأخذ تصريحا رسميا دينيا ومدنيا قبل التعبير عن شهواتك . فإذا أنت بدأت بالتعبير عما يخالجك من مشاعر، قال لك المجتمع كلاما وعملا : « لا . . . ليس مصرحا بالإقدام على إشباع الغريزة الجنسية إلا بالتصريح الرسمى » .

ولسنا بالطبع نناهض ما يقوم به التنظيم . ولكننا نقول: إن المجتمع الحديث مجتمع تكثر فيه الممنوعات . وقد وضعها لحماية المجتمع والأفراد المتباينين بعضهم من بعض . ولكن هذا المجتمع نفسه يجب أن يتكامل بحيث يتسامى ويسمح لأفراده بالتعبير عن غرائزهم بالطريقة التى يتقبلها ويرضى عنها . خذ مثالا لذلك المباريات الرياضية بكافة أشكالها وأنواعها . لا شك أنها تعد متنفسا مقبولا اجتماعيا؛ إذ يعبر الفرد من خلالها عن نزعاته العدوانية بطريقة مقبولة. كذا فإن الأندية التى تضم الجنسين والتى يشرف عليها إخصائيون اجتماعيون يمكن أن يستحدثوا مجالات تتعاون فيها الفتاة والفتى أو يتنافسان بحيث تجد الغريزة الجنسية متنفسا لها فى صيغة اجتماعية مقبولة . ولا شك أن مجرد وجود عمل مشترك بين الجنسين فيه تنفس اجتماعى مقبول لمطالب الغريزة الجنسية . ولكن المجتمع الحضارى يعمد فى بعض الأحيان إلى التزمت فيحرم كل شىء . يحرم الناس من التشاجر الرياضى ، ويحرم الشاب والشابة من اللقاء حتى ولو كان لقاؤهما بصدد عمل خيرى نظيف لا تشوبه شائبة .

وإنك لتجد فئة الرجعيين ينبثون فى كل ركن من أركان المجتمع الحديث يحرمون على الناس كل شىء . فكلما تحركوا أشاروا إليهم بكلمة « لا » ، ولوحوا لهم بالفضيلة وما يحف بها من أخطار ، ويأخذون فى التباكى على صرح الأخلاق الذى انهار ، ويطالبون الناس بالرجوع إلى العصور الخوالى والتشبه بالأجداد القديسين . وطبيعى أن كثيرا من الناس الذين يخشون تهديدات

الرجعيين يكونون فى حالة من الحساسية العصبية ، ويكونون عرضة للانهيار العصبيى الوشيك .

إن الفرد بالمجتمع الحضارى الذى يجد أن وقته كله وقد صب فى قالب يتكرر كل يوم لهو شخص معرض للانهيار العصبى . انظر إلى الموظف وتابع أربعا وعشرين ساعة من حياته . إنك لا تكاد تجد فارقا بين يوم وآخر ، ولا فرق بين شتاء وصيف إنه لا يكاد يعدل نمط حياته . إن خطوات نشاطه هى هى لا تتغير . وأكثر من هذا فإن مفاهيمه وأفكاره وعاداته الفكرية والوجدانية قد تحجرت بحيث لا يستطيع الاطلاع على جديد أو لا يكاد يعدل من موقفه ولو قيد أنملة . والتحجر الحركى والفكرى والوجدانى من أكثر أسباب الانهيار العصبى أو التهديد بوقوع الانهيار العصبى . فالرتابة فى الحياة الفردية كما هى ملحوظة بالمجتمع الحضارى الحديث تجعل الشخص يحس بضمور حياته ، فهو لا يتطلع إلى آفاق جديدة . وكان الأحرى بالمواطن فى مجتمع متحضر كهذا أن يبحث له عن هواية تشبع ما تتطلبه شخصيته من تجديدات ، فتضحى حياته خصبة مثيرة متجددة .

أحلام اليقظة

الأصل فى الأحلام أنها تحقيق للرغبات التى لم يتسن تحقيقها فى حالة اليقظة . ولكن الشخص قد يسرح فكره فى خيال أشبه ما يكون بالحلم فى أثناء يقظته . فهو يجيل فكره فى معارج الخيال؛ لكى يحقق رغباته التى لا يستطيع تحقيقها فى الواقع الحى إنه يعفى نفسه من بذل المجهود فى الواقع ويتقمص شخصية أخرى هى امتداد لشخصيته لو أنها استمرت فى العمل وفى مواجهة الواقع وبذل الجهد فيه .

بيد أن الشخص المنخرط فى أحلام اليقظة لا يحاول أن يفيق إلى الواقع ، ولا يحاول إحالة الصورة الذهنية الخيالية إلى فعل قائم بالفعل . إنه يبذل الجهد الخيالى مكتفيا به دون بذل الجهد الفعلي الحسى الذى يخرج الفكرة إلى العمل .

والواقع أن أحلام اليقظة فى حد ذاتها ليست نوعا من المرض النفسى . ذلك أن الطفل والكبير ، الذكر والأنثى بحاجة على السواء إلى ممارسة أحلام اليقظة فى بعض المواقف . وكلما كان الواقع موصدا أمام الإنسان ، وحيث لا تسعفنا الوسائل لتحويل ما نود تحقيقه فى واقعنا ، فإننا نسارع إلى أحلام اليقظة نحقق بواسطتها ما نتمناه فالطفل الصغير فى الغابة لا يستطيع أن يخضع العالم من حوله لمقدرته ، ومن ثم فإنه يسارع إلى خياله الخصب يحقق به ما يشاء وهو قابع فى مكانه . إنه يستطيع أن يرسم لنفسه صورا متباينة . إنه يستطيع فى أحلام اليقظة أن يستحيل إلى مارد جبار ، وإلى فارس مغوار ، وإلى ثرى لا نهاية لأمواله ، وإلى قائد جيش يستطيع أن يبيد الأعداء فى لمح البصر ..

والتلميذ الصغير يستطيع أن يقهر مدرسه الذى يضربه كل يوم بالفصل . وذلك بأن يغوص فى لجة أحلام اليقظة . إنه يستطيع أن يجعل من ذلك المدرس القاسى شخصا ضعيفا هزيلا يقوم باستعطافه ، ويصبح هو شخصية قوية جبارة قاسية ، بل يستطيع أن يستحيل هو إلى مدرس بينما يستحيل المدرس نفسه إلى تلميذ بليد ضعيف لا حول له ولا قوة .

وهكذا يحدث أيضا بالنسبة للموظف المظلوم الذى يجد نفسه عاجزا عن مناهضة رئيسه خوف أن يوقع عليه العقوبة الرادعة . إنه لايجد أمامه إذن سوى أحلام اليقظة يستنجد بها ويصب فيها همومه ، أو بالأحرى يتخلص بواسطتها من همومه . هكذا تفعل الأم التى فقدت وحيدها . إنها تستسلم لأحلام اليقظة متخيلة أنه حى بين ذراعيها أو سرعان ما سيعود إلى أحضانها .

بيد أن أحلام اليقظة كثيرا ما تنقلب نقمة على رأس الشخص . وبدلا من أن تزيح ما جثم على صدره من هموم وأشجان ، فإنها تصير سببا فى شقوته وإصابته بصدمة نفسية ، وذلك عندما يفيق إلى حقيقة الواقع . ذلك أنه يجد أن هناك فارقا شاسعا بين الواقع الحى من حوله ، وبين ما ترسم أحلام اليقظة له من صور زائفة غير حقيقية .

والواقع أن الإنسان الحديث بوجه عام وهو إنسان الحضارة قد نما فى ناحية وانكمش فى ناحية أخرى . إنه نما فى الناحية العقلية الخيالية ، ولكنه انكمش فى الناحية الجسمية العضلية . وحيث إن الحضارة البشرية قد عزلت الإنسان عن بيئته الطبيعية وأحاطته ببيئة مصنوعة زائفة ، فإنه يضطر إلى العودة إلى بيئته الأصليه بخياله لا بواقعه . لا شك أن إنسان الحضارة يحس فى قرارة لا شعوره أنه غريب عن هذه الحضارة . إن التربية التى يتلقاها الفرد منذ نعومة الأظفار تقوم بعزله عن الواقع البيئى الحقيقى ، وتحمله على التكيف للبيئة الحضارية . ولقد سبق أن أبنا عن الفروق الشاسعة بل والفروق المتعارضة فيما بين البيئة الطبيعية والبيئة الحضارية ، وقلنا: إن التربية تعمد جاهدة إلى تكييف الطفولة ومن ثم الشباب لهذه البيئة الغريبة عن الطبيعة البشرية والبعد بالإنسان عن البيئة الطبيعية .

ولكن مهما حاولت التربية ، ومهما لقيت من نجاح ، فإنها بلاشك تظل عاجزة عن تغيير الطبيعة البشرية وإحلال طبيعة أخرى حضارية محلها . إن الإنسان سيظل هو الإنسان ، وسيظل من وقت لآخر يعود إلى طبيعته الحقيقية يستلهمها نافضا عن نفسه البيئة الحضارية . لكن حيث إن الحضارة بمؤسساتها تقف للإنسان فى مراحل حياته المختلفه تهدده إن هو جرؤ على خلع رداء البيئة الحضارية عن شخصيته وتلبس برداء البيئة الطبيعية ، فإنه لذلك يظل خانعا لا يستطيع الفكاك من الواقع الحضارى ، ولا يجد أمامه من سبيل إلى هذا الفكاك إلا أحلام يقظته .

إذن نستطيع أن نبرز فى هذا المقام عنصرا آخر جديدًا فى طبيعة أحلام اليقظة . إنه عنصر أنثروبولوجى ، أعنى: عنصرا يرجع إلى تطور الجنس البشرى عبر ملايين السنين . فالإنسان الحضارى لا يعدو أن يكون امتدادًا للإنسان الطبيعى البيولوجى الذى كان يعيش فى أحضان الطبيعة قبل اختراع الحضارة البشرية ، وقبل أن تأسره هذه الحضارة وتجعل منه عبدا مطواعًا لها يخضع لكل ما ترسمه من قواعد ولكل ما تسنه من شرائع وقوانين . إن أحلام اليقظة ليست سوى امتداد للحياة البدائية التى كان يحياها إنسان الطبيعة . فالإنسان الحديث الخاضع للحضارة ، ويرتد من وقت لآخر فى يقظته إلى طبيعته الأصلية الطبيعة ويخلع عن نفسه رداء الحضارة مدة تقصر أو تطول ، فيطلق لنفسه العنان فى تخيل ما يبدو له من أسباب القوة . نعم إن الصور التى يتلبس بها خيال إنسان الحضارة قد لا ترد مباشرة إلى تلك البيئة الطبيعية؛ لبعدها عنه، ولأنه لم يمر بها فعلا فى حياته الشخصية . ولكن طبيعة تلك الخيالات لابد أنها من طبيعة بشرية بعيدة . فالخامة المستخدمة خامة حضارية ، بينما الأداة أو العملية بذاتها وجوهرها هى فى الواقع عملية بعيدة عن حياة الإنسان الحديث . وشاهد ذلك أنك تلاحظ أن عملية الحلم فى أثناء اليقظة لا يمكن أن تكون عملية تكيفية ناجحة للواقع القائم . فمما لا شك فيه أن حلم اليقظة مناهض بطبيعته لما تلقاه الشخص من تربية .

والواقع أن التفسير الحديث لأحلام اليقظة فى بعض حالات الجنون يتم فى ضوء الأصل الطبيعى لحلم اليقظة . فالشخص المجنون الذى يرتمى فى أحضان أحلام اليقظة هو شخص تمادى فى شيء يمارسه الشخص العاقل . فالجنون إن هو إلا مبالغة أو هو صورة مكبرة لما يمارسه الشخص العاقل فى فكره أو فى تصرفاته اليومية . وأحلام اليقظة سلوك ذهنى نصفه بالسوية وبأنه من ممارسات الشخص العاقل تماما. ولكن الوقت الذى يقضيه المجنون فى أحلام

اليقظة وقت طويل ، بل إنه يعيش فى خياله أكثر مما يعيش فى واقعه . ومن ثم فإننا نحس بأن المجنون شخص غريب عنا نحن الأسوياء . إنه شخص خرج عن نطاق الواقع إلى نطاق الزيف أو إلى نطاق الخيال البحت ، أو إن شئت ، فقل: إنه شخص متنكر لعالم الحضارة ، ويلح فى العودة إلى عالم الطبيعة .

والحضارة تعلمنا أن نرتبط بها ارتباطا وثيقا ، وأن نجهز الطبيعة وألا نحجم عن اتباع خطواتها هى ، بل وأن نلتزم بالإطار الذى تضعنا فيه. ولكن أحلام اليقظة تسمح لنا بأن نغافل الحضارة ونفك الإسار الذى قيدنا به وأن نخلع عن أنفسنا القيد الحضارى فنكون بذلك أحرارا غير مقيدين وغير مضطرين للخضوع لما تلزمنا به الحضارة . وخوفنا من الجنون هو الذى يجعلنا نفيق بسرعة من أحلام يقظتنا ووضع القيود الحضارية فى أيدينا طوعا واختيارا فنحن وإن كنا نشتاق جدا إلى حرية الطبيعة فإننا فى نفس الوقت نجد أنفسنا فى لهفة إلى الحضارة نسارع بالتشبث بها . لقد عملت التربية على غرس اتجاه حضارى فى أعماقنا يجذبنا إليه ويطوينا فى نطاقه . وهكذا يجد الإنسان الحديث نفسه مشدودا من جانبين : جانب داخلى طبيعى ، وآخر خارجى حضارى . فإن هو ترك نفسه للجانب الداخلى الطبيعى مهملا الحضارة ، فإنه يصاب بالجنون ، لأنه عندئذ يكون قد تنكر للواقع ، والتنكر للواقع والإغضاء عنه هو الجنون بعينه. وأما إذا هو انجذب إلى الخارج إلى الحضارة مهملا دخيلته وطبيعته الجوهرية ، فانه يصاب بالانهيار العصبى أو على الأقل يحس بأنه شخصية زائفة لا تعبر عن طابعها الحقيقى .

ولعلنا ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى ، ولكنها على كل حال زاوية قريبة من الزاوية السابقة . إن الحضارة بإثقالها على كاهل الإنسان الحديث تصل معه إلى نقطة لا يستطيع عندها أن يتحمل ثقلها . فيكون عندئذ أمام أمر من أمرين : أحدهما أن يفلت بخياله منها بصفة مؤقتة ليعوض عما فاته من رغبات ويعمل

على إشباع نزعاته بالوهم اللذيذ متخذا ما بدا له من صور ومتلبسا بما يرغب فيه من أشكال . فأحلام اليقظة من هذه الزاوية هى إذن علاج نفسانى وليست مظهرا انحرافيا عن الصحة العقلية السليمة . ولعلنا نقول: إن أحلام اليقظة تقى كثيرا من الناس من ارتكاب كثير من الجرائم ، أو من الخروج على القوانين والنظم الاجتماعية؛ ذلك أن أولئك الكثيرين يعمدون إلى الخروج على القوانين والنظم الاجتماعية ، ويعمدون إلى تحطيمها والإتيان عليها تماما بأحلام يقظتهم ومن خلالها . ولكنهم بعد أن يقوموا بهذا الهدم والتحطيم يستيقظون من حلم اليقظة ويعودون إلى عالم الواقع وهم أقل بطشا؛ لأنهم استطاعوا عن طريق الخيال أن ينتقموا أو أن يشبعوا ما يدور بخلدهم من رغبات ممنوعة .

ومما يجعل أحلام اليقظة ذات مكانة هامة فى حياة الفرد من أبناء الجيل الحديث قلة ما يمكن أن يصيبه الفرد العادى من تبريز ومن مكانة مرموقة بالمجتمع . فالأعداد الهائلة بالمجتمعات الحديثة جعلت قيمة الفرد قيمة هزيلة إذا ما قيست بالقيمة الاجتماعية التى كان يحظى بها الإنسان بالمجتمعات البدائية أو حتى بمجتمع القرية الحديثة . ذلك أن المجتمع صغير الحجم يكون لكل فرد فيه قيمة ذاتية هامة ويكون أمامه فرصة للتفوق فى ناحية من نواحى حياته . ولا شك أن هذا مما يسمح لكل عضو بتلك المجتمعات البسيطة بالتفوق والنبوغ .

أضف إلى هذا أن العمل بالمجتمع البسيط كان أكثر تكاملا من العمل بالمجتمع الحديث الحضارى . فلقد كان الشخص الواحد يضطلع بتنفيذ العملية – أية عملية – برمتها ، ولم يكن التخصص قد ظهر على وجه البسيطة . كان الشخص أيضا مخترعا لأعماله ، أو على الأقل كان هو المصمم للعمل الذى يقوم به ، وبهذا كان هو المسيطر والسيد على خطوات العمل . أما اليوم فإنك تجد أن الشخص الحضارى وقد تخصص فى شريحة صغيرة للغاية من عملية كبيرة

معقدة . ولم يعد الشخص هو المصمم لأعماله ، بل صار في الغالب منفذا فقط لما يعمل . وقد لا يكون ملما بتفاصيل العملية ككل ، أو غير واقف على مضمون العلاقات الدقيقة التى تتشابك بدقة ولا يعرفها إلا أشخاص قليلون . أضف إلى هذا أن العقول الألكترونية بدأت تقتحم الميدان وتزيح الناس جانبا لكى تقوم بالتفكير والتخطيط .

ولكن الإنسان هو الإنسان . إنه يريد أن يحقق نفسه ، وأن يلقى اعترافا بوجوده . إنه يحزن فى نفسه ويبتئس؛ لأنه قد صار مغضيا عنه ، وأنه غير ذى قيمة بالمجتمع الحديث . فماذا يفعل إذن ؟ لا بد أن يبحث عن طريقة يحقق بها ذاته ولكن المنافذ جميعا موصدة أمامه . إذن ليس من منفذ إلا خياله . ولابد إذن من الرجوع إلى الداخل . . . إلى أحلام اليقظة ينغمس فيها حيث يصور لنفسه أنه شخصية مرموقة ، وأن الناس يتوقون إلى التطلع إليه والتعرف به . لابد من إشباع كل ما حرم منه فى عالم الواقع عن طريق هذا العالم الداخلى الذى لا يستطيع أحد أن يتدخل فيه أو أن يغلق بابه أمامه . إنه عالمه الخاص به الذى لا يستطيع المجتمع الاستيلاء عليه واستلابه . إذا كان المجتمع قد استطاع مصادرة حريته فى إحراز العظمة بالعالم الخارجى ، فإنه لن يقف مكتوف اليدين عاجزا لحرمانه من العظمة التى يمكنه أن يحكيها لنفسه فى هذا العالم الداخلى .

ولكن اللحظات التى يقتنصها إنسان الحضارة من واقعه ليغوص خلالها فى أحلام يقظته هى فى الواقع لحظات مسروقة من وراء ظهر الحضارة التى تصادر حرية الفرد بقدر الإمكان فى اللجوء إلى عالمه الداخلى . بيد أن هناك أفرادا قليلين استطاعوا أن يعلنوا تحديهم للواقع الخارجى الحضارى وترجيح كفة العالم الداخلى ، وقد بدوا أمام الناس فى حالة من أحلام اليقظة . أولئك الناس فئتان : فئة المجانين ثم فئة الفنانين والفلاسفة والحكماء والشعراء وغيرهم ممن يستلهمون دخائلهم بشجاعة مغضين عن العالم الخارجى أو على الأقل مخضعين العالم الخارجى للعالم الداخلى .

وأمر المجانين معروف وقد سبق أن عرضنا له . ولكن بالنسبة للفنانين والفلاسفة والحكماء والشعراء ، فلابد من القول: إن الفرق بين المجنون والواحد من هؤلاء هو فرق فيما يفعله الواحد من الفئة الأولى والواحد من الفئة الثانية فى أثناء حلم اليقظة وبعده . إن المجنون يستمر فى حلم يقظته ويظل سلبيا فيه . إنه لا ينتج شيئا ، وحتى إذا هو أنتج شيئا فإنه لا يجعله شيئا مقنعا للآخرين ،ولا يحيله إلى حالة حية تفرض نفسها على الواقع الخارجى . أما الواحد من الفئة العاقلة الممتازة فإنه يعيش ويغوص فى عالمه الداخلى لا ليظل غارقا فيه ، بل ليخرج منه باللآلئ النادرة يقدمها إلى العالم الخارجى ، أعنى أنه يعرضها على أولئك الجالسين على شاطىء الواقع . إن العاقل الحكيم أو الفيلسوف أو الفنان أو الشاعر ، يفهم لغة الداخل ولغة الخارج أيضا . فهو يصوغ ما يصل إليه صياغة منطقية أو متفقا عليها اجتماعيا . وبتعبير آخر: فإن الواحد من هذه الفئة العاقلة يلبس الحقيقة الداخلية التى يستشفها أو يكتشفها أثوابا حضارية متمشية مع العصر . إن الفن أو الفلسفة أو الحكمة أو الشعر الذى يصل إليه يكون من جوهر استبطانى حصل عليه فى أحلام يقظته ، ولكنه ألبسه رداء حضاريا مقبولا من جانب الحضارة . . ولو أنه اقتصر على تقديمه فى صيغته التى اكتشفه عليها لحسب إذن ضمن فئه المجانين ولم يحسب ضمن فئة العقلاء النابغين .

ولكن أولئك النابغين قد أوتوا قدرة هائلة على إقناع الناس بما يصلون إليه وهل نستطيع القول: بأن الشخص العادى بالمجتمع الحضارى الحديث يستطيع أن يجعل نفسه ضمن هذه الفئة ؟ بالطبع لا . ذلك أن هذه الفئة الممتازة فئة موهوبة بمواهب لا تتيسر للجميع . وحتى أولئك الأشخاص الممتازين لم يسلموا على مر العصور من الامتهان ومن الحط من قدرهم واتهامهم بالمروق أو الجنون أو الخروج عن الخط المرسوم . ولقد لقى الكثير منهم شتى أنواع العذاب بسبب ما قدموه من أعمال لم يقبلها معاصروهم أبناء الحضارة ، ولإحساسهم بأن ما يقدمه العبقرى لا يتمشى مع مذاقهم ، أو مع ما ألفوه من رأى أو اتجاه .

وأزمة الصحة النفسية تتبدى لدى الشباب الحديث نتيجة الضغوط الحضارية والخوف من التعبير عن أنفسهم التعبير الصادق المعبر عن دخائلهم. ولجوء الشباب إلى أحلام اليقظة يعيشون فيها . لمما يضربهم باليأس والقنوط، أو على الأقل لمما يعبر عن عدم المصالحة بين الداخل النفسى والخارج الاجتماعى . وليت علماء الاجتماع والتربية يبحثون فى هذه النقطة للوقوف على حجم المشكلة من ناحية ، وللوقوف على وسائل تحقيق المصالحة بين العالم الداخلى والعالم الخارجى لدى الشباب الممزق من ناحية أخرى .

العقد النفسية

كان المعتقد السائد حتى عهد فرويد أن هناك انسجاما واتساقا بين معرفة الإنسان وبين سلوكه . فكل ما يصدر عنى من تصرفات إن هو إلا انعكاس لما فى جعبتى الفكرية من معرفة . وهى بالطبع معرفة أدركها عن وعى وشعور كامل. ولكن فرويد أبرز بما لا يدعو إلى الشك أن لدى الشخص الواحد نوعين من المعرفة: معرفة واعية متذكرة ، ومعرفة لا شعورية أو لاواعية منسية . وبهذا أعطى فرويد للمعرفة بعدًا جديدًا هو: بعد النسيان وبعد أن كان النسيان يعنى قبل فرويد: الزوال من الرأس ، صار له بعد فرويد معنى آخر هو : الاختباء عن مدى الإدراك الزمنى الواعى ؛ فليس للنسيان إذن معنى الزوال والتلاشى ، بل له معنى الاختباء أو الانزواء عن البصيرة الذهنية .

ويعزو فرويد جانبا من النسيان إلى أسباب انفعالية وليس إلى أسباب عقلية . فبعض ما ننساه لا يكون بسبب خفوت صوره الذهنية واختفائها من بؤرة التذكر ، بل بسبب عدم رغبتنا فى تذكره . فنسيان التلميذ للواجب الذى كلفته به المدرسة قد يرجع إلى عامل انفعالى هو عدم رغبة الطفل فى عمل الواجب ، ولا يكون سبب النسيان ما أصابه من ضعف فى القدرة على التذكر .

ونحن فى حياتنا اليومية منذ أن فتحنا أعيننا على هذا الكون وعلى آفاق هذا المجتمع نجابه بالممنوعات والمحرمات . وهذا بالطبع شيء ضرورى لاستمرار المجتمع . ولكن ما هو ضرورى للمجتمع قد لا يتواكب مع الصحة النفسية للشخص ؛ ذلك أن الحضارة الإنسانية والصيغ التى يتلبس بها المجتمع البشرى هى حضارة وصيغ مصنوعة ومضافة إضافة إلى السلوك الإنسانى الفطرى . فالمطلوب من الإنسان أن يكيف نفسه لمقتضيات المجتمع ، وأن يفصل سلوكه وفقا لمقياس المجتمع . من هنا فإن هناك صراعا ينشأ بين ما فطر عليه الفرد من غرائز ومقومات طبيعية ، وبين ما يطالب به المجتمع من ألوان سلوكية مناهضة للسلوك الطبيعى المفطور بالجبلة البشرية .

والتربية تكون فاشلة عندما لا تنجح فى تهدئة الصراع القائم فيما بين الطبيعة والحضارة . والواجب على التربية أن تحقق الاتساق فى سلوك الفرد ، وأن تأخذ بيد الطفل فى سلم التطور النفسى والتربوى بحيث لا تجعله فى حالة تصادم بينه وبين المجتمع . وإنك لتجد علماء النفس وعلماء التربية ينادون بوجوب العمل على التسامى بالغرائز المفطورة فينا . وهم يعنون بالتسامى: التنفيس عن المكبوت من الغرائز والرغبات بما يمكن أن يكون بديلا للسلوك الطبيعى الذى كانت تستهدفه الغرائز أصلا وهى فى حالة الفطرة .

أما إذا كانت التربية تقوم بعملية واحدة هى عملية كبت الغرائز الفطرية ولا تعمد إلى إحلال نشاط آخر بديل محل النشاط المكبوت ، فإنها تعمل إذن على نشأة العقد النفسية وعلى جعل الشخص معقدًا وبالتالى فإنه يكون مريضا من الناحية النفسية .

أما التربية التى تهتم بكبح الغرائز الفطرية ولكنها فى إحلال بديل حضارى محل الأصل الفطرى ، فإنها بلا شك تكون تربية قادرة على تدريب

الشخص على عملية القمع Suppression . والقمع يختلف عن الكبت Repression ؛ فالقمع يتصف بالتعويض عن النوازع المقموعة بمناشط اجتماعية تعويضية يمكن أن تحل محل المناشط الفطرية الأصلية .

بيد أن المشكلة أعقد من هذا فى الواقع ؛ ذلك أن المجتمع الحضارى - أى مجتمع - ليس مجتمعا بسيطا ، وليست مطالبه من الفرد واحدة متسقة ، بل هى كثيرة ومتضاربة فى كثير من الأحيان . فالشخص فى جميع مواقف حياته يجد أنه مشدود إلى أطراف كثيرة متباينة . وواقع الأمر أننا نعيش فى ظل مجتمعات كثيرة وليس فى ظل مجتمع واحد . وأكثر من هذا فإن وسائل الاتصال الحديثة جعلت أبناء الحضارة بإزاء مجتمعات كثيرة تظلهم وتجذبهم ، وتلك المجتمعات ليست موجودة اليوم فقط ، بل إنها مجتمعات مكانية وزمانية فى نفس الوقت. فالمجتمعات البعيدة عنا مكانا وزمانا تؤثر فينا وتطالبنا باتباع خطواتها. ولكنها مجتمعات متناقضة وليست متسقة . ومن ثم فإن تناقضاتها وتصارعاتها تنعكس على حياة الأفراد . فالشخص يجد نفسه فى حيرة . إنه يجد أمامه بدائل كثيرة ، بل يجد أمامه متناقضات كثيرة ، وعليه أن يختار . ولكن كيف يختار ؟ إنه قد يكون لنفسه فلسفة ويشق طريقه فى الحياة مستهديا بها ، ولكنه فى كثير من الأحيان قد يجد أنه فى حيرة بل ويجد أنه هو نفسه فى تصارع مع نفسه . لعله يتناقض مع نفسه ؛ إذ يحشد فى عقله فلسفات متناقضة لا تشكل وحدة متسقة . ولعل تلك الفلسفات المتعارضة والمتصارعة تأخذ فى التشاحن بداخله وتتركه أشلاء مهلهلة ، إذ لا يستطيع التنسيق فيما بينها .

ولقد يتحمس الفرد لبعض القيم الأخلاقية ويؤمن بها . ولكن هل إيمانه بتلك المثل يكفل له بالتأكيد القضاء على ما جبل عليه من غرائز ؟ إن هذا لمما يشك فيه . نعم إن القيم الأخلاقية قد تشكل فى حياة الفرد ما يمكن أن يكون طبيعة ثانية فيه . ولكن هذه الطبيعة الثانية لا تستطيع أن تقضى على الطبيعة

الأولى الأصلية . ومن ثم توجد طبيعتان فى الشخصية الواحدة . وبالتالى يحدث الصراع بين الطبيعة المفطورة وبين الطبيعة القيمية الحضارية .

ومما يساعد على اشتعال الصراع بين الطبيعة المفطورة وبين القيم المكتسبة تصارع القيم ذاتها فيما بينها . إنك لا تستطيع أن تجد موقفا ثابتا وموحدا بإزاء أية قاعدة سلوكية. خذ مثالا لذلك موقف الشاب من الشابة . هناك من يقول: إن مجرد إقامة صداقة بينهما خطر ورديء ويجب القضاء عليه ، ويجب إقامة فاصل متين بين الجنسين . وهناك من يسمح بالصداقة فى حدود الرسميات ، وهناك من يطلق العنان للصداقة بين الجنسين إلى حدود بعيدة أو قريبة . وهناك مواقف متعددة ومتصارعة بإزاء كل مسألة من مسائل الحياة. ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نعثر على قاعدة بسيطة واحدة يمكن أن يتبعها الشاب أو الشابة . لابد إذن من الصراع .

والصراع على هذا النحو الذى بيناه هو ما يطلق عليه علماء التحليل النفسى اسم العقد النفسية . فالعقدة النفسية هى موقف مضطرب لا شعورى بإزاء حالة أو سلوك أو فكرة أو عاطفة .

والواقع أن المجتمع الحضارى الحديث برغم تراكبه وتعقده ودقة مؤسساته وتقدميته الظاهرة فى الجانب المادى ، فإنه يسير وقد وضعت عصابة على عينيه بحيث لا يستطيع استبانة طريقه الذى يتجه إليه . إنه لا يشكل لنفسه فلسفة واضحة ، ولا يعرف ماذا يريد من هذا الوجود . لقد كانت المجتمعات القديمة والبدائية بمثابة كائن عضوى يستبين طريقه بوضوح ، إن الرؤية أمامه كانت جلية ولم يكن بحاجة إلى فلسفة تسانده فى إضاءة معالم الطريق . لقد كان همه الأول منحصرا فى كيانه البيولوجى الذى يريد أن يذود عنه ويحمى حماه . كان العدو الأول والوحيد أمامه هو الطبيعة ، ولم تكن الجماعات البشرية

مناهضة بعضها لبعض إلا فى النادر ، وذلك لاتساع رقعة الأرض ، ولكثرة الخيرات الزراعية والحيوانية التى كانت تستقبل الإنسان وتقدم إليه ما هو بحاجة إليه وعليه المزيد . لقد كان الخير موفورا وفائضا على المطلوب بكثير. وبهذا لم تكن ثمة حاجة إلى التصارع على الأرض . كان الصراع ينشأ لأسباب أخرى . كان الجنس أحد أسباب النزاع . كانت القبائل يغير بعضها على بعض؛ لاقتناص النساء والاستحواذ عليهن من دون القبيلة الأخرى . وكانت بعض القبائل تحب أكل لحم أناسى القبائل الأخرى الغريبة عنها .

ومهما كان حال المجتمعات القديمة ، فمما لا شك فيه أنها كانت مجتمعات بسيطة فى مطالبها من الفرد . وأكثر من هذا فإن الثنائية القائمة الآن بين الفرد والمجتمع لم تكن موجودة فى تلك المجتمعات . كان الفرد يشكل جزءا لا يتجزأ من المجتمع لقد كان الأفراد متقمصين للمجتمع ولا يجدون تناقضا بين مطالبهم الفردية وبين مطلبه الكلى ، ذلك لأن المجتمع لم يكن مركبا بل كان بسيطا ولم تكن به أجهزة حضارية تتنازع الأفراد ، بل كان الفرد يقوم بالعمل بشكل متكامل وكانت علاقاته تستوعب المجتمع بأسره .

وإذا نحن تناولنا المجتمع ككل ، فإننا نجد تباينا واضحا بين المجتمع الحضارى وبين المجتمع البدائى ؛ ذلك أن المجتمع البدائى كان سليما من الناحية النفسية ولم يكن مصابا بالعقد النفسية التى نجدها متجلية فى حياة وسلوك المجتمع الحضارى الحديث . والمجتمع الحديث غير راض عن نفسه ، وقد احتشدت فيه القيم المتصارعة والاتجاهات المتضاربة ، كما أنه كثيرا ما ينافق المجتمعات الأخرى ويسالمها على غير وُدٍّ يكنه لها . إنه يتعامل معها على أساس من المصالح المادية المتبادلة وليس على أساس ما يحسه نحوها بالفعل من مشاعر وحب . وأكثر من هذا فإنه يحس بالتفكك أو بالتصارع يعتمل فى أوصاله ويحس بالتمزق يضرب بأطنابه فى أنحائه المتباينة نتيجة ما يعانيه من عقد

نفسية . ذلك أنه لم يستطع تحقيق السعادة لأفراده ، كما أنه يحس بالخطر يتهدده من كل جانب ، بل ويحس بالأخطار المحدقة به من الطبيعة من جهة ، ومن المجتمعات الأخرى من جهة أخرى ، وهو عاجز عن مجابهة الواقع بموقف متسم بالاتساق والانسجام .

وعلى الرغم من تقدم علوم النفس وخروج الكتب النفسية من المطابع كل يوم ، وعلى الرغم من إجراء التجارب الكثيرة على الحيوان والإنسان فيما يتعلق بالنوازع النفسية وعلى الرغم من الحقائق السيكلوجية الكثيرة المكتشفة بإزاء الصحة النفسية ، فمما لا شك فيه أن الحياة النفسية فى تدهور مستمر ، كما أن الرعاية النفسية متخلفة كأشد ما يكون التخلف . ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن المجتمعات البدائية كانت أفضل من مجتمعاتنا الحديثة فى الرعاية النفسية لأبنائها . نعم إنها كانت رعاية نفسية غريزية ، ولم تكن رعاية قائمة على أساس من علم النفس بالمعنى المعروفى التجريبى الدقيق الذى يعتمد على تكنيك واضح فى العلاج النفسى . والواقع أن المرض النفسى لم يكن منتشرا بالمجتمعات البدائية ، أو لم يكن موجودا على الإطلاق ؛ لأن تلك المجتمعات كانت تقوم بما يشبه الطب النفسانى الوقائى ، عن طريق نمط الحياة الذى كان سائدا . وكانت فرص التعبير عن الذات وعن خلجات النفس المتاحة أمام الفرد متوافرة تماما على عكس إنسان العصر الحديث الذى ترسم له كل تفاصيل حياته ، وقد دخلت الصنعة فى حياته وأخذت تسيطر عليها .

ومشكلة المجتمع الحضارى فى الواقع تتركز فى ترجيح كفة القيم الأخلاقية على القيم النفسية . إننا نهتم أكثر ما نهتم بأن يكون الشباب على خلق عظيم ، وآخر ما نهتم به أن يكون شبابنا على جانب كبير من الصحة النفسية السليمة . لا يهمنا إن كان سلوك الشاب والشابة صادرا عن نفسية سليمة أو عن نفسية سقيمة . المهم عندنا أن يكون السلوك الصادر عنهما متطابقا مع ترسّم فى

أذهاننا من طرائق سلوكية سليمة ، المهم هو الفضيلة وليس الخلو من العقد النفسية . هذا بالطبع قد ينتهى إلى زيف الشخصية. كان الواجب علينا أن نطالب بأن يكون الشباب سليما نفسيا ، وأن يكون السلوك الأخلاقى ثمرة لما يتمتع به من صحة نفسية قوية . أما أن نقتصر على شكلية السلوك ونقنع بهذا دون إلقاء البال إلى الصحة النفسية ، فمعناه: أننا نهتم بالمظهر دون الجوهر وأننا نهتم بالقشور دون اللب . وليس بمستغرب إذن أن نجد المرض النفسى والعقد النفسية تسرى فى نفوس شبابنا ونحن فى غفلة؛ لأننا قابعون فى مسوح الفضيلة ساهون عن أثواب الصحة النفسية التى تقى شبابنا من العقد النفسية ومن التدهور النفسى .

الخوف والقلق

الخوف ظاهرة طبيعية وسوية ولا تنم على أى مرض نفسى أو على أى انحراف فى الشخصية مادام هناك أسباب معقولة لما يبديه الشخص من مخاوف، ومادام القدر الذى يبديه من الخوف يتناسب مع حجم المثير للخوف. ولكن إذا لم يجد له ما يبرره ، وإذا كان خوفا بالغا من أشياء لم يكن لها أن تخيف على هذا النحو وبتلك الكمية ، فإنه يكون إذن جديرا بأن يثار حوله تساؤل وارتياب .

والخوف فى حد ذاته ليس شيئا رديئا يجب القضاء عليه ، أو يجب الاستغناء عنه تماما فى مجال التربية أو فى المجالات الاجتماعية العادية . فهناك بلا شك كثير من الأشخاص قد حماهم الخوف من التردى فى براثن الجريمة ، كما أن الخوف عمل أيضا على حماية ممتلكات الآخرين من المغيرين عليها من الأفراد والجماعات .

وللخوف بعدان : بعد محسوس وآخر رمزى . والإنسان أقدر من الحيوان على أن يخاف من الأشياء الرمزية . وأكثر من هذا فإن الإنسان أقدر على تفهم مصادر الخوف والتحكم فيها، وبالتالى يكون قادرا على تقليل خوفه منها مادام يستطيع تفهم أسباب الخوف : ذلك أن الجانب الانفعالى لدى الإنسان يخضع – إلى حد ما – للقطاع المعرفى . وليس بغريب أن يعمد فرويد إلى محاولة تبصير المريض النفسى بأسباب مخاوفه . وهو يعتقد أن وقف المريض على مصادر الخوف التى تعتمل فى أعماقه بطريقة لا شعورية لجدير بملاشاة الخوف منه أو على الأقل التخفيف من حدته وتشذيبه .

وفى الحالات التى يزداد فيها الخوف ويعم أنحاء الشخصية ويشمل حياة الشخص ، فإنه يكون عندئذ شخصية تافهة جبانة لا يستطيع مجابهة الواقع أو التصدى له . ولقد سبق أن قلنا: إن الحضارة بكثرة مساندتها للأطفال والشباب وللإنسان الحديث بوجه عام قد انتهت فى الواقع عن غير قصد من جانبها إلى خلق شخصيات غثة هشة لا تستطيع التصدى لمصادر العدوان فى الطبيعة بل ولعدوان الإنسان الآخر سواء كان أفرادًا أو جماعات .

وعلى الرغم من أن حديثنا ينصب على الخوف ، فالواجب ألا يخطر ببالنا أن الخوف مرض أو أنه شىء يترسب بالشخصية . إنه حالة محدودة بحدود موقف بالذات . ومن هنا فإنك لا تستطيع أن تجد شخصا يخاف من كل شىء ، كما أنك تستطيع أن تعثر على شخص لا يخاف من أى شىء، فنحن نخاف فى المواقف التى لم تتدرب على مجابهة مقوماتها إننا نخاف فى حضرة العناصر الجديدة . ولكننا بعد أن نعتاد الموقف ، فإننا نضحى شجعانا فى مقابل تلك العناصر التى كنا نخشاها .

وإذا أردنا أن نعلم إنسانا عدم الخوف أو بتعبير أفضل تعليمه الشجاعة ؛ فعلينا أن نحدد العناصر التى يخشاها فى الموقف ، وبعد ذلك علينا أن نبدأ فى تدريبه على الألفة بها واعتياد مشاهدتها أو سماعها . وهناك بعض المجندين الجدد يخافون من صوت المدافع ولكنهم ما يفتأون بعد فترة وجيزة من تجنيدهم أن يألفوا الاستماع أصوات المفرقعات ويبدأون فى الضحك من أولئك الذين يبدون أى خوف من تلك الأصوات .

والواقع أن التربية التى تعمد إلى الحماية منذ نعومة الأظفار لهى أكبر عامل على إشاعة المخاوف وتمكينها من نفوس أطفالنا وشبابنا ورجالنا . والأجدر بالتربية أن تجعل المواطن الصغير فى مجابهة المواقف الجديدة باستمرار ، وأن تتركه يعالج المواقف الجديدة بنفسه ؛ حتى تستطيع أن تغرس فى نفسه حب المغامرة وحب خوض المواقف الجديدة ذلك أن الخوف فى حد ذاته منفر ، ولكن التغلب على الخوف عنصر محبب إلى النفس . فنحن نفرح بعد أن نتغلب على ما كنا نخاف منه . والتغلب على أحد المخاوف يؤدى حتما إلى تغلب جديد على مخاوف جديدة . وفى النهاية نصبح أشخاصا على جانب كبير من الشجاعة ، وتكون هوايتنا هى مجابهة الأخطار وما تتضمنه من مخاوف موهومة .

ولا شك أن الإنسان البدائى وإنسان المجتمعات القديمة كانا أقدر من إنسان الحضارة فى التغلب على المخاوف؛ لقد كان الأساس فى الحياة وقتئذ مجابهة الواقع ، ولم يكن المجتمع يغلف حياة الفرد كما يفعل اليوم . كانت المبادرات الفردية متوافرة أمام كل فرد، ولم تكن خطوات الإنسان مرسومة بدقة كما هى مرسومة اليوم . ولكن الحضارة وصلت إلى الحلول التى تراها صالحة ، وما على الأفراد إلا أن يطبقوا . وأكثر من هذا فإن الحضارة كثيرًا ما تحارب الابتكار بالنسبة للأفراد العاديين ، وتؤمن بنقل التراث بما يتضمنه من عادات

وتقاليد إلى الأجيال التالية . وهى تخاف من الجديد . إنها تريد الإبقاء على القديم باستمرار ، وأكثر من هذا فإن بالحضارة من يحاولون جذب الحاضر إلى الماضى وذلك بتقديس الممارسات العتيقة .

ولقد انتقل الخوف من الأشياء إلى الممارسات التقليدية . فبعد أن كان الانسان البدائى والانسان القديم يخشيان الأشياء فى الطبيعة ، أعنى: المواقف الجديدة ، فإنه فى حياة الحضارة أصبح يخاف من الفشل فى تطبيق ما رسمته له العلوم الحضارية أو الخوف من نسيان ما تم تلقينه له من معلومات وفنون يجب العمل على تطبيقها بإزاء الطبيعة . ومعنى هذا: أن الخوف صار خوفا من الانحراف عن الخط المرسوم من قبل .

وعندما لانكون على وعى بأننا خائفون ، وعندما تكون مخاوفنا مستخفية عنا ، وعاملة بنشاط وحيوية فى أعماق لا شعورنا - بينما ونحن فى حالة الشعور لا ندرى شيئا عنها - فإننا نطلق على تلك المخاوف اللاشعورية اسم القلق anxiety .

وتبدأ المخاوف اللاشعورية لدى الإنسان الحديث مشكلة القلق لديه منذ بواكير حياته . فنحن كما قلنا نبدأ فى ضرب سياج من التحريم على الطفل منذ ميلاده ، ونظل على هذه الحال طوال حياته . وأول إحباط يصيب الطفل يكون بتقييد حركته وبإلباسه الملابس . لقد نسى فرويد هذا ورد أول إحباط يصيب الطفل إلى الناحية الجنسية . ولكن الواقع أن الإنسان كائن بيولوجى أساسا . ونحن المجتمع الإنسانى نحيله إلى كائن اجتماعى . وأول سبيل أمامنا هو تقميط الطفل ومنعه من الطبيعة التى هو ابنها . إننا بالحضارة نحجز ما بين هذا الوليد وبين مجابهة العوامل الطبيعية بحجة أننا نحافظ عليه . ولكننا لا نستطيع أن نفعل غير ذلك ، إذ إن الوليد اليوم لا يستطيع بالفعل أن يجابه العوامل الطبيعية

بنجاح . فلا شك أن للعوامل الوراثية أثرًا فى جعل ابن الحضارة هشا ضعيفا لا يستطيع مقاومة البرد والحر.

ولعل الطفل الوليد يجد فى هذا الموقف الأسرى سببا للصراع فى داخله ولكنه ليس صراعا بالمعنى الواعى المعروف أو حتى بالمعنى اللاشعورى الذى يريده فرويد ، بل إن كيانه البيولوجى يتصارع فى هذا الموقف . فهو بطبيعته يريد أن يتجه إلى الطبيعة ، ويلقى بنفسه فى أحضانها يتصدى لها ويتحداها وتتحداه ، ولكنه فى نفس الوقت لا يستطيع ذلك؛ لأنه كائن غث لأنه ضعيف البنية . فهو إذن مضطر للتسليم بالأمر الواقع ، ويضع تلك القيود فى يديه مستسلما لما يطوعه له الكبار ويحملونه على ارتدائه .

ولكن المسألة لا تقف عند هذا الحد ، إن هذا أول المطاف . فالضغوط الأسرية وقطع الوشائج بالطبيعة تستمر . فالحضارة طبيعة ثانية ، أو هى كائن مفترس يقوم بالتهام ما ظل متبقيا من أشلاء الطبيعة بعد أن ظلت تأكل فيها وتنهش عبر الآلاف من السنين . فلا شك أن كل المقومات التربوية من جسمية، ووجدانية ، وعقلية، واجتماعية، ولغوية لهى عوامل ومقومات غير فطرية . إنها مقومات حضارية ، وبالتالى فإنها مقومات غير طبيعية . ومن ثم فإن الطبيعة تتقلص فى الطفل بينما تترعرع الحضارة لديه .

بيد أن إحساس الطفل بأن الحضارة تعمل على مسخ طبيعته ، يصيبه الإحساس بالخوف الغامض . ومن ثم تنشأ لديه ألوان القلق المختلفة . ومما يزيد من قوة الحضارة وبالتالى قدرتها على إشاعة القلق فى نفسية الطفل ، تذرعها بالرموز؛ لكى تحل محل الحقيقة ولقد يظن البعض أن الرمز أقل قوة وفاعلية من الأصل . إن هذا الظن غير صحيح . فالرمز قد يكون أقوى من الأصل وأشد فاعلية منه . ذلك أن الحضارة قادرة على التكثيف والتركيز . إنها تستطيع أن تقوم

بعملية التلخيص والانتقاء من بين عناصر كثيرة . أضف إلى هذا عاملا آخر تستخدمه الحضارة هو عامل التراكم . فهى تستطيع - بل وتعمد بالفعل - إلى توريث التراث الذى فيه كثير من القيود ، بل وكثير من عوامل التخويف والتهويل . ألسنا نخاف من لعنة الفراعنة حتى الآن ؟ وأين هم الفراعنة ؟ ألم يموتوا ؟ ولكننا توارثنا الخوف من هتك حرمات قبورهم؛ خوف أن تلحق بنا لعنتهم .

ومما يزيد من قلق الشباب الحضارى أن الحضارة تبصر الإنسان الحديث بالماضى وتنبئه بما سيأتى به المستقبل . والقدرة على تصفح الماضى والتطلع إلى المستقبل لمما يجعل الإنسان مرهف الحس متوجسا من حاضره إذا ما قاسه بالماضى ، ومتخوفا على مستقبله فى ضوء وقوفه على ملابسات الحاضر . ولمما يزيد من قلق الشباب الحديث أن الدراسات الاجتماعية والاقتصادية الحالية تنحو إلى التشاؤم مما سيأتى به المستقبل . فالدراسات السكانية مثلا وماترتبط به من دراسات اقتصادية تشير إلى خطورة الانفجار السكانى . وكذا تشير الدراسات المتعلقة بمشكلة تلوث البيئة . إن هذه الدراسات الأخيرة تشير بتشاؤم وتخوف إلى تلوث المياه والقشرة الأرضية بل والغلاف الجوى مما يهدد بفناء الإنسان خلال مئات السنين القادمة . وتشير أيضا الدراسات إلى التخوف من استخدام مادة د. د. تى فى مقاومة الآفات الزراعية ، إذ إن السم الذى يقتل الديدان الزراعية يعمل فى المدى الطويل على قتل الإنسان نفسه .

وتشير أيضا الدراسات حول الحروب إلى أن حجم الحرب العالمية القادمة - إذا كان مقدرًا أن تنشب - سيكون حجما مهولا . وأن ما سوف تخلفه من دمار أو من أسقام لمما يفوق التصور أو الحصر أو حتى التنبؤ . والويل لمن يستمر على قيد الحياة بعدها . فالموت خلال تلك الحرب المشئومة سيكون بلا شك أخف وطأة من البقاء على قيد الحياة بعدها . ذلك أن التشوهات التى ستصيب الأحياء . والقحط الذى سيصيب الأرض ، والانقراض الذى سيهدد كثيرًا من

الكائنات التى يعتمد عليها الإنسان فى غذائه ، والغلاف الجوى الملوث والمياه التى ستكون عفنة أو مصابة بالتلوثات الإشعاعية وغير ذلك من عوامل رديئة سيكون لها أبشع الأثر فى حياة الانسان الذى لم تفتك به الحرب بالفعل .

وعلى الرغم من أن الحضارة الحديثة وما تزخر به من علوم ووسائل تنبؤية تعمل باستمرار على حشد وجدانه بالمخاوف الشعورية واللاشعورية ، فإنها فى نفس الوقت تحول بينه وبين التعبير عما يحس به من مخاوف .لقد كان الإنسان البدائى قادرا على الصراخ والصياح والقفز وإبداء كل ما يختلج لديه من مشاعر بالطريقة التى يراها فى التو واللحظة بغير أن يجيل بصيرته فى الموقف. ولكن إنسان الحضارة لا يفعل نفس الشيء ، إنه يفكر فى همومه ، ولا ينفس عنها. إنه بحاجة إلى طبيب نفسانى يساعده على إخراج المختزن فى أعماقه إلى سطح شعوره ، ونستطيع القول بأن الإنسان البدائى كان يجعل كل ما يصل إلى عمق نفسه على سطح نفسه ، وكأن كان مرآه تعكس فى التو واللحظة كل الأشعة التى تصل إليها . أما إنسان الحضارة فإنه يختزن وينتفخ بالمخاوف ولا يسمح لنفسه بالتعبير عما يحس به .

والسبب كما قلنا يتمركز فى الصيغة الأخلاقية التى يراد من إنسان الحضارة أن يصب نفسه وفقها . والصيغة المطلوبة منه أن يكون بادى الهدوء حتى ولو كان ثائرا بداخله ، وأن يكون بادى الشجاعة حتى وإن كان مرتجفا مهتزا بداخله، وأن يكون مبتسما سعيد المحيا حتى وإن كان شقيا باكيا فى قلبه وقانطا يجد الدنيا أمامه موصدة الأبواب. وليس بغريب أن تنعت الحضارة بالنفاق . فنحن لا نعلم أطفالنا أن يكونوا كما هم فى الواقع ، بل كما نريدهم عليه. إنهم يجب أن يقولوا لنا: إنهم سعداء بطرائقنا التى رسمناها لهم . يجب أن يعترفوا لنا نحن الكبار بأننا نفهم كل شيء ، وأنهم لا يفهمون كما نفهم ، وأنهم لا يستطيعون التفكير على النحو الصحيح إلا إذا ساروا فى هدى تفكيرنا .

ولا يقتصر الأمر على الطفولة ، بل ينسحب على جميع المستويات العمرية، بل وعلى جميع المستويات الوظيفية . فهناك كبار باستمرار وهناك صغار باستمرار . فطفولة إنسان الحضارة لا تنتهى . ألسنا نجعل إنسان الحضارة « عيلا » لأكثر من نصف عمره . ألا يقال للشاب بعد تسلم وظيفته أو عمله فى الحياة « إنك ستظل صغيرا تتلقى الخبرات الجديدة طوال حياتك؟ » ألسنا نجعل منه دمية صغيرة يعبث بها الكبار ؟ وهل هناك نهاية للصغر أو للكبر ؟ سيظل هناك كبار بالمجتمع وسيظل هناك صغار. المهم أن إنسان الحضارة يرتكن إلى غيره دائما . إنه لا يستطيع الاعتماد على رأيه الشخصى وحده . لابد من الاعتماد على رأى مساند لرأيه . وهكذا نجد أن الكبار – أيا كانوا – يبثون الجزع فى قلوب الصغار؛ حتى لا يجرؤوا على التفكير لأنفسهم أو التصرف بوحى من دخائلهم .

وشباب هذا شأنه لا يكون مكتملا نفسيا ، أو متكاملا وجدانيا واجتماعيا؛ ذلك أنه يعيش بوجهين : وجه يبدو فيه أمام الناس منسجما متحفزا للتكيف الاجتماعى ووجه آخر حقيقى وهو وجه عابس مبتئس . ولعنا نلخص خوف ابن الحضارة بأنه الخوف من فقدان طبيعته البشرية الأصلية ، والتلبس بمظهرية الحضارة الخاوية التى لا تورثه إلا الشقوة والاصطناع والضياع .

الوساوس والأعمال القهرية

الوساوس عبارة عن فكرة مسيطرة على ذهن الشخص بحيث تفرض نفسها عليه وتقسره على إمعان الفكر فيها والانحصار فى حدودها ولا يتجاوزها إلى سواها من أفكار. ولقد يتمثل الوسواس فى نغمة أو أغنية يكون قد سمعها فأخذت تمر فى عقله كأنها شريط متكرر أبدا بغير تقطع أو توقف . والمصاب بالوسواس يضجر من وسواسه ويتبرم به كل تبرم ويضيق ذرعا بسبب إلحاحه على ذهنه . والواقع أن الوسواس قد لا يتعلق بموضوع له أهمية أو بنغمة ذات مستوى رفيع ،

بل إنه قد يتشكل من فكرة سطحية ساذجة ومن نغمة مبتذلة تافهة . وقد يتعلق الوسواس بإحساس وجدانى تجاه أحد الأشخاص أو تجاه مكان ما من الأمكنة أو تجاه عمل ما من الأعمال أو موقف ما من المواقف . فلقد يتعلق الوسواس مثلا بالامتحانات فى عقلية الطالب ، فيفرض عليه فكرة ، هى أنه سوف يمرض أو يتوقف فكره إذا ما دخل قاعة الامتحان .

والوسواس لا يكون مجرد فكرة موضوعية يتخذ الموسوس موقفا غير مبال منها وموقف غير متقد الوجدان بإزائها؛ بل هى فكرة مصحوبة بشحنة وجدانية غير مواتية؛ إذ يحس الشخص بالتبرم الشديد أو بالإحساس بالذنب؛ ذلك أن الوسواس يتعلق فى بعض الأحيان بأشياء لها قدسيتها فى نظر الشخص مما يجعله يتهم نفسه بأنه صار من الكفار ؛ فلقد تسيطر على ذهن الموسوس فكرة إلحادية أو فكرة تحط من شأن أحد القديسين الذين دأب على تقديسهم أو إنزالهم منزلة رفيعة . وفى مثل هذا الموقف يأخذ الشخص المصاب بالوسواس فى بذل الجهود النفسية والعقلية بل والدينية لاستبعاد الفكرة الخبيثة عن ذهنه ، ولكن بغير جدوى . فكلما ألح على إبعادها عن فكره والانشغال عنها بفكرات سواها ، فإنه يجد أنها تشتد وطأة عليه وتأخذ به كل مأخذ ولا تتيح له أى منفذ ينفذ منه إلى أفكار أخرى مناهضة تأتى على الفكرة الوسواسية الملمة به والمتملكة على ناصية فكره ووجدانه .

ومن الواجب أن نضع خطا فاصلا بشكل قاطع بين الوسواس وبين العادات الفكرية . ذلك أن العادات العقلية تتعلق بطريقة معينة فى ممارسة النشاط الفكرى. فأنت مثلا قد تكون تحليليا فى تفكيرك ، كما قد تكون تركيبيا . فإذا كنت قد تمرست بعادة التحليل العقلى ، فإنك تنحو إذن وبصفة مستمرة إلى تقسيم الفكرة إلى أفكار جزئية بحيث تحاول الوصول دائما إلى أدق الفكرات الجزئية التى تتشكل منها أفكار كبيرة مركبة . وعلى نقيض ذلك إذا كنت من التركيبيين

الذين اعتادوا التركيب بدلا من التحليل وقد تمرست بعادة التركيب الفكرى فإنك إذن تعمد باستمرار إلى تركيب أفكار كبيرة من الأفكار الجزئية . ولقد نستطيع أن نقسم جميع المفكرين إلى تحليليين وتركيبيين ، والواحد من التحليليين أو التركيبيين يكون قد تمرس منذ نعومة الأظفار بعادة التحليل أو بعادة التركيب . والمفكر التحليلى يتناول موضوعا كبيرا ويأخذ فى تشريحه كما يفعل عالم التشريح بإزاء جثة كاملة واقعة أمامه ، أو كما يفعل المحلل الكيميائى بإزاء حجر ما من الأحجار يحاول الوقوف على مقوماته الكيميائية الدقيقة ، أو كما يفعل العالم اللغوى بإزاء اللغة التى يقوم بدراستها فيعمد إلى تحليل أصواتها أو مقوماتها . أما المفكر التركيبى فإنه يجمع الكثير من الشذرات ثم يقوم بالتنسيق فيما بينها لكى يستخرج منها كلا جديدا متكاملا . ولكن الوسواس لا يتصل بالتمرس الاعتيادى بطريقة معينة فى التفكير بل هو قدر مفاجئ يصاب به بعض الناس . فالشخص الذى تستلب فكره نغمة تكون قد وصلت إلى سمعه لا يكون بالفعل قد مرن نفسه عليها ، والشخص الذى تجثم على ذهنه فكرة إلحادية قد يكون متدينا جدا ولم يمرس عقله بالإلحاد ولا يكون قد قرأ كتابا واحدا من كتب الملحدين . فالوسواس مباين للعادة كل التباين ومفارق لها ، بل ومناف لكل المسالك التى تأخذها العادة العقلية وهى بصدد التكوين والتبلور فى ذهن الشخص .

وإذا كان هذا هو حال الوسواس ، فماذا يقال إذن عن العمل القهرى ؟ إنه وسواس لا يظل حبيس الفكر والوجدان ، بل يخرج من حدود الداخل إلى الخارج السلوكى . فيمكن تعريف العمل القهرى إذن بأنه وسواس يعتمل فى دخيلة الشخص ولكنه فى نفس الوقت يجد له صدى فى سلوكه الخارجى . فقد يجد أحد الشبان نفسه مضطرا إلى عد أعمدة التليفون أثناء سفره بالقطار ، أو قد تجد إحدى الشابات نفسها مضطرة إلى قراءة كل اللافتات المعلقة فوق المحلات التجارية ، أو قد تسيطر فكرة على أحد الشبان بأنه لابد أن يقوم بتمزيق صورة من صور

القديسين أو من صور الأقرباء المباشرين (الأب أو الأم مثلا) أو الاضطرار إلى الاستمرار فى غسل اليدين أو حتى دعكها بالفرشاة حقى لقد تحدث بها تسلخات خطيرة .

وهناك عدة تفسيرات للحالات الوسواسية والأعمال القهرية ، وهى الحالات التى يدرجها علماء الصحة النفسية فى كثير من كتاباتهم تحت فئة واحدة . فهناك أولا التفسيرات الفسيولوجية . فهناك من يقولون: إن المخ البشرى شأنه شأن أى جهاز يمكن أن يتعب ويمكن أن يشتد به التعب بحيث لا يستطيع أن يسترد الحالة التى كان عليها قبل الإصابه بالتعب ، وفى ضوء هذا الافتراض فلا يعدو الوسواس أو العمل القهرى أن يكون سوى مظهر من مظاهر التعب التى يتعرض لها مخ الشخص المصاب بها . ومعنى هذا : أن الوسواس أو العمل القهرى إذا ما ألم بالشخص لبضع لحظات أو لساعات قليلة ، فيكون معنى هذا: أن ذلك الشخص يكون قد أرهق مخه بكثرة التفكير أو لتعرضه لصدمة عقلية يكون المخ قد فكر بطريقتين متعارضتين فى وقت واحد أو عندما يرتبط التفكير بانفعال شديد ، أو عندما يأخذ التأمل بالشخص كل مأخذ لمدة طويلة وبعمق شديد .

ولكن هناك أيضا من يقولون: إن المخ يمكن أن يتعرض للإصابة بمرض ما من الأمراض أو لتلف أو للإصابة ببعض الأورام أو بما ينتج من أعراض مستمرة بعد الإصابة بالحمى أو أثناء ذلك . ففى ظل تلك الحالات يمكن أن يتعرض الشخص للإصابة بالوساوس والأعمال القهرية . ويكون هذا المرض العصابى نتيجة لازمة لما أصاب المخ من تلف موضعى أو عام . ففى مثل تلك الحالات لا يكون الوسواس أو العمل القهرى مرضا عصابيا بل يكون مرضا عصبيا. والمرض العصابى يكون مرضا وظيفيا لا يرتبط ارتباطا مباشرا بالجانب العضوى الفسيولوجى ، بينما يرتبط المرض العصبى بإصابة مباشرة فى المخ يمكن تحديدها أو الاستدلال عليها بالوسائل العلمية العضوية.

وفى بعض الحالات يكون المرض الوسواسى أو القهرى بمثابة انعكاس لما أصيب به الشخص من اضطراب فى الاتزان الهورمونى . فمن المعلوم أن للهورمونات التى تفرزها الغدد الصم صلة كبيرة بالأحاسيس الوجدانية التى يتقلب عليها الشخص . ومعروف أيضا أن الحالة الوجدانية ترتبط ارتباطا مباشرا بما يتجه إليه فكر الشخص فنحن لا نستطيع الزعم بأن الوسواس أو العمل القهرى يتعلق بالفكر المنطقى للشخصية بقدر ارتباطه بقطاع الوجدان . ذلك أننا نحس بالوجدان أولا ثم نفكر لا العكس . فالعاطفة تقع قبل الفكر . وأكثر من هذا فإننا نستطيع القول: بأن الإنسانية برمتها قد مرت بمرحلتين : مرحلة وجدانية انفعالية ثم مرحلة أخرى عقلانية .

وعلى هذا نستطيع القول بأن: الاضطراب الهورمونى هو الذى ينتهى بالشخص إلى الإصابة بالعصابات الوسواسية والأعمال القهرية . فالهورمون إذا ما زاد أو قل عن النسبة المطلوبة ، فانه يعرض الشخص عندئذ لحالة يكون فيها قد صار مستعدا للإصابة بالوساوس والأعمال القهرية . ومعنى هذا: أن الهورمون لا يؤدى مباشرة إلى الوساوس والأعمال القهرية ، وإنما هو يهيئ الجو الوجدانى للإصابة به . والشأن هنا كشأن الأنيميا التى إذا أصابت المرء ، فإنها تجعل جسمة قابلا للانهيار أمام ميكروب الدرن الموجود فعلا بالجسم .

وفى مقابل التفسيرات الفسيولوجية العضوية ، فإننا نجد فئة من علماء النفس تذهب إلى التفسير النفسى . فهناك على رأس هؤلاء العلماء فرويد الذى انتحى الى التفسير بالعقد النفسية وبالرغبات والمخاوف المكبوتة وبالخبرات المؤلمة المنسية والمترسبة فى أعماق الشخصية منذ عهد الطفولة والتى تأخذ فى الطفو والإطلال برأسها من وقت لآخر كلما حانت لها الفرص ، وقد شب الشخص عن الطوق وبلغ الرشد . ذلك أن تلك الخبرات المكبوتة تظل معتملة فى أعماق الشخصية وتنتهز الفرصة للإطلال برأسها ولكنها كثيرا ما تطل برأسها بوجه

غير وجهها، وقد تلبس برموز ممعنة فى التمويه بحيث لا يكاد الشخص غير المختص فى أحوال النفس الإنسانية يستبين فيها حقيقتها ومغزاها . ومن وسائل التمويه التى تتخذها المقومات الخبرية المكبوتة فى أعماق اللاشعور بالشخصية التبدى فى قالب الوساوس والأعمال القهرية . فبينما تكون العناصر المكبوتة هى عناصر جنسية فى طبيعتها وقوامها ، فإن الوساوس والأعمال القهرية التى تصيب الشخصية فى إحدى المراحل العمرية قد لا ترتبط ارتباطا مباشرًا أو صريحا بالناحية الجنسية . فلقد تتبدى تلك المقومات المكبوتة فى هيئة عد أعمدة التليفون أثناء ركوب القطار ، أو فى هيئة الاحساس بأن ثمة ميكروبات تعيش فى طيات اليدين ولا بد من الاستمرار فى الاغتسال وتطهيرهما بصفة دائمة ودائبة ، أو فى أية هيئة أخرى من هيئات التعبير غير المباشرة عن العناصر الخبرية المكبوتة فى طيات اللاشعور .

ومعنى هذا: أن الوساوس والأعمال القهرية تعتبر تعبيرا عما يعتمل فى طيات الشخصية من حالات قلق . والقلق هو خوف غامض من أشياء مجهولة . وقد يكون الخوف المكبوت والمعبر عنه بالقلق مجرد خوف من تلك العناصر المكبوتة ذاتها والخشية من افتضاحها . فالرغبات الجنسية المكبوتة التى يؤكد فرويد استمرار اعتمالها بالشخصية إنما تكون قد ترسبت فى أعماق اللاشعور نتيجة الخوف من العقوبات التى يمكن أن توقع على الشخص إن هو أفصح عنها بصراحة . فيزعم فرويد: أن الطفل الذكر يتعشق أمه ولكنه يخشى من المنافس له فى حب الأم وهو الأب . وحيث إن الأب يكون فى نظر الطفل شخصا قويا وجبارا ويمكن أن يوقع عليه الأذى ؛ فإنه يكبت لاشعوريا مايعتمل لديه من رغبات جنسية تجاه الأم . وهكذا تظل تلك العناصر الجنسية المكبوتة بواسطة الخوف نشيطة بداخل الطفل وتظل بعيدة عن النطاق اللاشعورى . ولكنها تأخذ فى الفرصة المناسبة فى الطفو على سطح السلوك ولكن بطريقه تمويهية .

وهناك تفسير نفسى وظيفى آخر لحالات الوساوس والأعمال القهرية بالحرمان . والحرمان من الشيء بوجه عام لمدة طويلة مع تعلق الرغبة الشديدة بالشيء الذى حرم الشخص منه، قد يظل مؤرقا له حتى بعد أن تسد تلك الحاجة فالشخص الذى يضل طريقه بالصحراء ويستبد به العطش والجوع بحيث يكون مهددا بالموت جوعا وعطشا ، ثم تسعفه الظروف فيجد طريقه أو يعثر عليه آخرون فينقذونه من نكبته ، ويقومون بإطعامه وإطفاء ظمئه ، إنما يظل شاعرا بالحرمان الذى عانى منه بحيث قد يشكل ذلك الشعور لديه حالة نفسية معينة تدفع به إلى الإصابة بالوساوس والأعمال القهرية . وقد لا يتبدى إحساسه الدفين المعتمل بدخيلته فيما يتعلق بالأكل والشرب ، بل قد يتجه وجهات أخرى بعيدًا عن الطعام والشراب .

ولقد يفسر ما يتبدى لدى الشخصية من وساوس وأعمال قهرية بالهروب من التفكير الجاد والمتعمق إلى الأفكار التافهة والتصرفات الحمقاء؛ ذلك أن الملاحظ بصفة عامة هو أن الوساوس والقسريات إنما تتجه جميعا إلى التافه من الأمور وليس إلى العميق منها . ومن هنا فإن الشخصية تنحو إلى تلك التفاهات؛ هربا من الأشياء الجادة الجديرة بالتفكير . فالشاب المقبل على الامتحان فى الثانوية العامة يمكن أن يهرب بالطريق اللاشعورى إلى الوساوس والأعمال القهرية؛ تجنبا للاستذكار وإعمال فكره فيما يقبل على أداء الامتحان فيه من مواد.

ويمكن أن نفسر العصاب الوسواسي والقهرى بعكس ما ذهبنا إليه هنا . فنقول: إن الوساوس والأعمال القهرية إنما هى تعبر عن سطحية التفكير والانصراف إلى التفاهات من الأمور . ولو أن الموسوس أو المتعرض للأعمال القهرية قد انصب بفكره على المسائل الجادة إذن لما كان قد أصيب بما أصيب به من وساوس وأعمال قهرية . فبدلا من التفسير بالإجهاد الفكرى نتيجة

الانكباب على الاستذكار ، فإننا نتجه إلى التفسير بالكسل العقلى والانصراف بالفكر إلى التوافه والترهات العقلية .

وأخيرا : من الممكن أن نلتمس تفسيرا اجتماعيا نفسيا للوساوس والقسريات وذلك بعزو هذه العصابات إلي ما قد يكون الشخص المصاب بها قد لاقاه من اضطهادات واستذلال لشخصيته من المجتمع المحيط به . فالشخصية المستذلة والمضطهدة تهتز وجدانيا وتفقد اتزانها الوجدانى كما تكون عرضة لفقدان قدرتها علي التوافق الاجتماعي . من هنا فإننا نفسر الوساوس والأعمال القهرية في ضوء فقد التكيف الاجتماعي والإحساس بانعدام اللياقة الاجتماعية، وشاهد ذلك أن التفكير وطريقته لا يعدوان نطاق الوظائف الاجتماعية اليومية في التعامل مع الناس . فالتفكير في ضوء هذا إن هو إلا محاولة مستمرة لتحقيق التوافق الاجتماعي مع المجتمع المحيط بالمرء .

النوم المضطرب :

قد يظن البعض أن النوم نقيض لليقظة ، ولقد ذهب بعض القدماء إلي الاعتقاد في أن النوم هو موت لمدة قصيرة ، وأن الروح في أثنائه تتجول بعيدا عن الجسم ثم تعود بعد طوافها فيستيقظ النائم ويعود إلي حالته الواعية . ولكن الواقع أن النوم هو حالة من حالات الكائن الحي . إنه استمرار لحياته ولا يختلف الشخص جوهريا في يقظته عن نومه .

ويعتقد فرويد وعلماء التحليل النفسي أن الإنسان في نومه يكون أقرب ما يكون إلي حالته الحقيقية ؛ ذلك أننا فى يقظتنا نكون محكومين برقيب علي تصرفاتنا وكلامنا . وهذا الرقيب يتكون من قطاع معين بالمخ يعمل على فرملة ما ليس بلائق أو ما ليس بمتمش مع ما تواضع عليه المجتمع . وفي حالات الوقوع تحت التخدير أو في حالة النوم ، فإن الرقيب العقلى يكون فى إجازة

مؤقتة لحين استيقاظ الشخص ، ومن ثم فإن حالته النفسية الحقيقية تكون مكشوفة وبادية للعيان .

وفى حالتي التنويم – وهو ما اشتهر بالتنويم المغناطيسي – وأيضا في حالة التحليل النفسي ، فإن المنوم أو المحلل النفسي يعمدان إلي التحايل لإبعاد سلطة الرقيب الذهني وتنحيته عن مقر عمله بالذهن حتي يستطيعا القيام بالتأثير في المريض أو الوقوف علي كنه حالته النفسية بغير تعمية أو بغير تبرير لما صدر عنه من أفكار أو تصرفات . ذلك أن الشرط الأساسي في حالتي التنويم والتحليل النفسي أن تكون العلاقة بين المنوم والمحلل علاقة مكاشفة كاملة ، فلا يبقي الشخص الخاضع للتنويم أو التحليل النفسي سرا يخفيه عن المنوم أو المحلل ، وإلا لم يتسن تحقيق التنويم أو التحليل تحقيقًا كاملاً ، وبالتالى فإن المعرفة المطلوبة ، ومن ثم التأثير المطلوب في الشخص لا يكونان علي الوجه الأكمل والأمثل.

وما عرضنا له هنا من حديث التنويم المنغاطيسى أو عن التحليل النفسي إنما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوعنا الأصلي وهو الحديث عن النوم . فواقع الأمر أننا عندما ننام إنما نقوم بعملية إقناع ذاتي بالنوم . فهناك عملية تنويم ذاتية من جانبنا لأنفسنا نبدأ فيها ثم لا نكملها عندما ننخرط في النوم . وكلما استطعنا إقناع أنفسنا بالتنويم كان نجاحنا في النوم أكثر . وهذا الإقناع نسبى. فبعضنا يستطيع إقناع نفسه بالنوم إلي درجة ٥٠٪ فيكون نومه إذن بمقدار ٥٠٪ فقط، وتكون يقظته فى أثناء نعاسه بمقدار ٥٠٪ وهكذا تختلف نسبة النوم من شخص لآخر . ومعني هذا بالتالى: أن النوم حالة نسبية تختلف في نسبتها من شخص لآخر، بل وتختلف من الشخص فى ليلة ما إلى نفس الشخص في ليلة أخرى ، حسب مدى قدرته علي إقناع نفسه بالاستسلام للنوم ، أو بتعبير آخر بحسب مدى قدرته علي إقناع الرقيب الذهنى بأخذ إجازة مؤقتة يعود بعدها لإيقاظه من جديد .

بيد أن قدرتنا علي إقناع أنفسنا بالنوم إنما تتوقف علي مدى ما نحس به من طمأنينة . فالشخص الذى يتهدده الخطر لا يستطيع أن ينام ، كما أن الشخص إذا كان مهددا بمرض علي وشك أن يودى بحياته لا يستطيع أيضا أن ينام . ولكن في حالات اليأس الشديد قد يعمد الشخص إلي إقناع نفسه بالنوم كمخرج من الموقف الحرج . فقد يقنع التاجر المفلس نفسه بالنوم؛ هربا من واقعه المؤلم وهربا من تهديدات الدائنين . وكذلك المريض بمرض ميئوس منه قد يحاول جاهدا أن ينام؛ هربا من الخطر الصحي الوشيك .

ولكن تلك الحالات الشاذة في حياة الإنسان لا يصح أن تكون قاعدة يحكم علي أساسها . إن الأساس هو الحالات العادية اليومية فعندما نكون منتبهين جدا بأحداث تجذب انتباهنا بشدة – سواء كانت أحداثا محزنة أو أحداثا مفرحة – فإننا لا نتمكن من النعاس . فالأب الذى لديه ابن مريض يغالب المرض وحالته خطرة – ولكن غير ميئوس منها – لا يستطيع أن يركن إلى النوم . وكذا فإن الطالب الذى أحرز تفوقا في الثانوية العامة لا يستطيع أن يخلد إلي النوم يوم ظهور النتيجة .

وفى حالات القلق – وهي المخاوف اللاشعورية غير المحددة – فإن الشخص يكون غير قادر على النوم الهادئ . ولا شك أن الإنسان الحضارى المعاصر لا يستطيع أن يخلد إلي النوم العميق كما كان يفعل أناسي المجتمعات القديمة . لقد كان النوم قديما مرتبطا ارتباطا وثيقا بالناحية الفسيولوجية وبحالة الشخص الجسمية . لقد كان إشباعا أو استمرارا طبيعيا للحياة العضوية للإنسان . كان الشخص يكافح بجسمه في مغالبة الطبيعة وقهرها ، ولم يكن يحفل بالجهد الذهني كما يفعل إنسان الحضارة ، ومن ثم فإن ركونه إلى النوم كان شبيها بركون الحيوان إلى ذلك . أما إنسان الحضارة فإنه كثيرا ما يذهب إلي حجرة النوم هربا من الواقع أو وفقًا لنظام روتيني يومى ، ولا يكون النوم لديه انعكاسا لحاجة جسمية معينة .

ومن جهة أخرى فإن إنسان الحضارة يخضع غالبا للصخب المستمر، كما أنه يكون خاضعا لنظام روتيني معين في عمله يفقدانه هدوء واستقرار أعصابه. ومن ثم فإن النوم يكون نتيجة لفقدان هدوء الأعصاب ويكون حاجة علاجية ملحة. فإذا وضعنا في اعتبارنا حالة القلق التي يعاني منها إنسان الحضارة إلي جانب حاجته الملحة إلى علاج أعصابه بالنوم، فإننا نعرف إلي أى حد تشكل مشكلة الأرق خطرا كبيرا على حياة وسعادة الإنسان.

ومما يزيد الطين بلة، أن الحضارة تختلف عن الطبيعة فى مسألة النوم. ذلك أن الطبيعة تنام بالليل وتستيقظ بالنهار، وحتى صوت الأمواج وعصف الرياح لا يؤثران فى نوم الإنسان وهو في حال الطبيعة، وذلك لأن الأصوات الطبيعة الصاخبة لم تكن تؤثر تأثيرا سيئا في أعصاب الإنسان؛ لأن الإنسان جزء من تلك الطبيعة. ومن ثم فإن تلك الأصوات الطبيعية لم تكن تؤثر تأثيرا ضارا فيه أما الحضارة فإن صخبها بالليل لا يرتبط بوجدان الشخص كما يرتبط صوت البحر الهائج أو صوت الريح العاصف. فالورشة التى تقع تحت غرفة نومك بالعمارة التى تقطنها والدق أو الأزيز المستمر وغير المنتظم والذى لا يعرف إلى الهدوء سبيلا، إنما يؤثر بلا شك فى مدى قدرتك علي الاستسلام للنعاس. ناهيك عن الطائرة التى تشق عباب الجو فجأة فتقوم من نومك فزعا من تلك الفرقعة المخيفة. ولقد يكون أحد جيرانك قد توفى إلى رحمة الله فتعلق الميكروفونات وعليك ألا تنام إلى أن يذهب آخر مجامل بصوان الميت إلى بيته. وحتى إذا تزوجت إحدى جاراتك فلا يسلم الأمر من ليلة تقضيها ساهرا حتى ينتهى الضجيج الذى يحدثه أهل الفرح والمدعوون للمشاركة فيه.

ولا شك أن التعب الشديد الذى يحدث لك نتيجة الإقلاق المستمر بسبب تلك الأصوات الصاخبة، لمما يؤثر في مدى قدرتك علي إقناع نفسك بالنوم. وحتى بعد أن تخلد إلى النوم، فإنك تفاجأ – بل وكثيرا ما يحدث – بجرس التليفون يدق

إلى جانبك: فتقوم للرد عليه : وقد يستولي عليك الغيظ؛ لأن الطالب شخص يريد أن يعاكسك أو شخص غبي طلب رقمك وكان يقصد طلب رقم آخر.

لسنا نسير في حياتنا حسب هوانا . إننا مضطرون إلي الاستيقاظ في مواعيد محددة حتى نستطيع الوصول إلي مقر العمل في الموعد المحدد . وإذا أخطأنا واستسلمنا للنوم بعد أن يدق المنبه الموضوع إلى جوارنا ، فإننا ننهض فجأة فزعين مهرولين علنا نصل إلى عملنا فى الموعد المحدد ، أو لقد لا نتأخر كثيرًا عن ركب الزملاء والرؤساء .

ولقد يكون العمل الذى التحقنا به من ذلك النوع الذى لا يعترف بالنهار معاشا وبالليل لباسا ، بل يؤكد أن النهار معاش والليل أيضا معاش ، فهو عمل لا يهدأ ولا يتوقف ليل نهار ، ولا يعرف إلى العطلات سبيلا . ومن ثم فإنه يسير وفق نظام الورديات . وقد تأتى ورديتك بالليل من الساعة الثامنة مساء حتى الساعة الثامنة صباحا ، فعليك إذن أن تخرج من عملك فى الصباح لتأوى إلى فراشك خلال النهار. لابد من أن تركن إلى سريرك حتى وإن كان الجيران من حولك فى هرج ومرج ، وقد استيقظت المدينة وأخذ النشاط يدب فى أنحائها . ومما لا شك فيه أن قلب الأوضاع فى مواقيت النوم ليس فى صالح الجهاز العصبى . ولكن ما الحيلة ؟ إنها متطلبات الحضارة التى لا ترحم .

وحتى إذا هدأت الدنيا من حولك ، فإن استمرار انتباهك لفترة طويلة ومقاومتك المستمرة للنوم وانشغالك بأعمال وأفكار كثيرة وملحة وهامة يجعلك مستمرا فى حالة من التنبيه واليقظة . وإنك فى ذلك تكون أشبه بالقطار الذى انطلق بسرعة عظيمة ثم يراد على حين فجأة أن يقف . ولكن هيهات أن يلبى رغبة السائق . لا بد من اندفاعه بسرعة لمسافة طويلة ثم يأخذ فى التخفيف من سرعته رويدا رويدا حتى يقف . فلابد إذن لك من المكوث فى حالة من اليقظة فى السرير

قبل أن تقف سرعة يقظتك ، وقبل أن تستطيع التخلص من ذلك النشاط الذى أفعمت به نفسك فى العمل ومن ذلك الانشغال الذى كنت متلبسا به .

ولا ننسى أن أولئك الذين يضطرون إلى قلب طبيعة الأشياء وجعل الليل معاشا والنهار لباسا إنما يتناولون غالبا تلك المشروبات المنبهة التى تثير الأعصاب كلما ساورها شيء من الهدوء والرغبة فى الاسترخاء فتلك العناصر المشتتة للقدرة على الاسترخاء والنوم تظل معتملة فى أجسامنا ، حتى بعد أن نترك العمل ، وحتى بعد أن نطرق باب النوم . ولكأن أعصابنا تدخل معنا فى دور من العناد . لقد كانت تطالبنا بالاسترخاء ونحن فى العمل ، ونحن الآن نتوسل إليها بالركون إلى الراحة ، وهى تأبى وتعصى أوامرنا ، وتلح على اليقظة والتأريق .

ولا يخفى على أحد ما للهضم والتنفس من صلة وثيقة بالقدرة على النوم السليم العميق . وإنسان الحضارة الممعود كما سبق أن بينا لا يستطيع أن يحظى بالنوم الهادئ . إنه ما يكاد ينخرط فى النوم حتى يقوم يقظان يتلوى؛ لأن الطعام الذى تناوله لا يريد أن يهضم . إنه إذن بحاجة إلى بلع بعض الأقراص المهضمة وبعض الأقراص المهدئة حتى يتسنى له الخلود إلى النوم .

وشأن الجهاز التنفسى شأن آخر ، وأكثر إلحاحا وأكثر إرهاقا . ذلك أن الشخص الذى امتلأ صدره بالدخان ، يمتلئ أيضا بالبلغم . والرئتان تحتجان على ذلك المتطفل الذى يسكن فيهما وهما منه على مضض . إنه لا يريد مبارحتهما وليس من سبيل إلى إخراجه إلا بالطرد . ولكن الطرد لا يكون مسألة هينة لينة . لا بد من استخدام العنف . الشجار إذن هو السبيل الوحيد بين الرئتين وبين البلغم الذى ملأهما ويمنع التنفس العادى . وتقوم المعركة وهى تلك الكحة المستمرة أو المتقطعة . وكلتاهما تحولان دون نوم الشخص ، بل وحتى دون نوم

كل من بالدار أو كل من يسكنون إلى جانب ذلك الشخص بالشقق المجاورة ، والدخان الذى يملأ رئات أبناء الحضارة له مصدران أساسيان : إما السجاير ومشتقاتها وإما ذلك العادم الذى يخرج من العربات والقطارات والمصانع . ونستطيع الجزم بأن إنسان الحضارة لا يتمتع برئتين نظيفتين كرئات أناسى القبائل البدائية ، الذين لم يكونوا يعرفون الدخان ولم تكن لديهم سيارات أو قطارات أو مصانع ، بل كانوا ينطلقون بأرجلهم فى الهواء الطلق غير الملوث مستمتعين بتنفس نقى خال من كل شائبة تقلق منامهم .

ويبدو أن الثقافة التى يتمتع بها إنسان الحضارة لها تبعاتها أيضا على سعادته المتعلقة بالنوم . فمعظم المفكرين لا يخلدون إلى النوم ولا يستطيعون السيطرة على أنفسهم فيأمرونها بالنوم . إنهم يظلون فى أسرتهم يتقلبون وهم يفكرون . ومن بين القصص التى نقرؤها ، نجد أن كثيرًا من الفلاسفة والعلماء قد توصلوا إلى مكتشفاتهم العقلية والعلمية الهائلة بينما كانوا في أسرتهم يتقلبون. إننا إذن لا ننخرط فى النعاس بمجرد ذهابنا إلى السرير . لقد يكون السرير إذن بالنسبة لبعض المفكرين – أو لكل المفكرين – مكان عمل . إنه لا يقل فى هذا الصدد عن المكتب أهمية للفكر . ولكن هذا الأرق يهدد المفكر نفسه . إنه يقول « لقد جاهدت نفسى؛ لكى أحملها على النوم ولكنها أبت وأصرت على السهر وإعمال الذهن فى المسائل التى حيرتنى طوال النهار ». وإذا أنت نظرت فى وجه صاحبنا هذا ، إذن لرأيت الذبول وقد ران عليه . نعم إنه عبقرى . ونعم إنك قد تعجب به . وقد يشار إليه بالبنان . ولكن الشخص نفسه ، أعني: ذلك الفيلسوف أو العالم لا يستمتع بحياته . إنه أرق لا يجد النعاس إلى جفنيه طريقا إلا بالكاد .

وإذا كان هذا هو حال الفلاسفة والعلماء والمفكرين بعامة . فإن الشخص العادى الذى يعيش فى ظل الحضارة لا يسلم من هذا الوباء الخطر ، وباء الأرق . إن النوم الهادئ لم يعد من نصيب إلا القلة القليلة من الناس . أما الكثرة الكثيرة

منهم فقد صارت مخاصمة للنوم . ولا شك أن الصحة النفسية المتدهورة تجعل أبناء الحضارة المساكين فى حالة لا تسمح لهم بالاستمتاع بالنوم الهادئ؛ لأنها لا تسمح لهم باليقظة الهادئة ، ولقد بدأنا حديثنا بالتأكيد على استمرار وتكامل حياة اليقظة وحياة النوم . ولعل حياتك بالسرير صورة مطابقة لحياتك فى اليقظة . فإذا كنت مضطربا قلقا فى يقظتك ، فلا بد أنك لا تستطيع أن تستمتع بالنوم الهادئ بالليل . ولعلنا نؤكد أن النوم قدرة خاصة لا يستمتع بممارستها إلا أولئك الذى تتوافر لهم شروط خاصة . فلا يستطيع ممارسة النوم الهادئ إلا أولئك الذى أوتوا جهازا عصبيا سليما ، وقد خلت حياتهم من عوامل الإزعاج والتوتر ، وصفت عقولهم من عوامل التشتيت والإزعاج [1] .

تخنث الشبان وتذكر الشابات :

من المقرر بيولوجيا أن جميع الذكور يتضمنون فى تكوينهم العضوى بعض الهورمونات الأنثوية ، كما أن جميع الإناث يتضمن بنيانهن العضوى بعض الهورمونات الذكرية . لكن من المقرر أيضا أن نسبة الهورمونات الأنثوية فى الواحد من فئة الذكور ونسبة الهورمونات الذكرية فى الواحدة من فئة الإناث ينبغى أن تظل ثابتة ، وهى نسبة ضئيلة إذا ما قورنت بالهورمونات المضادة الخاصة بالفئة الجنسية التى ينخرط الشخص فى نطاقها . فالهورمونات الذكرية لها السيادة على جماع الهورمونات الجنسية عند الذكر ، كما أن الهورمونات الأنثوية لها السيادة على جماع الهورمونات الجنسية عند الأنثى .

بيد أنك قد تلاحظ فى بعض من تقابلهم من أفراد من الجنسين أن هناك خصائص ظاهرية تجعل الشخص قريبا من الجنس الآخر . فلقد تجد بعض الرجال جردا لم ينبت فى مكان اللحية والشارب لديهم شعر ، أو أن تلاحظ أن صوتهم مشوب بالنعومة ويشابه صوت النساء ، أو أن تلاحظ أن هيئة الجسم والنسب القائمة بين أطرافه قريبة الشبه مما يتسم به جسم المرأة . ومن جهة

(١) انظر كتاب النوم الهادئ، ترجمة المؤلف .

مقابلة فلقد تجد بعض من تقابلهن من نساء وقد اقترب تكوينهن الجسمى أو طبقة الصوت التى يتحدثن بها من طبقة صوت الرجل أو نبت فى وجوههن الشعر أو كسا أيديهن وسيقانهن الشعر الكثيف بحيث يأخذ المرء فى التساؤل عما وراء تلك الظواهر الجسمية من أسباب عضوية .

وإلى جانب ما قد تلاحظه من ظواهر جسمية مباينة للجنس الذى ينخرط الشخص فى نطاقه ، فإنك قد تلاحظ تباينا آخر فى الظواهر السلوكية والمناحى الأخلاقية والمزاجية التى تسود الشخصية . فلقد تجد الرجل الذى تشوبه تلك الملامح الأنثوية وقد انتحى فى نفس الوقت إلى الصبغة العامة للسلوك الذى تنتحى إليه الإناث غالبا ، كما أنك قد تجد أن فى المرأة التى اختلط تكوينها الجسمى بتكوين جسم الذكر بعض السمات التى يختص بها جسم الرجل ، وقد أخذت تتلبس بسلوك الرجال ، وصار ميلها العام يشير إلى ما يتصف به الرجال من سلوك ومزاج . ولكن العلاقة بين الظواهر السلوكية وبين الظواهر الجسمية ليست علاقة إيجابية بصفة مستمرة . فليس شرطا أن تجد الرجل الذى بدت على ملامحه بعض ما تختص به الإناث من ملامح جسمية وقد تلبس بالسلوك الأنثوى أو يكون قد اكتسب مزاجا أنثويا ،كما أنه ليس بقاعدة أن تجد المرأة التى شاب جسمها بعض الملامح الجسمية الخاصة بفئة الرجال وقد انتحت فى سلوكها ومزاجها منحى ذكريا ، أن تكون قد فقدت أنوثتها ورقتها وما تتصف به الأنثى من دماثة شديدة فى الأخلاق ومن ملامح مزاجية أخرى معروفة .

ومن الواجب علينا أن نميز بين ما قد نجده لدى بعض الشبان من ميول إلى التشبه بقريناتهم من الشابات أو ما قد نقع عليه من ميل لدى بعض الفتيات من التشبه بزملائهن من الفتيات فيما يتذرعون به من سلوك أو بما يقومون بارتدائه من أزياء وبين ما قد نصادفه من تداخل عضوى أو سلوكى أو مزاجى تكويني بين الجنسين فى الشخص الواحد من أحد الجنسين . والركن الأساسى فى هذا التمييز

بين الحالتين إنما يرتد أساسا إلى التمييز بين ما يتعلق بالاكتساب الاجتماعى وبين ما يتشكل نتيجة وجود مقومات عضوية جسمية ينعكس عنها أو تتواكب معها ألوان من السلوك المغاير لسلوك الجنس الذى ينتمى إليه المرء . فلقد نزعم بحق: أن بعض ما قد نجده من ميول لدى بعض الشبان نحو التشبه بالنساء أوما قد نجده لدى بعض النساء من ميول للتشبه بالرجال إنما يكون نتيجة للتقليد والإعجاب بأحد أفراد الجنس الآخر والرغبة فى التشبه به ، ولا يكون تعبيرًا منبثقا من دخيلة الشخص نتيجة تغيرات فسيولوجية تتصل بالهورمونات وفقدانها للاتزان فيما بينها . وإنك لتجد أن الكثير من الموجات المتعلقة بالأزياء وبطريقة العناية بالشعر لا يخضع للمزاج الشخصى وإنما يتعلق بالمزاج الاجتماعى العام . فالكثير مما يرتديه الشبان والشابات من أزياء وما قد يشيع لديهم من طرائق لتصفيف الشعر بالنسبة للجنسين إنما يكون بمثابة ضغوط اجتماعية لا يستطيع الشاب أو الشابة مقاومتها ، بل نستطيع أن نحدد كلامنا ونضع النقط على الحروف فنصف تلك الضغوط بأنها ضغوط أسرية ، حيث يكون لدى أحد الوالدين أو لدى كليهما نزعة أو ميل معين بالنسبة للأزياء وطريقة تصفيف الشعر ثم يفرضان تلك الميول على أبنائهما أو بناتهما ويغريانهن باتباعها والأخذ بها وكراهية ونبذ الأزياء التقليدية والعزوف عن طرائق تصفيف الشعر المألوفة . ويبدو أن بعض الآباء والأمهات تعتمل لديه رغبة فى الإغراب ، أعنى فى الخروج عن إطار المألوف إلى إطار الغريب ، ذلك حتى يمتازوا عن سواهم من أسر ، حتى يشار إليهم بالبنان ويوصفوا بالرقى والتمدن واتساع الأفق والتخلص من القديم البالى والأخذ بالجديد المبتكر . ولقد نقول أيضا إن بعض الآباء والأمهات يتشوفون بالفعل إلى الابتكار ، فيأخذون فى وضع لمسات جديدة كثيرة على أزياء أولادهم وبناتهم بحيث إنهم فى المدى الطويل وبالاستمرار فى وضع تلك اللمسات الابتكارية يخرجون عن الخطوط العريضة التقليدية وينخرطون بأبنائهم فى أطر جديدة لم يسبقهم أحد إليها . وما أن يضع أولئك

المبتكرون تلك الخطوط الجديدة فى الزى أو فى تصفيف الشعر حتى تجد المقلدين والمعجبين بهم وقد سارعوا إلى الأخذ عنهم ، فيفرضون بدورهم على أبنائهم ما أخذوه عن تلك الأسر المبتدعة ويغرون أبناءهم وبناتهم باتباعه والسير وفقه، بل ويبثون فيهم كراهية القديم والتقليدى والانتحاء إلى كل جديد وكل مبتكر فى أية ناحية من نواحى الحياة بما فى ذلك الزى وتصفيف الشعر .

فمثل هذا الضغط الاجتماعى من جانب الكبار على الناشئة لتغيير النمط السائد بإزاء الأزياء أو تصفيف الشعر لا يعد من الناحية النفسية مرضا من الأمراض النفسية التى قد نزعم بأن الشباب من الجنسين يعانون منها . ولكن ثمة ظاهرة مرضية من أمراض الجنس يجد الشخص نفسه بمقتضاها ميالا إلى ارتداء الملابس التى يرتديها أفراد الجنس المقابل لجنسه . والواقع أن الحالة المرضية هذه تشترك مع حالات جنون الشهوة عند الرجال والنساء حيث تكون لدى المصابين بجنون الشهوة نفس هذه الرغبة نحو ارتداء ملابس الجنس الآخر . ولكن الفرق بين هذا النوع من الجنون الذى نحن بصدده وبين جنون الشهوة هو أن جنون الشهوة ينصب بصفة أساسية على الناحية الحسية الشهوية حيث يكون التحلى بملابس الجنس المقابل مرتبطا أشد الارتباط بما يعتمل بين أضلعه من أحاسيس شهوية ، بينما نجد أن هذا النوع من الجنون ينحصر فى الناحية الوجدانية ولا يتعداها إلى الناحية الجسمية الشهوية . فالدافع هنا نحو ارتداء ملابس الجنس الآخر يرتبط ارتباطا مباشرًا ووثيقا بما يحسه الشخص من عواطف وتفضيل للصيغة التى يرتدى وفقها أفراد الجنس المقابل ملابسهم . فالمصاب بهذا النوع من الجنون لا يخرج عن نطاق التفضيل والإحساس بالميل الوجدانى نحو الطريقة التى يرتدى بها أفراد الجنس الآخر ملابسهم ويصففون بها شعرهم ويسيرون بها فى مشيتهم ، بل وبالطريقة التى يتحدثون بها .

فهذا المرض ذو طابع فنى جمالى أكثر من اتسامه بالطابع الشهوى

الحسى. إن كثيرًا من المصابين بهذا اللون من الجنون يكونون من أولئك الذين لديهم ميول فنية جمالية ولكن هذا لا يعنى بالطبع أن الميول الفنية تحدث هذا الميل . فليس ثمة علاقة سبب ومسبب بين الأحاسيس الجمالية وبين هذا الميل ، وإنما هناك نوع من الارتباط العارض فيما بين تلك الأحاسيس الجمالية وهذه الأعراض المرضية .

والمصابون بهذا اللون من الشذوذ الجنسى لا يجدون لديهم دافعا يدفعهم نحو ممارسة الجنسية المثلية ، بل إن الكثيرين منهم قد ينصرفون عن النشاط الجنسى الحسى وينحصرون فى نطاق الأحاسيس الوجدانية نحو ارتداء ملابس الجنس الآخر لدواع فنية يستشعرونها بطريقة مرضية . وحتى فى الحالات التى يكون فيها للشخص المصاب بهذا المرض نشاط جنسى ، فإن ذلك النشاط يتجه نحو أفراد الجنس الآخر ، وليس نحو أفراد الجنس الأصلى لهم .

ونستطيع أن نقرر أن هناك أربعة أسباب لظاهرة تخنث الشبان وتذكر الشابات . فهناك أولا الأسباب الاجتماعية التى تتعلق بالموجات الاجتماعية التى تسمى: « بالموضات » . والموضة عبارة عن تيار مؤقت يعم الناس عن طريق التقليد . ولا شك أن هناك أسبابا اقتصادية تكمن وراء موجات الموضة التى تتدفق موجة بعد أخرى . ذلك أن التجارة إذا ما اعتمدت على موضة واحدة ثابتة لا تتغير فإنها تئول إذن وبسرعة إلى البوار . ذلك أنك إذا ارتديت نفس الزى إلى أن يبلى لكى تقوم بعد ذلك بشراء زى جديد يحل محل الزى القديم ، فإن المدة التى تستغرقها ملابسك لكى تبلى لا تبشر بالرواج التجارى بل هى تحرم التجارة من ربح كبير كان يمكن أن يدخل إلى خزائنهم إذا هم عمدوا إلى تغيير الموضة بصفة دائبة ومتواترة . وما يقال عن الأزياء وتبديلها باستمرار ضمانا للرواج الاقتصادى ينحسب أيضا بإزاء صالونات الحلاقة وتصفيف الشعر . فكلما أدخل أصحاب تلك الصالونات تجديدات بإزاء الموضات سواء فيما يتعلق بطريقة قص

الشعر أو بإزاء الباروكات وغيرها من أشياء تضاف إلى الرأس أو إلى الأدوات التى تستخدم فى ذلك ، فإنهم يضمنون رواجا أكثر لسلعتهم الخدمية .

وإلى جانب الأسباب فهناك أسباب تربوية لذلك ، والواقع أن ثمة رابطة قوية بين الأسباب الاجتماعية للتخنث والتذكر وبين الأسباب التربوية لذلك . ولكن ذهننا ينصرف إلى الأسرة والمدرسة وإلى التأثير التربوى المقصود عندما نعرض للتربية وأساليبها . والتربية تتخذ موقفين بإزاء الأزياء وتصفيف الشعر: موقفا سلبيا يرنو إلى المحافظة على القديم والاستمساك بما هو تقليدى أو قائم ، ثم موقفا إيجابيا وذلك بأن تدفع بالتيارات الجديدة إلى الأمام وتشجعها . والملاحظ بوجه عام أن المؤسسات التربوية جميعا تنحو إلى الموقف السلبى أكثر من انتحائها إلى الموقف الإيجابى . فهى تشجع القديم والقائم وتحارب الجديد والمستحدث . فالتيارات الاجتماعية المتعلقة بالموضات كثيرًا ما تلقى المقاومة الصارمة من المؤسسات التربوية وبالأخص الأسرة والمدرسة . ولكن إذا اعتبرنا أن النادى هو الآخر ضمن المؤسسات التربوية ، فإننا سنجد أن الأندية بصفة عامة تتجه إلى تشجيع الاتجاهات المستحدثة والمبتكرة فى مجالات الأزياء وتصفيف الشعر .

أما الأسباب التى تشكل الفئة الثالثة فهى الأسباب العضوية ، وهى تنقسم بصفة عامة إلى قسمين رئيسيين : قسم وراثى وقسم آخر مكتسب . والوراثى معروف ، أما المكتسب فإنه يتمثل فى العقاقير أو العمليات الجراحية التى قد تؤدى بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر إلى إفساد الاتزان الهورمونى مما يترتب عليه ظهور الأعراض الجسمية أو السلوكية على الشخص بعد أن يكون قد شفى من المرض الذى كان يعالج منه أصلا .

وهناك أيضا بعض الأمراض النفسية أو العقلية وبعض حالات المرض

العصبى المتعلق بالجهاز العصبى تنتهى إلى ظهور تلك الأعراض العضوية والسلوكية بل وتكون هى الأسباب الحقيقية المعتملة وراءها .

ولكن ليس شرطا أن تنتهى العوامل النفسية والعقلية والعصبية إلى نتائج عضوية مباشرة ، بل قد تظل الحالة محصورة فى نطاق سلوكى وفى نطاق الميول النفسية والوجدانية والمفاهيم العقلية والقيم التى تسود الشخصية . ونستطيع أن نجعل من تلك العوامل المرضية المجموعة الرابعة من الأسباب التى تؤدى إلى تخنث الشبان وتذكر الشابات . فتلك الأسباب النفسية قد ترتبط بالمقومات الجسمية وقد لا ترتبط بها . وفى الحالتين فإنها تنتهى إلى التأثير المباشر أو غير المباشر فى سلوك الشخص وفى فكره ووجدانه .

ويتضح مما سبق أن تلك الفئات الأربع من الأسباب تنتهى إلى ظاهرة التخنث بالنسبة للشبان وإلى ظاهرة التذكر بالنسبة للشابات . ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أيضا أن هناك ستة مسالك يتخذها هذا السلوك الذى ينم عن قلق معتمل فى الشخصية وأن يكون متواكبا معها . فهناك أولا الصيغة الخارجية وهى الصيغة التى سبق أن عرضنا لها والتى تتمثل فى الظواهر الجسمية ، ثم هناك الصيغة السلوكية التصرفية التى تتبدى فى المشية وفى طريقة التعامل مع أفراد نفس الجنس ومع أفراد الجنس الآخر وفى الاتجاه الذى يتخذه الشخص بإزاء ما يقابله من مشكلات اجتماعية متنوعة . ثم هناك من جهة ثالثة: الصيغ اللغوية والصوتية . فالشاب يرقق من صوته وينطق بطريقة شبيهة بالطريقة التى تتحدث بها الفتاة والعكس بالنسبة للفتاة المتذكرة ومن جهة رابعة: هناك الصيغ الحركية . وهنا تجد كلا الطرفين وقد تلبس بالحركات التى تتعلق بالجنس الآخر . وهناك من جهة خامسة الصيغ المزاجية حيث تلاحظ أن مزاج الشخص وقد تعلق بما يرنو إليه الجنس الآخر . ويظهر هذا أكثر ما يظهر فى اختيار الألوان والأنغام وفى موقف الشخص من نفسة ومن غيره . وأخيرًا فهناك الصيغ الفكرية حيث

تجد أن أفكار الشخص وفلسفته فى الحياة تنحو إلى ما يشيع من أفكار ومعايير شائعة عند الجنس الآخر . ومعنى هذا فى الواقع أن الشاب المخنث والشابة المتذكرة قد يتلبسان بصيغة أو أكثر من هذه الصيغ الست ، وليس شرطا أن تشيع جميع تلك الصيغ لدى كل شاب مخنث؛ لكى نصفه بالتخنث أو لدى كل شابة متذكرة؛ لكى نصفها بالتذكر.

★ ★ ★

الفصل الرابع

أزمة التوافق الاجتماعى

الأسرة المهددة بالانهيار

كانت الأسرة قديما تقوم بجميع الوظائف المتعلقة بالخدمات والإنتاج ، فكانت - متمثلة فى العشيرة والقبيلة - بمثابة وحدة متكاملة وكأنها دولة كاملة الأركان فتقوم بجميع الوظائف التى تقوم بها الدولة الكبيرة ، فكما أن الدولة - أى دولة - تقوم بالوظائف السياسية والحربية والاقتصادية والتربوية والطبية وغير ذلك ، كذلك الأسرة القديمة كانت تقوم بجميع الوظائف تجاه الأفراد ، ولم تكن هناك هيئات أو جماعات متخصصة كما هو الحال اليوم ، بل كان أهل العشيرة أو القبيلة يضطلعون بجميع الوظائف على اختلافها ، ولم يكن تمكنهم فى تلك الوظائف ناجما عن تخصصهم فى دراسات معينة ، بل كان فى مجموعه نابعا من الفطرة والتقليد المباشر وانتقال الخبرة من شخص لآخر ، ومن جيل للأجيال التالية.

ولكن كلما أخذ المجتمع الإنسانى فى التعقيد ، ظهرت مؤسسات متخصصة فى ناحية ما من النواحى التى كانت الأسرة مسئولة عنها فى الماضى . ولم يعد للأسرة فى الوقت الحاضر سوى وظائف قليلة . وحتى تلك الوظائف القليلة المتبقية للأسرة الحديثة مهددة بالاستلاب منها ، بل نخشى أن نقول: إنها استلبت بالفعل أو هى آخذة بالفعل فى الانقشاع عن مجالها .

لقد كانت الوظيفة الوحيدة المتبقية للأسرة هى الوظيفة التربوية .فلقد كانت الأسرة إلى عهد قريب مسئولة عن تعليم الطفل أو تربيته إلى حين التحاقه بالتعليم النظامى الرسمى . فالطفولة المبكرة كانت فى عنق الأسرة، فلقد كانت الأم تقوم بالسجية برعاية الطفل فيما قبل المدرسة الابتدائية . وكان الطفل يجد فى أحضان الأم وباقى أفراد الأسرة من أب وإخوة وأخوات وأقارب صدرا حنونا، كما كان يتلقف الخبرات التى كانت تصدر عن الكبار . وكان ينمو شيئا فشيئا فى جميع نواحى شخصيته . وكانت الأسرة إلى عهد قريب واسعة النطاق . وكانت العلاقات بين الأقرباء وثيقة بدرجة كبيرة تجعلها مجالا خصبا لتلقى الخبرة ، فكانت العلاقات الخبرية متنوعة بحيث تسمح بالنمو المتكامل للخبرات .

بيد أن تغيرات أساسية كثيرة قد وقعت فى مجال الأسرة الحديثة ، وفى كل يوم تقع تغيرات جديدة تنعكس آثارها بطريق غير مباشر فى الصيغة التى تتلبس بها الأسرة وفى وظائفها المتباينة ، وبخاصة وظائفها التربوية ، ونستطيع أن نلخص التغيرات التى حدثت فى نطاق الأسرة الحديثة فى نوعين أساسيين : تغيرات اجتماعية ، وتغيرات تكنولوجية . فمن التغيرات الاجتماعية تغير وضع المرأة ، وتطلعها إلى الامتهان بالمهن والحرف التى دأب الرجال على الاشتغال بها ،وتطلعها أيضا إلى تلقى نفس أنواع التعليم التى كانت مخصصة لفئة الذكور. ولقد تاقت المرأة أيضا إلى جميع أنواع المساواة مع الرجال وأخذت تطالب بحقوق لها كانت مهضومة عبر الأجيال المتعاقبة .

لقد نجم عن هذه التغيرات الاجتماعية ، ضعف مركز الرجل فى الأسرة . فبعد أن كان الرجل هو العائل الوحيد للأسرة ، صارت المرأة تقاسمه المسئولية المالية ، ومن ثم زاد نفوذها وصارت تحس بأنها ليست أقل قيمة منه . بل وصارت تحس أحيانا بأنها تستطيع الاستغناء عنه إذا ما جد الجد ، وإذا ما دب الخلاف بينهما . ولقد أخذت كثير من النساء فى مطالبة أزواجهن بتحمل نصيبه

من الأعمال المنزلية التى كانت ملقاة على كاهل المرأة وحدها عبر الأجيال المتعاقبة الكثيرة ، فنسمع اليوم عن أن بعض الرجال يقومون بالغسل والطبخ والعناية بملابس الأطفال الصغار وغير ذلك من أعمال كانت وما تزال كثير من الأوساط الاجتماعية تعتبرها أعمالا نسائية بحتة .

ونتج عن اشتغال الأم خارج البيت لمدة طويلة من النهار ، أن راجت مدارس الحضانة وصارت تستقبل الأطفال منذ سن أربعين يوما فقط. ومعنى هذا أن الطفل الحديث بدأ يعتمد على مؤسسة أخرى غير الأسرة فى تربيته والاضطلاع بشئونه المتباينة . ومعنى هذا بالتالى: أن الطفل الحديث لم يعد متعلقا بالأم والأب كما كان حاله قبلا . ولقد يكون اهتمام وتعلق الطفل بمدرسته وما فيها من مدرسات وأتراب أقوى من تعلقة ببيته ويمن فيه من أب وأم وإخوة وأخوات . وبتعبير آخر : فقد ضعفت روح الانتماء إلى الأسرة . ونستطيع أن نعمم فنقول: إن ضعف الانتماء إلى الأسرة لم يصب الطفل وحده بتجاه أسرته ، بل إنه شاع فى قلوب جميع أفراد الأسرة الحديثة . فالأب لم يعد يحس بالتعلق الشديد بزوجته وأولاده ، وذلك بسبب ضعف مسئوليته نحو أسرته سواء من النواحى الأخلاقية أو الاجتماعية ونفس الشىء يقال عن الزوجة التى تحس بدورها بأن مسئوليتها الأساسية لا تتركز فى البيت ، بل فى عملها الذى تنال عنه أجرًا فى آخر الشهر . ولم تعد تنظر إلى بيتها باعتباره حصن أمانها وضامن مستقبلها ، بل ناطت ذاك بالمؤسسة التى تضمن لها الرزق والضمان بإزاء ما قد يجد فى المستقبل من أحداث .

بيد أن المسألة لم تتوقف على الجانب الاجتماعى ، بل هناك أيضا التغيرات التكنولوجية التى زحفت حثيثا إلى نطاق الأسرة وصارت دعامة من دعامات حياتها الأساسية . وإنك لتجد اليوم الثلاجة والبوتاجاز والسخان والراديو والتليفزيون وقد احتلت جميعا مكانات سامية فى بيت الأسرة الحديثة .

وعلى الرغم من أن تلك المقومات التكنولوجية وما يستجد عليها بعد ذلك من وسائل توفر الرفاهية والراحة قد أراحت أفراد الأسرة الحديثة من كثير من الجهد المبذول ؛ فإنها قد عملت على الإحساس بالاستغناء – أو إمكان الاستغناء – عن مساعدة باقى أفراد الأسرة . فبعد أن كانت المرأة هى التى تقوم بغسل الملابس ، صارت الغسالة الكهربائية تقوم بالمهمة ، وصار بمقدور الرجل أن يديرها ويغسل ملابسه بنفسه . وصارت الحلة البخارية فى متناول الأسرة العادية ، وصار أيضا بإمكان الرجل أن يطبخ الطعام فى دقائق بغير جهد ، وبغير حاجة إلى معونة الزوجة . والثلاجة مستعدة لصيانة الطعام لأكثر من أسبوع بحيث يتسنى للرجل الاستغناء عن مطالبة زوجته بإعداد الطعام يوما فيوما . أضف إلى هذا أن البوتاجاز لم يعد يحمل الإنسان الحديث ما كان يحمله له وابور الجاز – ومن قبله الكانون والفرن – من مشاق .

أما الراديو والتليفزيون ، فقد أحدث دخولهما إلى رحاب الأسرة ثورة تربوية هائلة فى نطاق الأسرة . فبعد أن كانت الأسرة قبلهما وحدة مغلقة لا يمكن لأحد سبر أغوارها أو التدخل فى شئونها ، انهدم ذلك الحجاب الذى كان يفصلها عن العالم الخارجى . وأصبح بمستطاع المسئولين عن الإعلام والتربية أن يتدخلوا بالتأثير المستمر فيها ، وبالتالى أمكن تذويب كثير من القيم التى كانت الأسرة القديمة تحافظ عليها وتعتبرها تراثا لأفرادها لا يمكن أن تتنازل عنه أو تفرط فيه .

وبعد أن كان الوالدان هما المسئولين عن القيم الأخلاقية يغرسانها فى أبنائهما ، صارت المدرسة من ناحية والراديو والتليفزيون من ناحية أخرى تشكل عوامل مؤثرة لا يمكن الحد من قوتها أو التخفيف من سطوتها . ونستطيع القول بغير مبالغة: إن تلك العوامل الجديدة صارت تلتهم القيم الأخلاقية الأسرية وتُحِل محلها قيما أخرى بديلة من الصعب الحكم عليها بأنها أفضل أو أقل قيمة . ولكن

مهما يكن من شيء ، فمما لا شك فيه أن زمان التأثير الأخلاقى لم يعد فى يد الأسرة ، بل صار فى أيدى المؤسسات الاجتماعية الأخرى التى تنافس الأسرة فى التأثير التربوى خلال الطفولة والشباب .

ولا شك أن التيار الحضارى ككل ليس فى جانب الدعم الأسرى . ذلك أن الأسرة قديما كانت – كما قلنا – مؤسسة كبيرة متكاملة متمثلة فى العشيرة أو القبيلة ، وكان لها ممتلكاتها الخاصة ووظائفها المتباينة . ولكن الحضارة عملت على تقليص حجم الأسرة إلى أن صارت زوجا وزوجة وأولادهما . وأكثر من هذا فقد صار مقر الأسرة – أعنى: المنزل – مكانا يلم فيه أفراد الأسرة لمامًا . وحتى الوقت الذى تجتمع فيه الأسرة معا – على قصره – يكون كل واحد من أفرادها مشغولا خلاله بعمل يضطلع به . أو يكون خلاله مشدودا إلى اهتمام يستلب لبه ويشغل باله . فالأب لديه فى الغالب أعمال يريد إنجازها مطلوبه منه غدا بالمصلحة التى يعمل فيها . وكذلك حال الأم . أما الأولاد فإنهم عاكفون على كتبهم يستذكرون ويحلون الواجبات المدرسية المطلوبة منهم . وما إن ينتهى الجميع من أعمالهم حتى يبدءوا فى مشاهدة التليفزيون ، وقد ثبتت أعينهم على تلك الشاشة الصغيرة يتلقون منها الأوامر والنصائح والتسلية ، وقد جلس الجميع فى سلبية الواحد منهم قبالة الآخر لا يؤثر فيه ولا يتأثر به . وما يكاد ينتهى العرض التليفزيونى حتى ينصرف الجميع إلى الفراش للاستيقاظ فى الصباح مهرولين إلى الأعمال والمدارس؛ ليبدأوا يوما جديدا فى فُرْقة وتباعد جسمى وعقلى ونفسى واجتماعى . وكثيرا ما يتردد على ألسنة الموظفين بالمكاتب عبارات تنم على المودة والعلاقات الوجدانية التى لا تتوافر للأزواج والأبناء بالأسر . ويصرخ بعضهم بالقول: بأن الوقت الذى يقضيه فى العمل وفرص الاتصال النفسى والعقلى والاجتماعى أكثر بكثير مما يتوافر فى البيت .

ولعل انكماش الأسرة يعد أيضا من الجوانب الهامة التى أصابتها بما يشبه

الانهيار. وأول مظاهر هذا يتجلى فى سلطة الرجل فى الزواج. لقد كان بمستطاع الرجل قديما أن يتزوج ما يمكن أن يصل إليه من نساء وأن يتصل جنسيا بما يستطيع أن تمتد إليه يده من جوار ونساء مسبيات فى الحروب. وكانت سلطة الرجل مطلقة فى تسريح من يرى تسريحه من زوجاته وإمائه ومسبياته. وكان من سلطة الرجل أن يعاقب الزوجة بالضرب إذا أخطأت، وكان لا يلام أو يسجن إذا هو قتل إحدى جواريه أو إحدى مسبياته. وحتى بالنسبة للأبناء والبنات، فقد كان بمكنة الرجل أن يوقع عقوبة الإعدام على من يرى أنه مستوجب لذلك. كان العرب فى الجاهلية يئدون البنات، وكان من حق الأب أن يقتل ابنته إذا قامت بينها وبين أحد شبان القبيلة أو شبان إحدى القبائل الأخرى علاقة حب.

أما اليوم فإن الأب والأم مسئولان عن الحفاظ على الطفل، بل إنهما ملزمان بتمكين السلطات الصحية من رعايته بالأمصال والعقاقير الواقية والعلاج مما قد يصيبه من أمراض، كما أنهما مسئولان عن إسعافه إذا أصيب بجراح أو حروق أو بغير ذلك من إصابات. وأكثر من هذا فحتى إذا أصاب الطفل مكروه وهو بعد قاصرٌ فإن سلطات الأمن تستجوب الوالدين وتوقع عليهما العقوبات إذا ما ثبت أنهما أهملا فى الحفاظ عليه فى إبعاد الأخطار عن متناوله.

وأكثر من هذا فإن السلطات القانونية إذا ثبت لها أن أحد الوالدين أو هما جميعا غير جديرين بالأبوة أو الأمومة، فإنها تقوم بنزع الطفل منهما وإيكال تربيته إلى مؤسسات اجتماعية أخرى غير الأسرة.

وليس من حق أحد أن ينجب بغير أن يكون مسئولا عن الإنفاق على ذريته ورعايتها حتى سن معينة تحددها الدولة. وإذا رفض الأب – أو الأم إذا كانت قادرة على الإنفاق على أبنائها القصر – فإن بمقدورهم أن يطالبوا الجهات القضائية بإلزامهما بتخصيص جزء معين من الدخل ينفقون منه عليهم؛ حتى يعيشوا فى أمان ضد الجوع والعوز.

وبعد أن كان الوالدان يوجهان الطفل الوجهة التى يرغبان فيها ، ظهر علم النفس التربوى ، وأخذ علماؤه ينادون بضرورة مراعاة ما لدى الطفل من استعدادات وميول وعدم الجرى وراء رغبات أولياء الأمور فى توجيه الطفل دراسيا أو مهنيا . ولعل الاتجاه التربوى الحديث يعمد إلى نزع سلطة التوجيه التعليمى والمهنى من الوالدين وينوطها بالمدرسة وبالمؤسسات الاجتماعية والنفسية التى انتزعت من الأسرة هذه المسئولية وخصت نفسها بها . فاليوم لا يستطيع الأب أو الأم أن يقولا : « سنلحق ابننا أو بنتنا بالثانوى العام أو بكلية الطب مثلا » . إن هناك معايير خارج نطاق سلطان الأسرة تحدد ما إذا كان الابن أو البنت يلتحق بالثانوى أم لا ، أو يلتحق بالجامعة أو لا . هناك تنسيق لا يتبع الأسرة ، بل يتبع وزارة التعليم أو يتبع وزارة التعليم العالى ، وله الكلمة الأولى والأخيرة فى تحديد مستقبل الشاب والشابة . ولم يتبق للآباء والأمهات سوى الوظيفة التشجيعية لحث الشاب والشابة على الاستذكار والانتظام فى الدراسة .

ولم تعد الأسرة أيضا ذات سلطة بإزاء مسائل الزواج كما كان حالها فى القديم . كان الأباء والأمهات يحددون مستقبل الطفل وملامح حياته الزوجية المقبلة من يوم ميلاده . فكان يحدد منذ الطفولة بمن ستتزوج المولودة التى لم تكن تفتحت عيناها على الدنيا . ولم يكن للشاب أوالشابة أن يعارضا الوالدين فيما اختاراه لهما من شركاء فى الحياة . كانت القيم الأخلاقية تنص على ضرورة الاستسلام لإرادة الكبار فى الاختيار أما العصيان فى هذا الشأن فمعناه الخروج على الأخلاق الكريمة ، ومعناه: المروق من صف الفضلاء ، والانخراط فى صف السفلة المنحطين .

ولقد كانت سلطة الوالدين بإزاء الأبناء والبنات تهدد الشاب والشابة إذا هما فكرا فى المروق من الصف الأسرى . كانت الأسرة تعتمد فى الغالب على الزراعة كمورد للرزق ، وكان يتبع هذا امتلاك الأطيان والمواشى والبيوت . وكان

الاستقرار هو التقليد السائد ، فلم يكن الابن أو البنت يتركان منزل الأسرة أو مقرها بعد الزواج . وكان مصير من تساوره نفسه بالخروج على إرادة الوالدين فى مسائل الزواج هو الطرد من مقر الأسرة والإبعاد عن مسقط الرأس ، فيصير شريدا منبوذا ، وكان بمقدور الوالدين حرمان ذلك المارق من الإرث كله ، فيضحى فقيرا معدما ، أما البنت المارقة فإنها كانت مهددة باستمرار بالقتل حتى ولو بعدت عن مسقط رأسها هارية مع من لعب بقلبها وشجعها على الهروب معه من سلطة الوالدين .

ولكن الحال اليوم غيره بالأمس القريب – بل بالأمس البعيد – ذلك أن الأسرة الحديثة لا تعتمد فى الغالب على ماتدره عليها الأرض من خيرات . وأكثر من هذا فإن الأسر الحديثة لم تعد مستقرة فى بيت واحد أو فى عزبة واحدة ، ولم يعد الولد أو البنت يقطنان نفس المكان أو حتى نفس الحى أو نفس البلدة أو المدينة . صار الانتقال وعدم الاستقرار هما الطابع العصرى ، وصار الحصول على الأجر نتيجة العمل الفردى هو الأساس فى ميزانية الأسرة . وبالتالى لم يعد هناك تهديد يمكن أن يوجه من الآباء والأمهات بالتجريد من الميراث إذا ساورالمروق بال الشاب أو الشابة . وحتى الميراث آخذ فى التقلص شيئا فشيئا نتيجة الاتجاه العام نحو تحديد الملكية ونحو دخول الحكومة كوريثة مع الورثة فى التركة . ناهيك عن الاتجاهات الاشتراكية التى تعم أرجاء العالم والتى من شأنها أن تقلل من فرص الطبقية والاستحواذ على الثروات التى يمكن أن تكون سلاحا فى أيدى الآباء والأمهات للضغط على الأبناء والبنات فى التوجيه بعامة وفى مسائل الزواج خاصة .

المدرسة ضلت طريقها السليم

نشأت المدرسة أول ما نشأت على مسرح الحياة الاجتماعية؛ لتكون مجالا تتجمع فيه الخبرات الحية ، بحيث يتسنى نقلها إلى الأجيال الناشئة بأكثر سهولة

وفى أقل وقت وعلى أيدى أشخاص لهم دراية معينة فى وسائل نقل تلك الخبرات . وطبيعى أن الخبرات التى كان يراد نقلها كانت حية ولها صلة وثيقة تماما بالحياة العملية .

ولكن الحضارة الإنسانية لم تستمر على حالها من البساطة والفجاجة التى كانت عليها وقت نشأتها . فلقد أخذت الخبرات البشرية فى التزايد والتراكم ، وبالتالى ظهرت الحاجة إلى تخصصات؛ لأنه ثبت أن الشخص الواحد لا يستطيع أن يهضم جميع الخبرات المتراكمة ، وبرزت الحاجة الملحة إلى التخصص . فظهر المدرسون المتخصصون فى فروع مواد مختلفة ، وبحيث لم يعد كل منهم مهتما لا بمادة واحدة أو بفرع من مادة .

ولكن نتائج تخصص المدرسين لم تنعكس على عملية التدريس فحسب ، بل كانت لها أيضا آثار أخلاقية . فلقد صار المدرسون لا يعيرون اهتماما بسلوك التلميذ، بل صار كل اهتمامهم مركزا فى الناحية التحصيلية التى تتصل بتخصصهم ، وصار المدرس يدخل الحصة؛ ليدرس شريحة من المنهج المقرر ، بغير التفات إلى ما يصدر عن التلاميذ من سلوك . وأكثر من هذا فإن المدرس الذى يترك منهجه المقرر ويولى اهتمامه بالسلوك يعد من وجهة النظر التعليمية شخصا يترك الجوهر – وهو التعليم – وينصرف إلى المظهر وهو الأخلاق والسلوك والقيم . ولقد يقول له ناظر المدرسة أوالموجه: « إنك تصرف جهدك فيه يقع فى نطاق مسئولية غيرك » . ولعل كل واحد من المدرسين ومن المتعاملين مع التلميذ فى المدرسة يقول لنفسه: « ليست أخلاق التلاميذ من مسئولياتى ، بل هى من مسئوليات آخرين لاأدرى من هم » .

ولقد كان من المفروض أن تكون المدرسة مكانا يمكن أن تنمو فى نطاقه شخصية التلميذ ككل نموا متكاملا ، ولكن الذى حدث هو تركيز المدرسة – بما تتضمنه من مناهج – على ناحية واحدة هى الناحية التحصيلية . وإذا أنت

تصفحت المواد الدراسية المقررة ؛ إذن لوجدت أن الغالبية العظمى منها تعتمد اعتمادا أساسيا – إن لم يكن اعتمادا مطلقا – على الذاكرة . أما غير ذلك من استعدادات وقدرات عقلية – كالخيال والذكاء والتصور والإدراك والمقارنة والتوقع ، وبالجملة تعليم التفكير الصحيح – فإنها لا تحظى إلا بالقليل من الجهد. ناهيك عن أن التربية التى تتحيز للفكر وحده ليست هى أحسن نوع من التربية . ذلك أن الحياة ليست عمليات فكرية مجردة بل هى واقع حى ولقد وجد أن نجاح الإنسان فى الحياة لا يعتمد على حسن تفكيره فحسب ، بل يعتمد بالإضافة إلى هذا – بل وقبل هذا – على عناصر أخرى فى الشخصية هى ما نسميه فى حياتنا اليومية باسم الخبرة . فنقول: إن فلاناً كثير الخبرة ، وفلانا قليل الخبرة . ونحن فى الواقع لا نقصد بالخبرة إلا تلك العناصر العملية المتعلقة بالكياسة وحسن تناول الأمور والنظر إليها من زاوية الواقع لا من زاوية الفكر. فالشخص صاحب الخبرة ليس هو الشخص الذى يريد أن يكيف الواقع تبعا لما علق فى ذهنه من نظريات درسها، واستقاها من الكتب ، بل هو الشخص الذى يستطيع أن يركز ذهنه فى الواقع الملموس الموجود أمامه فى الحياة ، ويتناوله بكل ما لديه فى شخصيته من معرفة وبصيرة ، وليس بنظرية يعتنقها أو بفكرة بالذات . إنه يعالج الواقع بالمناسب مما يعرفه ويحسه ويدركه ويرى أنه أفضل طريق لتناوله ومعالجته .

وكان الواجب أن تكون المدرسة مجالا أرحب من البيت ، بحيث يمكن الاعتماد عليها فى سد ما ينقص البيت – أو الشقة بتعبير أدق – من شروط صحيحة ، كان الواجب أن تكون أنقى هواء، وأسطع شمسا ، وأقوى إضاءة من البيت . وكان الواجب أن ينهض العاملون بالمدرسة بما يلزم التلميذ من تغذية ومن تربية رياضية ومن وسائل للترفيه والرعاية الصحية على اختلاف ضروبها وفنونها . ولكن الواقع اليوم أن الزحام قد زحف إلى المدرسة ، صار طالبو

الخدمات الصحية من المدرسة أكثر عددا مما يمكن أن تسد المدرسة حاجاتهم ، وقد نجم عن كثرة الوافدين إلى المدرسة طلبا للعلم ، أن اضطرت الإدارات التعليمية إلى إقامة المبانى فى الفراغات التى كانت تستخدم ملاعب وأفنية يتحرك فيها التلاميذ ويمرحون . وحتى المتنزهات التى كانت بين الأحياء والمدن صارت تحول إلى مدارس تسد العجز فى الأماكن المطلوبة لجلوس التلاميذ. ولاشك أن زحام الفصول بالتلاميذ وازدحام المدرسة بعامة مجلبة للأخطار الصحية ولضيق الصدر والتبرم بالحياة وعدم القدرة على التعبير عن الذات بالتحرك والجرى والقفز ونحو ذلك مما كان يسعد به الإنسان قديما .

ولا يكفى أن ننظر إلى مشكلة إهمال التربية الرياضية من زاوية الإمكانات فحسب بل يجب أن ننظر من الزاوية الصحيحة ، فنقرر أن هناك أيديولوجية خطيرة تسيطر على عقول المسئولين عن تربية الناشئة. هناك إيمان بالعقل والعمليات العقلية وحدها ، وليس هناك إيمان بالجسد . المهم فى نظرهم هو نمو التفكير عند التلميذ ، أما صحته وترعرعه الجسمى فإنهما يأتيان عرضا وبغير اهتمام . ولا يقاس نجاح إحدى المدارس إلا فى ضوء نتيجتها فى آخر العام ، وهى نتيجة ما حصله التلاميذ بعقولهم . ولا ينظر إلى النشاط الرياضى إلا باعتباره شيئا ثانويا لا يؤثر كثيرا فى موقف المدرسة بين المدارس المتباينة . كان الأولى أن تقاس نتيجة المدرسة فى ضوء مدى قدرتها على صيانة صحة ونشاط التلاميذ جسميا ، قبل قدرتها على صيانة عقولهم وحشدها لذاكرتهم بالمواد الدراسية .

ولكن الفلسفة اليونانية ظلت مسيطرة على عقليتنا التربوية منذ عصر سقراط حتى الوقت الحاضر . وعلى الرغم من أن اليونان أنفسهم كانوا يهتمون جدا بالتربية الرياضية لناشئتهم ، فإن تعاليمهم التربوية قد خلقت لنا فى جملتها إهمالا لكل ما يتعلق بالناحية الجسمية .

ومما يزيد الطين بلة تلك المباريات السنوية العقلية التى يجبر أبناؤنا وبناتنا على الدخول فى دوامتها . تلك المباريات هى الامتحانات . لم تعد الامتحانات مجرد مقياس يتحدد فى ضوئه النجاح أو الرسوب ، بل صارت أكثر من هذا محكا للتقدم فى الحياة أو للفشل فى المستقبل . صار امتحان الابتدائية بمثابة حاجز أمام التلاميذ يذكرنا بسباق الحواجز . فمن يستطيع القفز عقليا على تلك الحواجز العقلية فإن بمقدوره الالتحاق بالمرحلة الإعدادية . وفى نهاية هذه المرحلة تقام الحواجز من جديد . ومن يستطيع التغلب عليها ويحصل على المجموع الأكبر ، فإن بمكنته أن يلتحق بالثانوى العام . وفى نهاية المرحلة الثانوية يقام حاجز آخر وهو حاجز ضخم ، ولا يسمح لمن ينتهون من المرحلة الثانوية بالالتحاق بالجامعة إلا إذا ثبت أنهم قادرون على القفز العالى من فوق ذلك الحاجز الضخم بمجموع ضخم .

وعلى الرغم من أن الفاشلين فى سباق الحواجز يستطيعون الانخراط فى سلك جديد فإن نظرة المجتمع إلى أولئك الذين يعجزون عن تخطى الحواجز لاتزال نظرة ازدراء وإشفاق . إنهم يعتبرون أن الحثالة هى التى لم تستطع تخطى الحواجز . ومن ثم فإن الدراسات الأخرى المخالفة للخط البادئ من الابتدائى حتى الجامعة إنما تعتبر وسائل ترقيعية لسد الرمق ، وللخروج بأولئك الفاشلين من الورطة التى وقعوا فيها . ولا يسلم الفاشل فى تخطى الحواجز من التقريع والاتهام بالغباء مرة ، وبالإهمال وعدم الإحساس بالمسئولية مرة أخرى . ولانزال نربط بين الفشل فى الدراسة وبين سوء الأخلاق ، ثم بين النجاح فى الدراسة وبين النجاح فى الحياة ، بل والنجاح فى الأخلاق الاجتماعية .

ومع علمنا بأن هذا المقياس زائف ، فإننا كثيرا ما نقنع أنفسنا به . إنك إذا قابلت أحد الأطباء أو أحد المهندسين ، فإنك سرعان ما تقول لنفسك: « هذا إنسان ذكى ومادام ذكيا ، فلا بد أنه على خلق عظيم » وعلى عكس هذا فإذا أنت

قابلت طالبا راسبا فى الثانوية العامة فإنك ستقول لنفسك: « هذا طالب راسب ، إذن فهو غبى وبالتالى فهو سيئ الخلق » وبديهى أن الطبيب قد يكون سيئ الأخلاق كما قد يكون الطالب الراسب حسن الأخلاق .

وإنك لتجد آباء وأمهات ومدرسين وشخصيات اجتماعية متباينة المشارب والاتجاهات تجمع على الرأى حول نقطة واحدة هى أن النجاح فى الحياة العملية هو محك الشخصية . وهذه النظرة الماكيافيلية على جانب كبير من الخطورة ؛ لأنها تعطى جميع القيم إجازة مطلقة ، ولا تبقى إلا على النجاح فى الحياة مقياسًا للنجاح والأخلاق الكريمة . يقول لك بعض هؤلاء: « إن كثيرا من القيم التقليدية منافية للنجاح فى الواقع ، بل هى مدعاة للتأخر والتدهور فى الحياة ». ويقولون لك أيضا: « إن الحياة الحضارية بحاجة إلى قدر كبير من المرونة ، أو بالأصح النفاق ؛ حتى يستطيع الشخص أن يسبر طريق النجاح . أليس الكذب والفهلوة هامين فى كثير من المواقف ؟ » وواضح أن مقياس نجاح الشخصية بالنجاح فى الحياة العملية أو المهنية مقياس فج وناقص ؛ لأن هناك زوايا كثيرة يجب أن يكون الإنسان ناجحًا فيها جميعا . طبيعى أن الطبيب الناجح فى حياته كطبيب، وفاشل فى حياته كزوج هو إنسان فاشل ، والواجب أن ينجح فى الناحيتين : فى الطب وفى الزواج ، ولا تعارض بين نجاحه فى الطب وبين نجاحة فى الحياة الزوجية .

وحتى النجاح فى الحياة العملية لا يعتمد حاليا على تدريب مفيد فعال يتلقاه الشخص بالمدرسة ، بل يعتمد على عناصر أو عوامل عارضة تقيض للشخص بالاتفاق والصدفة . ولعلك إذا سألت مجموعة من الأشخاص الناجحين فى حياتهم العملية عن سر نجاحهم وهل مرده إلى المدرسة ، إذن لأجابوك جميعا ، بأن سر نجاحهم إنما يرجع إلى عوامل أخرى غير المدرسة ، عوامل أفادوها من مجابهة الواقع بشجاعة وبأنفسهم ، ولعلهم تأثروا بطريقة عارضة

بأحد المدرسين أو بإحدى الشخصيات بالمجتمع ، ولكن تأثرهم حتى بمدرسيهم لم يكن مرسوما ولم يكن مقصودا . إنهم يقولون لك : إن جوهر العمل المدرسي – وهو المناهج – لا يكفي لمجابهة الحياة والتفوق فيها ، وإن هناك مقومات هامة فات على المدرسة إدراجها ضمن نطاقها ، وكان يجب عليها أن توليها عنايتها بالدرجة الأولى؛ لأنها أهم من المناهج والمقررات والامتحانات وغير ذلك من مناشط دراسية .

والواقع أن توظيف ما يدرس بالمدرسة وتوظيف كل منشط من مناشطها ، لمما يجب الاهتمام به وتقويم المدرسة فى ضوئه . إنك إذا سألت الطالب بإحدى المراحل الدراسية: « لم تدرسون مادة كذا ؟ » إذن لأجابك بقوله: « حتى نمتحن فيها فى آخر العام » ولكأن الامتحان فى آخر العام صار هدف الأهداف جميعا فى الحياة . وليس فى مقدور الطالب أن يقرر لك ما إذا كان سيفيد مما يدرسه حاليا فى حياته العملية فى المستقبل أم لا . ولقد ثبت فى علم النفس ، بل وفى الخبرة اليومية العادية أن كل ما نتعلمه بغير أن نوظفه فى موقف حى إنما يكون مصيره إلى الزوال من نطاق حياتنا . وخير مثال على هذا اللغة اللاتينية التى يدرسها طلبة كلية الآداب ببعض الجامعات المصرية . إن الطالب ما يكاد ينتهى من دراستها حتى تتبخر دراسته لها ولا يذكر شيئا مما تعلمه بعد أقل من ثلاثة أشهر على انتهائه من دراستها ، اللهم إلا إذا كان واحدًا من أولئك الطلبة المهتمين بإرجاع ما يقرؤه فى الإنجليزية والفرنسية إلى أصوله اللاتينية .

وكلما كانت المواد غير مرتبطة بحياة التلميذ اليومية فإنها تكون كالنقش على الماء . لا يكفى أن نسرد ما استذكرناه على الورق . المهم هو الاستعمال اليومى . ولعلك تقابل كل يوم أشخاصا يجيدون النحو إجادة تامة ، ولكنهم لا يجيدون الكلام باللغة العربية أو الكتابة بها . وإذا فحصت الواقع ، إذن لتبينت أنهم لم يوظفوا ما تعلموه بل قصروا نطاقه على أذهانهم ، وحفظوا وفهموا لورقة الإجابة فى آخر العام وليس للاستخدام اليومى فى الحياة اليومية .

والأصل فى الدراسة أن ترتبط بالميل الشخصى وأن تكون هواية . ولكن جعل الدراسة شيئا مفروضا على التلميذ أو الطالب ، يحيل المدرسة إلى مكان بغيض إلى النفس؛ كان الواجب أن يقوم التلميذ أو الطالب باختيار ما يدرسه ولكن الذى يحدث بالفعل غير ذلك – الذى يحدث هو إجبار المتعلم على الدراسة . وأكثر من هذا فإن ثمة وسائل عنيفة تستخدم فى التعليم كالضرب والتوبيخ وغير ذلك من وسائل عنيفة تبغض التعليم إلى التلاميذ ، وتجعل مرحلة الدراسة عبئا ثقيلا لا تكاد النفس تتحمل ثقله .

وإمعانا فى عدم مراعاة ميول الطالب الحقيقية ؛ فإن المقياس الذى يوجه الطالب فى ضوئه ليس الميل ، بل مجموع الدرجات . إن الطالب يجد اسمه من بين المقبولين بكلية التجارة مثلا ، مع أنه لا يحب أن يدرس شيئا عن التجارة. ولكن المسئولين عن التنسيق بين الطلاب يحتمون عليه ذلك لأن مقياسهم موضوعى . إنهم يحيلون الشخص الإنسانى إلى رقم حسابى ، ثم ترتب الأرقام الحسابية – وهو واحد منها – فى قوائم ، ثم تفرغ الأرقام فى الأماكن الشاغرة بالكليات . وواضح بغير برهان أن قياس القبول فى ضوء هذه الاعتبارات الموضوعية يحرم الإنسان من إنسانيته ، ويجرده من كيانه السيكلوجى ويكسبه كيانا رقميا غير واقعى .

وإنك لترى اليوم أن الدراسة تقوم فى ضوء مدى فاعليتها فى المستقبل المرتقب؛ ففى الثانوى يقسم الطلبة إلى قسمين : قسم مخصص لأولئك الذين يتوقع لهم مستقبل باهر ، ثم قسم لأولئك الذين لا يتوقع لهم إلا مستقبل محدود . والقسم الأول هو القسم العلمى ، وهو الذى سيصيب خريجوه فى كليات الطب والهندسة وما إليهما من كليات تبشر بمستقبل باهر . أما القسم الثانى فهو القسم الأدبى ، وهو القسم الذى سيصب خريجوه فى كليات الآداب والحقوق وما إليهما من كليات محدودة المستقبل وضيقة الرزق . ومعنى هذا: أن الطالب الذى يجد

لديه ميلا نحو الدراسات الأدبية يخشى الإعلان عن ذلك لوالديه وذويه؛ حتى لا يقال عنه إنه شاب لا يعرف قيمة مستقبله ، ومن ثم فإنه يصمم على الالتحاق بالقسم العلمى؛ حتى يشار إليه بالبنان ، وحتى يحسب ضمن فئة الأذكياء الناجحين فى الحياة .

وعلى الجملة فإن المدرسة قد صارت لاتحسب الأمور بحسابها الصحيح الدقيق بل تحسبها فى ضوء معايير غير صالحة ، ومن ثم فإنها لا تؤدى وظيفتها الأصيلة التى خلقت على مسرح الحياة من أجل تحقيقها ، أعنى: إعداد الناشئة الإعداد الصحيح النابع من القوام الجوهرى والحقيقى للشخصية الإنسانية .

أزمة الشباب الجامعى :

لا شك أن الغالبية العظمى من الطلاب وقد اجتازوا الثانوية العامة واقتربوا من باب الجامعة أخذوا يفكرون فى ذلك المجال الاجتماعى الجديد الذى بدأوا ينخرطون فيه وحيث يجد الشاب أنه قد صار زميلا للشابة فى نفس الكلية بل وفى نفس القسم الذى يدرج اسمه فيه . ولا شك أيضا أن كل شاب قد رسم لنفسه فلسفة سوف يعمد إلى اتباعها بإزاء هذا الوضع الاجتماعى الجديد . فهناك من الشبان من يرسم لنفسه سياسة متزمتة تقضى بعدم مخالطة الزميلات على الإطلاق أو أن يخالطهم فى أضيق نطاق ممكن بينما نجد من جهة أخرى شبانا وشابات آخرين قاموا برسم سياسة تساهلية بإزاء الجنس المقابل . وهناك بلاشك أطياف كثيرة بين هذين الطرفين المتباعدين : طرف المتزمتين الذين يرفضون الاختلاط ، وطرف المتساهلين الذين يأخذون أنفسهم بالاختلاط إلى أبعد حد ممكن .

وتتخذ كل فلسفة أو سياسية يرسمها الشباب لأنفسهم صيغا سلوكية محددة المعالم فى رحاب الجامعة . فثمة فريق جعل بينه وبين الفئة الأخرى

التى تضم الجنس الآخر سدا منيعا لا يمكن اجتيازه ، بينما تجد فريقا آخر يرحب بالاختلاط ويرى فيه شيئا طبيعيا وغنى عن القول أن كل فريق يحس بأن أصحاب الفريق الآخر مخطئون أشد الخطأ فيما انتحوا إليه من سلوك . فالفريق الانفصالى يتهم الفريق الاختلاطى بأنه خارج على القيم التى يقضى بها التراث ، بينما يذهب الفريق الآخر - أعنى: الفريق الاختلاطى- إلى القول بأن فريق الانفصاليين قد اختار لنفسه موقف التزمت والرجعية .

ويرتبط هذان الموقفان المتعارضان بإزاء الاختلاط أو عدم الاختلاط بالجنس الآخر بما ينحو إليه أفراد كل فريق من زى يرتدونه . الانفصاليون يهتمون بالحشمة كشارة تدل عليهم ، بينما يتخذ المختلطون لأنفسهم شارة أخرى تتبدى فى الزى المتطور . والشابات من فريق المحافظين قد آثرن الإمعان فى الحشمة واخترن زى المحجبات الذى يخفى معظم معالم الجسم ، بينما تهتم الشابات من أفراد الفريق الآخر بالتأنق وإبراز مفاتن الجسم والظهور بمظهر الجمال الأنثوى الحديث بحيث لاتكاد تجد فرقا بين الواحدة منهن وبين أية شابة أمريكية أو فرنسية .

وتتضح أزمة الشباب الجامعى فى أن الاختيار بالنسبة للاختلاط أو للزى أو لتصفيف الشعر لا يتم عن وعى وإدراك ، بل يتم فى الغالب نتيجة التقليد والانخراط فى تيار جارف يدفع بهم فى بمنحى ما ، ولكأن الجماعية تسوق الشباب الحديث بحيث لا تكاد تجد للاختيار الفردى المنبثق عن دخيلة الشخصية أى أثر أو أية فاعلية . المفروض أن يقع الاختيار نتيجة فكر شخصى بالنسبة للشاب الجامعى والشابة الجامعية وقد بلغا أعلى مرتبة من مراتب التعليم ، ولكن الاندفاع فى تيارات جماعية تسوق مجموع الشباب وتؤثر فيهم ، إنما يجعل من الشباب الجامعى جمهرة لا تختلف اختلافا بينا عن أية جمهرة غير مثقفة . والواقع أن الشخصية المثقفة يمكن أن تعرف من هذه الزاوية؛ لكى نباين بينها

وبين الشخصية غير المثقفة . فالشخص المثقف يستطيع أن يختار لنفسه وبنفسه، أما الشخصية غير المثقفة فإنها لا تستطيع أن تختار ولا تستطيع أن توازن بين أكثر من موقف، لكي يقع اختيارها النهائي على موقف محدد بعد عمل موازنات ومقارنات عقلية تعتمد على أصول فكرية منطقية وموضوعية .

ولسنا بهذا نريد أن نجعل من الشباب الجامعي شخصيات عقلانية بحيث لا تفسح في دخائلها مجالا للمسائل الإيمانية المتعلقة بشيء أو بآخر من موضوعات الحياة ، وإنما نريد فقط أن نجعل هناك فارقا بين إيمان المثقف وإيمان الجاهل . فإيمان المثقف إيمان مستنير ومنبعث عن فكر واضح بحيث يجد ركيزة ذهنية يقيم عليها موضوع إيمانه ، أما الجاهل فإنه لا يجد ركيزة يستند إليها فيما يؤمن به ، بل هو يؤمن إيمانا أعمى لا دخل للعقل فيه من قريب أو من بعيد .

والواقع أن الفارق الجوهري بين هذا الشباب الجامعي وبين نظرائه من شباب بدائيين – أو حتى شبه بدائيين – هو أن الشباب الجامعي يبدون متمتعين بحرية أكثر من حيث ظاهرية السلوك . ولكن الواقع أن شباب البدائيين كانوا أكثر قدرة على الاختيار من الشباب الجامعي الحديث . فالضغوط الاجتماعية شديدة الوطأة على الشباب الجامعي الحديث بحيث لم يعد ثمة سبيل أمام الواحد منهم للاختيار بإزاء الزي أو تصفيف الشعر . لقد يبدو من حيث الظاهر أن الشاب الحديث مخير فيما ينتحي إليه بإزاء اختياراته المتعلقة بالزي أو تصفيف الشعر. وغير ذلك من مظاهر وأدوات ، ولكن الواقع غير ذلك تماما . ذلك أن الضغط المعنوي والنفسي أشد وطأة بكثير من الضغط المباشر . ولقد نستطيع أن نقول: إن الضغوط الحديثة التي كان يتعرض لها الشباب القديم كانت ضغوطا مباشرة بينما نجد أن الضغوط الحديثة التي يتعرض لها الشباب الجامعي وغيره من شباب هي ضغوط غير مباشرة ، إنها ضغوط مغلفة بغلاف من الحرية الظاهرية

بحيث لا يكاد الشباب الحديث اليوم يدرك أنه مضغوط عليه بأية ضغوط خارجية. ولسنا بهذا نبرئ المجتمعات البدائية من الضغوط على أبنائها سواء بالناحية الواقعية أو بالنواحي النفسية ولكن الذي نؤكده هو أن المجتمع الحديث المتحضر ليس مبرءًا من ممارسة الضغوط النفسية التي يعوض بها الضغوط المباشرة التي كان المجتمع البدائي يمارسها بإزاء أبنائه .

ولعلنا نستطيع بلورة المشكلة من زاوية أخرى وبإزاء موضوع الزي وتصفيف الشعر وغيرهما من موضوعات ، وذلك في ضوء الإيجابية والسلبية . فنقول إن الشباب الجامعي الحديث لم يعد - أو كاد - لا يلعب دورًا إيجابيا في حياته . وإذا سمحنا لأنفسنا بترك الزي والشعر جانبا واتجهنا إلى جوانب أخرى من حياة شبابنا : إذن لوجدنا أن مبدأ الإيجابية قد أخذ في الخفوت إلى أقصى حد ممكن ، وأن مبدأ السلبية هو الذي صارت له السيادة على حياة الشباب . ولنضرب مثالا باختيار الشاب للكلية التي ينخرط فيها . لقد سبق أن ذكرنا: أن الشاب الحديث يلتحق بالكلية التي يقوم بالدراسة فيها لا عن اختيار شخصي بل عن إجبار اجتماعي . والأصل في الدراسة أن تقوم على الاختيار الشخصي والتذوق الفردي لما يقوم الإنسان بدراسته . فالعلم في أصله عشق للطبيعة أو للقيم ، ولكنه استحال إلى ضغط اجتماعي بغير هدف واضح من جانب الشاب . إنه يدفع به إلى إحدى الكليات بغير أن يكون هناك اختيار من جانبه لتفضيلها على غيرها من كليات . فالمجموع الذي حصل عليه في الثانوية العامة كان الفيصل الوحيد الذي دفع به وخرطه في الكلية التي يوجد بها اليوم . فحاضر الطالب الجامعي ومستقبله هما نتيجة لضغط اجتماعي حيث اتخذ الشاب الموقف السلبي البحت وأسلس قياده؛ لكي يدفع به كيفما يشاء المنسقون الذين صاروا أولياء أمور حقيقيين له . فالشاب الذي خدع نفسه بأنه قد شب عن الطوق وأنه صار حرا في تحديد خطوط مستقبله يجد نفسه فجأة وقد استحال إلى شيء يقذف

به قذفًا إلى إحدى الكليات التى لم يفضلها على غيرها ، بحيث لا تكون له حيلة إلا أن يصب جهوده للتواؤم معها وتكييف قدراته العقلية مع ما تتطلبه دراستها من جهود وإعداد ذهنى .

وليست المسألة متعلقة باختيار الكلية فحسب ، بل تتعدى ذلك إلى النهج الذى تضرب الجامعة فيه اليوم . لقد كان الأساس فى الدراسة الجامعية قديما هو البحث العلمى الذى يضطلع به الطالب . لم تكن هناك مقررات محددة ومحدودة كما هو الحال اليوم . كان الأستاذ هو الذى يضع خطوط الدراسة ويحدد معالمها، ولكن حتى ذلك لم يعد من سلطة الأستاذ الجامعى ، بل صار ملتزما بمنهج محدد الحدود والأبعاد ، وقد صار غير مختلف فى هذا الصدد عن مدرس المراحل التعليمية غير الجامعية كالابتدائى والإعدادى والثانوى . وأكثر من هذا فقد تقررت الكتب ووضعت الملخصات وأخذ الشباب الجامعى يصبون المعرفة فى عقولهم – استغفر الله بل فى ذاكرتهم فقط – وذلك لكى يقذفون بها على الورق فى امتحان آخر العام . ومعنى هذا فى الواقع: أن الشباب الجامعى قد فقدوا أهم مقوم من مقومات الفكر الحر ، وهو البحث المتحرر من القيود والضغوط الخارجية . لقد صار المقرر والامتحان يهددانهم ويجعلان منهم شخصيات منغلقة غير متفتحة على آفاق الفكر المتحرر .

والواقع أن الشباب الجامعى لم يعودوا يحسون بقيمتهم الذاتية أو حتى بقيمتهم فى نظر المجتمع ؛ ذلك أن الشاب الجامعى اليوم يحس بأنه قليل القيمة إذا ما قيس فى ضوء القيمة التى كان يتمتع بها الشاب الجامعى قديمًا . ونفس الشيء بالنسبة للشابة الجامعية . فلم تعد الشابة الجامعية تحس بأنها فلتة زمانها وأنها قد أتت بما لم تأت به الأوليات من بنات حواء . لقد كان الشباب الجامعى قديمًا يحس بأنه يسبر المجهول وأنه يرتاد آفاقًا جديدة لم يسبقه أحد إليها . ولكن الشباب اليوم يجدون أنهم نسخ مكررة من آلاف النسخ الأخرى مما

يجعل القيمة الذاتية فى نظر الشخص إلى نفسه قيمة ضئيلة واهنة لا تبعث فى النفس ثقة ولا تشبع غرور الشباب ، وهو الغرور الذى يعد الشرط الأساسى فى الإقدام وبذل الجهد العقلى والتفانى فى العمل واستهداف أهداف متجددة باستمرار .

والواقع أن المسألة ليست مسألة كثرة وقلة فى أعداد الطلاب فحسب ، وليست مجرد سبر للأغوار المجهولة وطموحًا إلى استكشاف الآفاق التى لم يسبقه أحد إليها ، بل هى أيضًا واقع مادى يجده الشباب الجامعى مظلما أمامهم . لقد كان الجامعيون قديما يحصلون على أكبر دخل بعد التخرج ، بل إن المستقبل الباهر كان فى انتظارهم بعد سنوات قليلة من التخرج . كان طالب الحقوق مثلا يتوقع لنفسه أن يصير وزيرًا فى يوم ما أو حتى رئيسا للوزراء ، وكان طالب الطب يتوقع لنفسه مكانة خطيرة فى المجتمع ، وقد نال حظا ذا بال من المال والرخاء، أما اليوم فإن الآية قد انقلبت . لقد صار أصحاب الحرف اليدوية هم الممسكين بزمام أكبر دخل فى البلاد . صار الدخل الكبير لا يجد طريقه إلى الطبيب الناشئ ولكنه يجد طريقه إلى جيب السباك والكهربائى وعامل البناء وغيرهم من أصحاب الحرف البسيطة التى لا تتطلب انتظاما فى سلك الدراسة بل لا تتطلب معرفة بالقراءة والكتابة والحساب . فكثير ممن يحصلون اليوم على أكبر الدخول هم من الأميين الذين لم يفلحوا بالمدارس . أما الذين شقوا طريقهم إلى أعلى عليين فى السلم التعليمى ومنهم الحاصلون على الماجستير والدكتوراة ، فإنهم لا يكادون يغطون مصاريفهم الشهرية بالمرتبات الضئيلة التى يحصلون عليها فى آخر كل شهر . صحيح أن المرتبات التى يحصل عليها الجامعيون تعد مرتبات ضخمة إذا ما قيست بمرتبات غيرهم من موظفين ، ولكن القوة الشرائية للجنيه صارت ضئيلة وقد أخذ الإقبال يشتد على الأيدى العاملة الحرفية فارتفعت أسعارها بحيث لا يمكن قياسها إلى ما يحصل عليه الموظف فى أى موقع وظيفى

بالدولة . تصور مثلا أن صاحب الحرفة يصل أجره فى اليوم الواحد خمسين جنيها ، أى: أن دخله قد صار فى الشهر الواحد ما يقرب من ألف وخمسمائه جنيه. فهل هذا المبلغ يمكن أن يحلم به أحد وكلاء الوزراء بل أحد الوزراء ؟

وطبيعى أن ينعكس هذا الحال الاقتصادى على نفسية الشباب الجامعى وبخاصة فى عصر يقاس فيه الناس بما لديهم من أموال . وهل يأمل أحد الشبان الجامعيين فى أن يحقق آماله وأحلامه بالزواج بعد التخرج بعد أن أغلقت أمامه جميع المنافذ المتعلقة بالسكن وشراء الأثاث ، أو حتى شراء أى جديد . إن كل شىء من حوله فى فوران بل وفى قفز من سعر إلى سعر أعلى . كيف يطمع إذن فى الحصول على حياة مستقرة مستقيمة ؟ وكيف يأمل فى أن يكون له أبناء وبنات ينفق عليهم فى مستقبل مجهول لا يعرف هل ستكون هناك فيه أبقار تذبح أو حتى البديل للحم يقيت به نفسه وأولاده ؟ وإذا كان هذا هو حال الشاب نفسيا ، فإن مثله أيضًا يساور قلب الشابة . من هنا فإن التوتر النفسى يشتد بثقله على كواهل الشباب ، فيحسون بالانقباض الشديد يعتصر نفوسهم لدرجة اليأس فى بعض الأحيان . يقول الشباب اليوم: « وماذا بعد التخرج » إننا نرى المستقبل غامًا غائما وليس هناك بصيص من الأمل؛ لكى نخرج إلى حياة رحبة مفروشة بالورود .

ونخشى أن نقول: إن تلك الهموم التى تجثم على قلوب الشباب الجامعى تصرف هم الشاب الحديث عن الجد والابتكار وتجعله يجتاز سنوات الجامعة؛ ليجابه مصيرًا محتوما لأن وقوع البلاء أفضل أو أخف وطأة من انتظاره . ولسنا نبالغ إذا قلنا: إن ما يعانى منه الشباب ينعكس على حياتهم الخاصة والعامة . ولقد يأتى تعبير الشباب عما يعانونه من يأس وقنوط فى صورة عكسية بحيث تراهم وكأنهم أسعد الناس . إنهم يضحكون ويتراشقون بالنكات ويلوكون الفكاهات التى يشاهدونها على شاشة التليفزيون . ولكن تلك المظاهر السلوكية

المعكوسة لا تدل على سعادة حقيقية تعتمل فى نفوسهم بل تدل على ذروة الشقاء وقد استفحل فى قلوبهم فيصدرونه فى صيغ مموهة تخدع المشاهدين . أما الشباب الذين يعبرون بصدق عما يساورهم من مرارة فى واقعهم ومستقبلهم ، فإنهم يبدون فى حيرة من أمرهم وقد ران عليهم الحزن وارتسم اليأس على ملامحهم . وسواء ضحك الشباب الجامعى أو تأوهوا فإنهم يعانون من أزمة لابد من الكشف عن نقابها .

أزمة الزيجات الجديدة

من العجيب أنه على الرغم من أن مجتمعنا الحديث قد أخذ بالاختلاط بين الجنسين إلى أكبر حد ممكن من الناحية الظاهرية ، فإننا من حيث الواقع والجوهر نلاحظ أن ثمة انفصالا أكيدًا بين الجنسين تنعكس آثاره حالما يقبل الشاب على اختيار شريكة الحياة ، وطبيعى أننا لا نقول عندما تقدم الشابة على اختيار شريك حياتها . ذلك أنه على الرغم من دعاوى الحرية التى يزعمها الكثيرون للمرأة ، فإنها لا تزال خاضعة إلى حد بعيد للقيود الاجتماعية التى تجعلها بصفة دائمة فى موقف التابع لرغبة الرجل والخاضع لمشيئته ولطلبه ليدها كما يقال فالمرأة الحديثة - برغم تحررها - لم تصل إلى حد طلب يد الرجل، لا بسبب الاستحياء أو لأنها تعتد بكرامتها كما قد يظن ، بل لأنها ما تزال تحس فى قرارة نفسها بأنها فى مجتمع لا يؤمن فى قرارة نفسه بالتساوى بين الجنسين . فالمساواة الراهنة محصورة فى نطاقين : نطاق التعليم ونطاق التوظف ، ولا تتعدى هذين النطاقين إلى أى نطاق كنطاق الزواج واختيار شريك الحياة مثلا .

وحتى بالنسبة للرجل فإن الانفكاك من القيود القديمة التى كانت تقيده وقت القيام باختيار شريكة الحياة إنما هو انفكاك صورى بحت وليس انفكاكا

حقيقيا . فلا تزال الغالبية العظمى من الزيجات تتم بمشيئة الكبار أو من يحل محلهم . فلا نزال نجد أن معظم الشبان لا يقبلون بأنفسهم للاختيار بل يكلون الاختيار لغيرهم . وحتى إذا ما جرؤ بعض الشبان على اقتحام الميدان وحدهم فيتقدمون إلى أهل العروس طالبين يدها ، فإنهم عندئذ يجدون من يصدهم بقوله: « أين الأهل ؟ إننا لا نزوج ابنتنا إلا على أيدى السيد الوالد والسيدة الوالدة » . وهكذا يجد الشاب فى تلك اللحظة أنه لا يزال خاضعا لوصاية والديه ، وأنه ليس فارس الميدان ، بل هو مجرد شخص خاضع لمشيئة الكبار . ومن ليس له كبير فليشتر لنفسه كبيرًا كما يقول المثل .

على أننا يجب فى نفس الوقت أن نقرر أن ثمة اصطراعا بين القيم الاجتماعية المتعلقة باختيار شريك الحياة أو شريكة الحياة . ولكن يجب أن نقرر أيضًا أن موضوع الجنس على كثرة الكتب التى تتوالى بالخروج من المطبعة حولها لتجد رواجا كثيرًا ، فإن تلك الكثرة وذلك التدفق إنما يدل بالفعل على التقلقل النفسى وعلى العراك الوجدانى فى نفوس الشباب حول موضوع اختيار شريك الحياة . فلقد تجد الشاب والشابة وقد أعلن كل منهما عصيانه بصوت مرتفع على القيم القديمة البالية التى تتعلق بالاختيار ، ولكنه للأسف عصيان أجوف . ذلك أن نفس ذلك الشاب ونفس تلك الشابة ما يفتآن ينصاعان لمشيئة الكبار ويأخذان بنفس تلك القيم التى أرادا ضربها فى الصميم . وحتى تلك الوعود التى ضربها كل منهما للآخر وقد تواعدا على الزواج ، فإنها سرعان ما تذوب بين ليلة وضحاها ويضرب بها عرض الحائط ويرتمى كل منهما فى أحضان الكبار طالبين العون وإصدار الأمر وإبداء المشيئة فى مسألة الاختيار .

ولعل هذا يسوقنا إلى موضوع الحب قبل الزواج فى أثناء الخطوبة وبعد الزواج والضرب بالوعود التى قطعت بين الطرفين أيام كانا زميلين بالكلية أو حتى بالعمل ، فإن الكثير من الشباب يتوجسون خيفة من الحب قبل الزواج :

ومن يضمن لى أنه (أو أنها) تفى بوعودها ولا تقلب على شر منقلب وتضرب بحبى عرض الحائط وتتنكر لى بعد أن أكون قد أنفقت عليها من وقتى وجهدى ومالى الكثير ؟ » وهكذا نجد أن العديد من الشباب من الجنسين اليوم وقد أخذوا ينظرون بريبة إلى الطرف الآخر ، بل نخشى أن نقول: إن الكثير منهم ينظرون بحقد وكراهية إلى أفراد الجنس الآخر ويأبون الانجراف فى تيار الإعجاب ثم فى تيار التودد والحب: خوفا من الخيانة المتوقعة والتى من السهل تبريرها بضغط الأهل وبالظروف وبالقسمة والنصيب وما إلى ذلك من تعلات يتذرع بها ويحتمى خلفها الخائنون للعهود والمواثيق التى قطعت فى وقت الانسجام بين القلبين وفى لحظات العناق وتحت دفء القبلات .

والواقع أن الكثير من الشباب وقد نكثوا العهود وأطاحوا بالوعود التى قطعوها على أنفسهم إنما يستشعرون الكثير من الندم ووخز الضمير؛ لأنهم لم يلبوا دعوة القلب إلى الوفاء بالوعود التى سبق لهم أن قطعوها على أنفسهم قبالة أحبائهم وقد أقسموا بأغلظ الأيمان بأنهم سيسيرون معهم إلى نهاية الشوط ، وأنه ليس من كائن من كان يستطيع أن يثنيهم عما اعتزموه وعقدوا عليه العهد وضربوا عليه الوعد وأنهم سيظلون الأوفياء بحيث يتمون مشوارًا بدأوه بالزواج الأكيد، والحياة فى تنعم وسعادة إلى جانب الحبيب . ولكن ماذا يفيد وخز الضمير الذى يقلق المنام أو يذكر بالخيانة وقد سبق السيف العزل ووقع ما وقع وانصرف الشاب عمن أحبته إلى غيرها بعد أن أغواه الأهل بعروس جديدة أفضل ، وبعد أن أكدوا له سوء اختياره ومجانبته للتوفيق بالوقوع على تلك الشخصية الخادعة والمخدوعة معًا .

وليت التوجس والتشكك فى نيات الطرف الآخر يتبدد بعقد الخطوبة ، بل نستطيع القول: بأن توجسات وشكوكًا أخرى أشد وطأه تبدأ فى الضرب بأطنابها فى حياة الخطيبين . فبعد أن كانت المسألة تتعلق بهما دون غيرهما قبل الزواج

أصبحنا نجد أن أسرتين قد قامت بينهما صلة من نوع جديد ، هو نوع على أكبر جانب من الحساسية . كل أسرة منهما ترقب وتترقب وتلاحظ وتفسر ما تلاحظه ولا يخلو الموقف من شخص أو أشخاص يسيئون الظن بالأطراف الأخرى . حتى ما قد يبديه أفراد الأسرة الأخرى من ود واحترام كثيرا ما يلقى تفسيرًا غير موات، فيقال: إن الود والاحترام اللذين يبدونهما غير صادرين عن القلب وإنما هما صادران من وراء القلب ، بل قل: إنهما أداتان للخداع . إنهم يريدون تمرير فترة الخطوبة بسلام إلى أن يتمكنوا من الفريسة فيقومون بتمزيقها شر ممزق. وطبيعى أن تلك الشكوك والتوجسات سرعان ما تجد لها انعكاسا على موقف الخطيبين كل منهما من الآخر ، وقد بذرت فى قلب كل منهما بذور الشك فى نيات الطرف الآخر . وهكذا نجد أن الخطوبة وقد بدأت بالورود المفروشة فى طريقها؛ إذ بتلك الورود وقد بزغ فيها الشوك الذى يؤذى أقدام السائرين فى طريقها . وطبيعى أن تبدأ الورود فى الذبول بينما تزداد صلابة الشوك وقد تحددت أطرافه وصار خطرًا على السائرين .

وكيف بالله تسود الطمأنينة قلبى الخطيبين بينما هما يشاهدان ويلمسان ألف عقبة وعقبة تعتور طريق الخطوبة المفضى إلى الزواج . أين الشقة وأين ثمن الأثاث وماذا يقوم العريس بشرائه ؟ وماذا تقوم العروس بشرائه ؟ وهل سيستمر العريس فى تقديم المساعدة إلى أهله من مرتبه الضئيل ؟ وإذا كان سيستمر فى تقديم المساعدة إليهم بعد الزواج ، أفليس يحق أيضا للعروس أن تحمل نفس الشىء بمرتبها فتقدم المساعدة لأهلها ؟ وما الفرق بين موقفه من أهله وبين موقفها هى من أهلها ؟ ولماذا تتكلف هى وأهلها الكثير من نفقات الزواج وتجهيز الأثاث أكثر مما يتكلف هو وأهله ؟ وهل سيتم الزفاف بأقل النفقات أم بأبهظ التكاليف ؟ ومن سيقوم بالنفقات أحدهما أم كلاهما ؟ وهكذا تتوالى التساؤلات العلانية أو الضمنية فيما يتعلق بتلك الأمور الاقتصادية التى تقلق المضجع

وتورث الأرق وتبعد أشباح الأحلام اللذيذة المتعلقة بالحب والحياة الزوجية الجديدة التى سيكللها الود والوئام: لكى تحل محلها أشباح مخيفة وأوهام مريرة ومخاوف غامضة وشكوك فى نية الطرف الآخر : « لماذا أستبعد أنه يكون قد خطبنى ليسلى وقته ولكى يستغلنى جنسيا ثم بعد أن ينال ما ينبغى من أغراض خسيسة ينصرف عنى بوقاحة بحجة أننا لم نتفق على حلول سديدة للمشكلات التى تعترض طريقنا ؟ إذن لابد من الاحتياط والحذر من هذا العدو المتلبس بأثواب الحملان » هذا هو لسان حال الخطيبة . وليس لسان حال الخطيب بأقل من هذا تشاؤمًا وارتيابا فى الخطيبة: « إنها تظهر لى الحب لا لأنها تحبنى بل لكى تخدعنى عما بيتته لى . إنها تريدنى أن أغرق فى الحب حتى ذقنى؛ لكى تجبرنى على أن أنفق آخر قرش فى جيبى عليها وتخرج هى من الصفقة بأكبر قدر من الربح » .

وإذا ما سلم الله ونجح الخطيبان فى اجتياز طريق الخطوبة الشائك ، فإنهما ما يكادان يدخلان فى رحاب الحياة الزوجية حتى يجدا أمامهما معامع الخلافات المتعلقة برئاسة تلك المؤسسة الجديدة . فمن يكون الرأس ومن يكون الذنب ؟ لقد حمل الشاب فى رأسة تلك القيم الاجتماعية التى تحذره من طغيان المرأة على الرجل وخطورة ذلك الطغيان على شخصيته . لابد من استخدام الحزم بل والعنف إذا اقتضى الأمر ذلك حتى تظل الرئاسة على الأسرة فى يده ولا يفلت من بين أصابعه صولجان الرئاسة ، فلا يكون ثمة سبيل إلى استعادته مرة أخرى حتى نهاية الحياة الزوجية إن بالانفصال وإن بالموت أما الزوجة الشابة فقد حذرها أهلها وزميلاتها وصديقاتها من طغيان الرجل عليها: « لابد من تحديد موقفك منذ اللحظة الأولى . لا تسمحى له بالسيطرة عليك. إنه ليس أفضل منك فى شىء لقد مضى عصر كانت فيه المرأة خانعة خاضعة لمشيئة الرجل » .

وثمة مشكلة أخرى تعتور طريق الزوجين الشابين هى مشكلة العلاقة بين

الأسرة الناشئة وبين الأسرتين الأمين . فلا بد من رسم الحدود التى يمكن أن يصل إليها تدخل الأب والأم لكلا الطرفين فى شئون الأسرة النابتة . لابد أن ينسلخ الرجل عن ذلك الالتحام الذى دأب على التمرس به قبالة أسرته ، لابد أيضًا للشابة أن تفعل نفس الشيء ولكن هل ذلك الانفصال لصالح الزوجين الجديدين ؟ هل يتركان بغير استلهام لخبرات الكبار من الطرفين؟ ألا تعتبر الزوجة الحديثة أن تدخل حماتها فى شئون منزلها من السخف بمكان ؟ ألا تحس بأن حماتها تريد أن تسيطر عليها بدورها كما دأبت على السيطرة على ابنها الذى تزوجت به ؟ وألا يخشى الزوج الشاب نفس الشيء قبالة حماته وحماه ؟ إنه يفسر كل عطف من جانب أبويه الجديدين - أعني: حماه وحماته - بأنه استذلال لكرامته وفرض للوصاية عليه . ومن ثم فإنه كثيرا ما يتذرع بالتساخف والصد والظهور بمظهر الساخط وغير القانع بحياته الجديدة؛ حتى يزيحهما من طريقه حتى يتخلص مما يتوهمه سيطرة وفرضًا للوصاية عليه .

والأسرة الجديدة باعتبارها مؤسسة اقتصادية جديدة تنشأ بها مشكلات جديدة خاصة بالخزانة . فمن يقوم بوظيفة أمين الصندوق ؟ هل يجعل صندوقان للأسرة بحيث يتقاسم الطرفان تسيير دفة الشئون الاقتصادية للأسرة الجديدة ؟ إن الزوج يريد أن يظل محتفظًا باستقلاله الاقتصادى الذى اعتاده أيام العزوبية . ولكن الزوجة تريد أن تلعب دور ربة البيت القديمة التى ترعى شئون الاقتصاد المنزلى والتى تكون أمينة على أموال الزوج بحيث تطمئن على أبواب الإنفاق وحتى تتأكد من أنه لا ينفق مليما واحدًا فى غير موضعه الصحيح . هكذا تنشأ أزمة جديدة بين الزوجين الجديدين ، بل إن تلك الأزمة كثيرًا ما تتفاقم بحيث تستحيل إلى خلاف بينهما قد يستمر مدة قصيرة أو طويلة أو قد تشكل مشكلة دائمة مستعصية تخيم على العش الزوجى لا تريد أن تنزاح أو أن تخف وطأتها عن كاهل ذلك العش الغض . ولعل حلولا تقدم إلى الطرفين وهى حلول توفيقية

تناشد الزوجين بأن يتذرعا بالحب فى حل المشكلة فيجعلان دخلهما على المشاع بين الطرفين بحيث تنزع نعرة الملكية فلا يزعم أى منهما أن له الحق فى الاستيلاء على مقاليد أمور الأسرة الاقتصادية ، بل لكل منهما نفس الحقوق فى الإنفاق . ولكن قلما يقبل أى منهما مثل تلك الحلول الترقيعية ويستمسك بأن لابد أن يتسلم زمام الأمر وأن يدير دفة الحياة الاقتصادية للأسرة؛ لأن لديه الحنكة وفى جعبته الحكمة بينما لا يوجد فى جعبة الآخر سوى البذخ والحماقة فى الإنفاق مما سوف يهدد الأسرة بالإفلاس الوشيك .

وإلى جانب المشكلة الاقتصادية بين الشريكين الجديدين فإن ثمة مشكلة على جانب أخطر من حيث الأهمية والنتائج . تلك هى مشكلة المواءمة الأخلاقية بين المشارب وما اعتاده كل منهما من أساليب سلوكية . والواقع أن تلك المشكلات التكيفية لها أطياف متباينة تبدأ من أخطرها أثرًا على مجريات الأمور وانتهاء إلى أخفها وطأة على انتظام الحياة الأسرية الجديدة ولعل العلاقة بالجنس الآخر بصفة عامة تشكل مشكلة المشاكل بالنسبة للزوجين الجديدين . فالواحد منهما اعتاد الاختلاط بأفراد الجنس الآخر ولا يرى غضاضة فى اختلاطه بأفراد عديدين من أفراد ذلك الجنس الآخر اختلاطًا حميما ووثيق العرى . ولكن نفس ذلك الطرف الذى يؤمن بإمكان الاختلاط لنفسه يغار من اختلاط الزوج أو الزوجة بأفراد الجنس المقابل . فثمة التساهل والتسامح بالنسبة لنفسه ، وثمة من جهة أخرى الغيرة وبغض اختلاف الطرف الآخر بغيره من أبناء الجنس المقابل . ولقد تجد أحد الزوجين يرغب فى فرض حصار محكم على الزوج أو الزوجة وقد أصر على تقطيع جميع الوشائج القديمة التى كانت تربطه بأصدقائه من الجنسين والاستئثار بكل وقته وبكل عواطفه . فهذا النوع من الناس لا يغار من الجنس المقابل فحسب ، بل يغار أيضًا من كل الناس . إنه يريد أن يحبس شريك حياته فى قمقم لا يخرج منه . وحتى بعد العودة من العمل تنصب

محكمة للاستفسار عمن قابل ومع من تحدث . هكذا تتأجج أزمة الحياة الزوجية الجديدة مما يجعل الزوج أو الزوجة الجديدة تعض أصبع الندم على التورط فى الزواج .

مشكلة الشارع والنواصى

نشأت بالمدن مجتمعات جديدة لم تكن قائمة بالمجتمع الريفى . من هذه المجتمعات: مجتمع الشارع والنواصى . فالشبان يتجمعون على رؤوس الشوارع فى ثلل (شلل) ويتبادلون الأحاديث المختلفة والتهامس وأحيانا التآمر على القيم التى يقول بها عالم الكبار كما يتآمرون أحيانًا على النظام القائم بالمدرسة أو الأسرة أو الحى .

والواقع أن بزوغ هذا المجتمع إلى حيز الوجود إنما يمثل دليلا قاطعا على فشل الأسرة والمدرسة على السواء فى استيعاب الشباب وفى استهلاك الفائض من وقتهم ونشاطهم . لعل هذا المجتمع الجديد يكون بمثابة احتجاج على الأسرة والمدرسة من جانب الشباب ، وإعلان من جانبهم عن عدم اقتناعهم وعدم إيمانهم بالقيم والتوجيهات والنظم التى تقول بها الأسرة والمدرسة على السواء. ومما لا شك فيه أن مجتمع الشارع والنواصى مجتمع تلقائى لم يقم أحد بتنظيمه، ولم توضع له قواعد أو تقاليد أو قوانين . فهو مجتمع نابع من حاجة نفسية واجتماعية حقيقية اعتملت وتعتمل فى نفوس شبابنا .

إن هذا المجتمع هو احتجاج الشباب على الأسرة؛ لأنها لم توفر لهم الجو الأسرى الدفىء ، ولم تجهز لهم أوجه النشاط المناسبة لميولهم وأعمارهم . أضف إلى هذا أن الوالدين كثيرًا ما يضيقان على الشاب ، فلا يسمحان له بالتعبير عن نفسه التعبير الحقيقى ، ويضطرانه إلى إضفاء صبغة زائفة على كلامه وتصرفاته فتجده فى البيت يسلك بصيغة سلوكية معينة ، وخارج البيت يسلك بصيغة

سلوكية مباينة ، بل ومناقضة . من هنا فإن الأسرة هى المعلم الأول الذى يسقى النفاق والزيف للناشئة فيه ، والأسرة تعلم أن ابنها يسلك بوجهين ، ويعيش حياتين . ولكن المهم لديها – للأسف – هو أن يراعى قوانينها وأصولها بغير هوادة من جانبيها وهو فى نطاقها . إنها لا تريد غير ما ارتأته من أنماط سلوكية. وهى تدافع عنها بكل عزيز وغال ، ولا تسمح بالتنازل عن شىء منها حتى ولو كان ذلك الشىء عرضًا من الأعراض وغير مؤثر فى القيم الأساسية التى يستمسك بها المجتمع .

أما المدرسة فإنها للأسف – كما سبق أن قلنا – قد حرصت على الناحية العقلية ، مهملة الحاجات والرغبات الأساسية للشباب ، إنها أوكار عقلية ينبو عنها كل ما ليس بعقلى منطقى عملى . أما أن تكون المدرسة مجالا حيا ينعم فيه الشباب ويلجأون إليه عندما يلم بهم الضجر ، فإن هذا يعتبر فى نظر القائمين على شئون التعليم خارجًا عن نطاق اهتمامهم . إنهم جعلوا لكى يشحذوا العقول ويجلوها ثم يقوموا بحشوها بالمعلومات بغض النظر عما إذا كانت المعلومات المقدمة مفيدة أو أنها ذات قيمة فى حد ذاتها .

والشباب من جانبهم وقد وقفوا بدقة على وظيفة المدرسة ، فإنهم يحسون بالنفور بمجرد اقترابهم منها ، إنهم بمجرد مشاهدتهم لأحد مدرسيهم ، يتذكرون المرارة التى عانوها فى الاستذكار والامتحانات ، فيشيحون بأبصارهم عنه أو يتجاهلونه ، أو لقد يهزأون به ويرمونه بما لا يحب أن يسمع من كلام . وإن دل هذا الموقف على شىء ، فإنما يدل على أن المدرسين لم ينجحوا فى الاستيلاء على قلوب الشباب، وعلى أن المدرسة قد قامت بنصف واجبها ، وأهملت النصف الآخر .والنصف الآخر هو احتواء نشاط الشباب واستيعابه وتوجيهه .

ولعلنا بهذه المناسبة نقول: إن إعداد المعلمين بالمعاهد والكليات لم يهتم

بإعداد المعلم كرائد اجتماعي ، وكشخص رياضى له روح وثابة تتوق إليها قلوب الشباب وتشرئب لا يكتفى الشاب بأن يكون مدرسه عالما فحسب ، بل يهمه أيضًا - بل وقبل كل شيء - أن يكون مدرسه شخصية اجتماعية متفتحة ومتطلعة إلى آفاق الحياة بحيوية وبجرأة . إنه لا يحب فى المدرسه تلك الشخصية التى يستغلها مؤلفو المسرحيات ويعرضون فيها للمدرس الذى يرتدى الملابس المهلهلة والذى لايعرف من دنياه إلا حدود مادته الضيقة ، ولقد أضحكنا بعض الممثلين وآلمونا فى نفس الوقت من ذلك المدرس الذى لم يكن يعرف فى حياته إلا أن الدنيا تدور حول نفسها . أما الحياة بآفاقها الرحبة ومجالاتها الاجتماعية المتعددة فإنه بعيد عنها بفكره ووجدانه وطموحه .

ومادامت هذه هى الصورة المرتسمة فى عقلية الشباب ، فإنهم ينبون عن المدرسة ولا يحبون الانتماء إليها أو المشاركة فى مناشطها . إنهم يودون لو يتخلصون منها بل إنهم يترقبون اليوم الذى فيه يخرجون عن نطاقها إلى نطاق آخر يجدون فيه ما يملأ عليهم حياتهم ويشبع فيهم منازعهم وحاجاتهم ورغباتهم الاجتماعية والنفسية .

وإنها لصورة مؤثرة مؤسفة حقا تلك الصورة التى نرى عليها حال شبابنا بالمدرسة وقد قاربت السنة الدراسية نهايتها ، فيأخذون فى تحطيم الكراسى التى دأبوا على الجلوس عليها طوال العام . بم نفسر هذا التصرف ؟ الضجر من المدرسة والتبرم بما تسير وفقه من نظم وتقاليد ، ورغبة فى تحطيم كيانها وعدم الإبقاء عليها .

بيد أن الشباب لا يقتصرون على تحطيم الكرسى ، بل إنهم يتجمعون فى مجموعات فى الشوارع لساعات طوال ويفضلون ذلك على أن يحضروا اجتماعا أو ندوة تعقد بمدرستهم . ولكن ماذا يمكن أن تفعل المدرسة بإزاء انصراف الشباب

عنها ؟ الواجب عليها أن تعطى الشباب الفرصة للتعبير عن أنفسهم وإبداء رأيهم فى حياتهم . ذلك أن إغفال آراء الشباب والتزام سياسة فرض الأوامر عليهم ، إنما ينتهى إلى اتخاذهم المنحى السلبى ورفضهم الانضواء تحت لواء الكبار ولقد يؤثر الشباب سياسة الابتعاد وتجنب الصدام مع الكبار . ولقد يكون مجتمع الشارع والنواصى هو الحل الذى يضمن لهم البعد عن تأثير الكبار وأوامرهم وعدم الاصطدام معهم فى نفس الوقت .

وخطورة هذا المجتمع تبدو فى النتائج التربوية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية التى تترتب عليه . فما يتهامس به الشباب فى هذا المجتمع ، يحمل فى طياته الإطاحة بالقيم الأخلاقية والاجتماعية ، وفيه ضياع لتقدير المسئولية . نعم إننا ننادى بالحرية للشباب ، ولكن الحرية التى نتصورها لهم ليست حرية الضائعين ، بل حرية التعبير عن الحاجات إنها ليست حرية التعبير عن الرغبات الجانحة التى لا تعرف لها حدودا .

والواقع أن الارتكان إلى التلقائية والنبو عن التوجيه – وهو ما يتصف به مجتمع الشارع والنواصى – لا يتفق مع طبيعة الحياة الاجتماعية ولا يتفق مع حياتنا الحاضرة ومصالحنا كمجموعة ، بل إنه لا يتمشى مع مصلحة الشباب فى الحاضر والمستقبل . كم من شاب ضاع مستقبله بسبب هذا المجتمع التلقائى غير الموجه ؟ يقول الشاب لزميله: « إن ترك المدرسة والبحث عن أى عمل مهما كان، أفضل من الانتظام فى الدراسة » . ويقول شاب آخر لزميله: « ماذا يحدث إذا قمنا فى منتصف الليل بالسطو على دكان البقال الموجود على ناصية الحارة وهو جالس فيه وحده وليس من مغيث يغيثه إذا استنجد » ويقول شاب ثالث لزميله: « وماذا يستطيع أبوك أن يفعل إذا أنت مددت يدك إلى مرتبه وأخذت منه جنيهين أو ثلاثة ؟ إنه لا يستطيع الإبلاغ عنك فى قسم الشرطة لأنك ابنه » ولعل هناك من الشبان من يوحى للواقفين معه بأنه البطل الذى استطاع أن يدب سلاح مطواة فى

بطن شخص تشاجر معه ، ثم ولى الأدبار ولم يستطع أحد الإمساك به . وهكذا تدور الأحاديث المخربة على النواصى ، فتفتك بالبقية الباقية من القيم التى ظلت محتلة مكانها بقلوب شبابنا .

يقول علماء الاجتماع إن الجمهرة وهى التى يأتلف أفرادها بغير اتفاق مرسوم ، لهى مجتمع بلا عقل ، أو على الأقل هى مجتمع ضعيف الذكاء . ذلك أن سريان الإيحاء من شخص لآخر فى نطاق الجمهرة يحدث بسهولة وسرعة على عكس الحال إذا ما أريد نقله من الكبير إلى الصغير . فالواقع أن التجانس النفسى وتقارب المستوى الفكرى وطريقة التفكير وتجانس المشكلات التى يجابهها الشباب تجعل التفاهم النفسى والعقلى أمرًا واقعًا ليس بحاجة إلى بذل كثير من الجهد لتحقيقه ، على عكس ما يعانى منه الكبار فى تقريب الشُقّة بينهم وبين الصغار . فالكبار لهم عالمهم الخاص بهم ، ومشكلاتهم مباينة تماما لمشكلات الصغار ، وطريقة تفكيرهم وما يدور بأذهانهم تختلف اختلافا كبيرًا عما يدور بأذهان الشباب .

من هنا فإن مجتمع الشارع والنواصى سرعان ما يستلب قلوب أفراده ، وهو يستوعب بسرعة كل فرد جديد ينضم إليه . أضف إلى هذا أن ذلك المجتمع لا يعرف المنطق طريقه إلى تفكيره ، كما أنه لا يحس بالمسئولية لدى وضع خططه. إنه يندفع بخيال جامح بلا مسئولية نحو كل فكرة تعرض ونحو كل اقتراح جديد يتسم بالبريق والجاذبية .

وكثيرًا ما يلجأ الشاب إلى هذا المجتمع؛ لأنه يستطيع أن يجد فيه مصدرًا للقوة التى يفتقر إليها . إنه يجد نفسه فى البيت وفى المدرسة شخصًا صغيرًا تافهًا لا يستطيع أن يجد لمطامحه نحو القوة ما يشبع رغبته ويدعم شخصيته . إنه يستطيع أن يبدى قوته، ولكنه فى مجتمع الشارع والنواصى يستطيع أن يطمع

فى السيطرة على هذا المجتمع التلقائى الذى لا يكلفه أى جهد لدى التحاقه به واندراجه فى نطاقه .

وفى هذا المجتمع لا يحس الشاب بضآلة فكره أو ضحالة تصوراته . إن كل ما يلوكه لسانه من لغو يجد آذانًا صاغية فيمن يقفون معه ، ولا يصادف من أترابه أى احتقار أو اندهاش . إنه فى مجتمع الأسرة ومجتمع المدرسة يتعرض للنقد الشديد ، وكل فكرة يعرضها لا تجد قبولا ، بل تجد رفضًا واشمئزازًا . إذن عليه أن يبحث عن مجتمع آخر يقبله ويوسع له صدره ، ولا يتربص به الدوائر بالنقد والتقريع والاستهزاء . هذا المجتمع المنشود يتحقق له فى مجتمع الشارع والنواصى .

ولقد يجد الشاب فى هذا المجتمع ملجأ وملاذا يهرب إليه من الاستذكار ومن الواجبات التى تفرضها الأسرة عليه . أنه إذا بقى بالبيت ، فإن صوت الأب وصوت الأم يلاحقانه بالحض على الاستذكار . ناهيك عما يكلفانه به من مهام ثقيلة على نفسه، ولكنه فى هذا المجتمع لا يجرى إلا وراء رغباته الشخصية ، ولا يحمل نفسه أية مشقة ، لا يطالبه أحد فيه بأية عملية سخيفة لا تروق له . ولكنه بالبيت يجد كل ما يضجره وكل ما ينفره . وهو فيه لا يسمع أحد له كلامًا أو يصغى إلى أى من آرائه .

وفى هذا المجتمع يفرح الشاب بما يستمتع به من سلوك تلقائى . إنه يجد الشبان يضحكون بصوت مرتفع فيفعل مثلهم . ولو أنه فعل نفس الشىء بالبيت، إذن لنهره أبوه ، ولأنبته أمه ، ولاستاء منه الجيران . ولكنه فى هذا المجتمع يفعل ما يشاء . إنه يضحك مع الضاحكين ويصخب مع الصاخبين ، بل ويعاكس المارة من الجنس الآخر ، ولعله يجد من تبتسم له من بنات حواء ، أو من تنظر إليه بإعجاب مفضلة طلعته وشخصيته على طلعة وشخصية باقى الشبان الواقفين معه .

ومن هذا المجتمع تبدأ الخطوة الأولى فى الانزلاق إلى مهاوى الرذيلة . فلقد تتصيد الساقطات من بائعات الهوى زبائنهن من بين أولئك الشبان التواقين إلى لحظة السقوط . ولعلنا لانجانب الصواب إذا قلنا: إن بداية الخيط فى كل خطيئة وفى كل جريمة تكمن فى هذا المجتمع . والمؤسف أن الشر يسرى فى أفراد هذا المجتمع بسرعة كما تسرى النار فى الهشيم . فعدوى الرذيلة سريعة الانتقال فى مجتمع لا يجد الكبار فيه مكانا للتوجيه والتبصير بالعواقب .

ولقد يجد أعداء الوطن الفرصة سانحة لهم بإزاء هذا المجتمع البعيد عن رقابة المسئولين وعن توجيه الكبار ، فيبدأون فى دس العناصر المخربة فى نطاقه . ناهيك عن أن هذا المجتمع خير مجال لبث الإشاعات المغرضة وبلبلة الأفكار ، وقد وضع الأعداء نصب أعينهم أن كل شاب من أولئك الشباب يمثل أسرة . فإذا ما استطاعوا السيطرة على عقليات أولئك الشباب، فإنهم بالتالى يكسبون أرضا فسيحة بكسبهم لعائلاتهم وذويهم وبدءا من أولئك الأفراد يمكن وضع استراتيجية للحرب النفسية التى تمكنهم من تهيئة الأذهان لمآربهم ومراميهم القريبة والبعيدة .

وأكثر من هذا فإن الأعداء – وبخاصة فى أيام الحرب – يستطيعون استشفاف الأخبار والأسرار وغيرها مما يجب إبعاده عن متناول أيديهم وذلك عن طريق أولئك الأفراد من الشباب غير المسئولين الذين يرددون ما يسمعونه من الآباء . وهنا يبرز عنصر هام هو رغبة الشاب فى إثبات أنه فاهم لبواطن الأمور ، وبخاصة إذا كان والده واحدا من أولئك الذين يشغلون مناصب حساسة بالدولة، وفى يده بعض الأسرار أو الخطط . إنه ينبرى وقد اشرأبت إليه الأعناق وسكت الجميع للإنصات إلى كلامه الخطير ، فيبدأ فى سرد كل ما يعرف ، وما لا يجب أن يعبر عنه . وأكثر من هذا فقد يعد له الأعداء الخطة لتحديه وتكذيبه حتى يمتلئ تحديا أكثر وأقوى فيعدهم بالإتيان بالبرهان القاطع على ما يقول . وفعلا يبدأ

فى جمع الشواهد والحيثيات التى يؤيد بها ما قاله . ولقد يغافل أباه فيسطو على وثائقه التى يؤتمن عليها ، ويقول منها ما يريد ذكره . وعندئذ يجد نفسه مرفوع الرأس وقد أفحم مخاصميه بالحجج والبراهين الدامغة ، بينما لا يعلم أن ما ذكره من كلام لعلى أكبر جانب من الخطورة ، وأنه سرعان ما ينتقل إلى الأعداء للإفادة منه فى تعديل خططهم واستراتيجياتهم .

وإذا تركنا السياسة والأسرار جانبا ، فإننا نكتفى بالقول: بأن مجتمع الشارع والنواصى مجتمع مهدد لراحة وطمأنينة المارة . ألا يمكن أن يؤدى الكسل والضياع الشائعان فيه إلى نتائج وخيمة تقع على رأس الشاب نفسه وعلى أسرته ؟ألا ينتهى الكسل إلى كثير من الأفكار الخطيرة ؟ وألا يجب أن تحسب أمتنا وهى المتطلعة إلى مستقبل زاهر الحساب كل الحساب لوقت وجهد أبنائها ؟ الواجب علينا نحن الكبار أن نتناول هذه المشكلة بالدراسة حتى نقف على جذورها ، وحتى نقدم علاجًا لها ، لا بقمع الشباب ، بل بتحويلهم إلى الطريق السوى ، والإفادة من وقتهم وجهدهم .

الرجعية المتربصة والتقدمية المتطرفة

هناك فئة من الناس فى كل عصر يميلون بطبعهم إلى الاستمساك بالقد لا لشىء إلا لأنه قديم . إنهم يضفون صفه التقديس والثبات على كل ما نزل الأجيال الماضية إلينا ، مستنكرين كل تجديد ، ومعتقدين أنه ليس فى الإمكان أفضل مما كان ، وهؤلاء الناس يعمدون إلى التشكيك فى قدرة الإنسان الحديث على التجديد أو على استحداث أى شىء فى مجال من مجالات الحياة .

هذه الفئة من الناس يطلق عليهم اسم الرجعيين . والرجعى شخص يجب أن يبحث عن حل للمشكلات التى تجابهه فى طيات الماضى . إنه لا يقبل حلا يقول به شخص محدث . ذلك أنه يعتقد أن القدماء قد استطاعوا أن يغطوا جميع مجالات

الحياة ، وأن الأجيال الحديثة عالة على الماضى ، وأن ما يمكن أن يقدمه الفكر الحديث ما هو إلا شظية حقيرة من الماضى المفعم بالخير .

بيد أن هناك فئة أخرى من الناس يتطرفون فى مناصرة الفكر الحديث ، معتقدين أن الماضى بما يتضمنه من ترات ما هو إلا عفن وضياع ، وأن الواجب على إنسان العصر الحديث أن يخلع عن نفسه كل علائق الماضى .

وكل من الرجعيين والتقدميين المتطرفين خطيرون على المجتمع . فالفئة الأولى تريد أن تجذب المجتمع إلى الوراء ، بينما تريد الفئة الثانية خلع المجتمع عن جذوره الأصلية بحيث يعيش الحاضر فى انفصال عن خبرات الماضى .

ولقد نجد الشباب ممزقا بين تيارين أساسيين يريدان جذبهم وجرفهم : التيار الأول: تيار الرجعية ، والتيار الثانى: تيار التقدمية المتطرفة . وهنا ينبغى أن نميز بين معنيين للتقدمية : المعنى الأول: التقدمية المعتدلة ، وهو الاتجاه الذى يريد أن يعيش الحاضر مرتبطا بالماضى ومستهدفا المستقبل ، والمعنى الثانى: التقدمية المتطرفة وهو الاتجاه الذى يريد قطع الوشائج بالماضى والاعتماد على الحاضر فقط من أجل الوصول إلى مستقبل أفضل .

والواقع أن الشباب بما يتسمون به من حيوية وتدفق ينحون بطبعهم إلى التطرف والمغالاة . وإنك لتجد أصحاب النظرات المتطرفة يستغلون حيوية وتدفق الشباب وميلهم إلى الوصول بكل شىء إلى منتهاه؛ لكى يكسبوهم إلى جانبهم ويجعلوهم فى صفوف مناصريهم . وطموح الشباب يجعلهم لا يرضون بالوسط . إنهم يحبون النهاية فى كل شىء . إنهم يريدون الأشياء التى تستلب لبهم وتثير خيالهم وتملأ عليهم حياتهم ووجدانهم .

ولكل من الرجعيين والتقدميين المتطرفين أساليبهم الخاصة فى جذب

الشباب وفى ضمهم إلى صفوفهم . فالرجعية تعتمد إلى تشكيك الشباب فى الحاضر وتبغض لهم ما قد يجيء به المستقبل ، بينما تبث فى نفوسهم التوق الشديد إلى الماضى والإيمان بالتراث برمته بغير إغفال لشيء منه . ومعنى هذاأن يعيش الشباب فى عصر بعيد عن عصرهم وبمفاهيم واهتمامات مخالفة بل ومناقضة لمفاهيم واتجاهات العصر الحالى .ولا يقتصر أمر الرجعيين على هذا ، بل إنهم يعتمدون على بث الكراهية فى نفوس الناشئة لكل ما يتعلق بالعصر الحديث . وحتى إذا هم استخدموا الأشياء التى لم تكن موجودة فى العصور البعيدة ولم نزل إلى عصرنا مع التراث الماضى ، فإن زعماء الرجعية يحاولون جاهدين أنْ يثبتوا أن تلك الأشياء وأمثالها كانت موجودة منذ زمن بعيد ، أو على الأقل كانت أصولها موجودة ، ولم يزد جهد العلماء المحدثين عن مجرد إخراجها من طيات الكتب ، لقد سمعت أحد الرجعيين يقول فى الإذاعة أن منشئ علم الاجتماع هو ابن خلدون ، وهذا طبعا صحيح ولا جدال فيه ، ولكنه لم يكتف بذكر هذه الحقيقة التاريخية ، بل زاد عليها أن جميع علماء العالم منذ ابن خلدون لم يتمكنوا من إصضافة أى جديد إلى علم الاجتماع الذى وضعه ابن خلدون. فقوله الأول وهو أن ابن خلدون هو منشئ علم الاجتماع صحيح ، ولكن إضافته الأخيرة بأن العلماء من بعده لم يستطيعوا إضافة أى جديد إلى ما وضعه ابن خلدون إنما تدل على رجعية فكر صاحبنا .

والرجعيون كارهون للعلم الحديث أشد الكراهية ، إنهم يرغبون فى الإتيان عليه والبرهنة على عبث من العبث ولغو من اللغو . وهم للبرهنه على أقوالهم يعمدون إلى ذكر المصائب والنوائب التى أتى بها العلم الحديث : إنهم يذكرون القنبلة الذرية وحرب الجراثيم ، وكيف أن العلم الحديث قد أتى بالدعارة معه وأنه أخرج الناس من نطاق الإيمان بالله وما إلى ذلك من حجج .

والواقع أن الرجعية تلتمس أى برهان للتشكيك فى العلم الحديث وللبرهنة

على أن المجتمع القديم كان مجتمعا نقيا وخاليا من الشوائب ، بل وخاليا من النوائب التى ابتلى بها العصر الحديث . ذات يوم استمعت إلى محاضرة كان أحد الرجعيين يقوم بإلقائها . أخذ المحاضر الكريم فى جب كل ماظهر من نظريات علمية فى شتى المجالات . أعلن فى محاضرته بطلان نظرية التطور الداروينية ونظرية فرويد ونظرية النسبية لأينشتين وغير ذلك من أمهات النظريات .

وكراهية الرجعيين للعلم الطبيعى ترجع إلى أن الأساس يقوم عليه العلم هو أساس نسبى . فالعالم يبدأ بفرض الفروض ، ولا يضع فى ذهنه حلا مسبقا . إنه مستعد للتنازل عن فروضه أوتعديلها إذا أثبتت تجاربه أنها يجب أن تستبدل أو أن تعدل . ومنهج الرجعى مختلف عن هذا اختلافا جذريا ، إنه يفترض الحل ، بل يفرضه على المشكلة فرضا ولا ينتظر حتى يستقرئ الوقائع . إنه يستلهم التراث؛ ليقرر له الحلول التى ينبغى القول لها .

والعالم يختلف عن الرجعى أيضًا فى أنه على استعداد لأن يعلن بطلان نظرياته مادامت اعتبرت نظريات سليمة . ولكنه لا يصدر فى هذا عن عقيدة جزمية بل عن فكر . وأكثر من هذا فإن العالم مستعد لأن يعلن صدق ما سبق له أن أعلن بطلانه إذا ما ظهرت وقائع جديدة تحمله على ذلك . العالم مستعد لتغيير رأيه بين لحظة وأخرى . إنه يجرى وراء الوقائع وليس وراء فكرة مسيطرة أو فكرة عاطفية معتملة فى ذهنه ووجدانه . إن العقيدة الوحيدة التى تتملك عقل ووجدان العالم هى أن الحقائق نسبية . فنحن فى هذا العصر فسرنا الوجود بكذا وكذا . ولكن تفسيرنا ليس مطلقا . قد يأتى عالم آخر ويَجُب ما سبق أن توصلنا إليه وذلك بسبب ظهور وقائع جديدة سوف تتبدى له . ولكن نسبية العلم لا تعنى أن كل عالم يسير حسب هواه ويقول ما يشاء . لابد من سند ، والسند هو الملاحظة المحكومة والتجريب المقنن والمشروط .

ومعنى هذا أن العلم يجد أمامه الدنيا واسعة بينما يجدها الرجعى ضيقة . العالم يجد دنياه فى الماضى والحاضر والمستقبل ، أما الرجعى فيحصر دنياه فى الماضى . العالم يستفيد من الخبرات الماضية ومن تاريخ العلم ومن تاريخ الإنسان وتاريخ الحضارة ، كما يستفيد من الخبرات الحالية ، بل ويستفيد من التطلعات نحو الآفاق المقبلة . أما الرجعى فإنه يعكف على التراث يستلهمه الحلول ، وليس له صلة بالحاضر إلا صلة واحدة هى البغض والتقريع والاستهزاء بالعلماء . فذلك الرجعى الذى ذكرت لك أنى استمعت إلى محاضرته قد تصور أنه استطاع أن يهدم جميع أركان العلم الحديث بمجرد إلقائه لتلك المحاضرة . نعم إن كثيرا من المستمعين أخذوا يصفقون له استحسانا لما كان يبديه من بلاغه لفظية مستخدما المحسنات البديعية فى عباراته الرشيقة . ولكن هيهات أن تكون البلاغة سلاحا لهدم العلم . إن العلم أقوى من البلاغة . إن العلماء يظلون يعملون فى صمت فى معاملهم ، وسيظل الرجعيون يتشدقون ببلاغتهم – أستغفر الله ،بل يتشدقون بلغوهم– ويتيهون بما ينالونه من تصفيق أنصار الرجعية .

وأخطر الأخطار التى تقض على الرجعيين مضجعهم القول بالتطور. والتطور نوعان أصيلان : نوع يتصل بالأنواع السلالية ، ونوع حضارى يتصل بالمستوى الحضارى الذى تسير الحضارة وفقه . والرجعيون يخشون الاعتراف بأن المستوى التطورى الذى وصلت إليه البشرية فيه جوانب أفضل من الجوانب التى كان عليها المجتمع البشرى القديم . إنهم يريدون الاستمساك بأن المجتمع الحالى ردىء برمته ، وأن المجتمع القديم فاضل برمته . أما العمليون فإنهم يعتقدون أن المجتمع الحديث به بعض نقاط القوة وبعض نقاط الضعف ، وأن المجتمع القديم به أيضا جوانب حسنة وجوانب أخرى رديئة . ،فليس هناك في رأيهم مجتمع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وبينما يقع الرجعيون فى خطأ المبالغة فى تقدير ميزات المجتمعات

القديمة والمبالغة أيضًا فى تحقير المجتمعات الحديثة ، والغض من مزاياها ، فإننا نجد أن التقدميين المتطرفين يقعون فى مغالاة أخرى مناقضة للمغالاة التى يقع فيها الرجعيون . إنهم يعتبرون الحاضر أفضل من الماضى ، وأن المستقبل أفضل من الحاضر . إنهم يعتبرون أيضا أن الحاضر قد جب الماضى بتراثه كله ، وأن المستقبل سيأتى على كل الماضى وعلى كل ما نعتقد فى صحته ءى الوقت الحاضر .

والتطرف فى موقف الرجعيين وفى موقف التقدميين المتطرفين هو إيمانهم بشىء وهضمهم لحق شىء آخر . فالرجعيون يهضمون حق الحاضر والمستقبل ، بينما يهضم التقدميون المتطرفون حق الماضى بما يحفل به من تراث وفكر وعلم وأدب . والواقع أن الحياة سلسلة متصلة الحلقات . إنها كائن حى لا يعيش على مقومات الحاضر وحده ، بل يعيش ممتدًا بجذور حياته فى الماضى وممتدا خلال الحاضر إلى آفاق المستقبل . فالحياة عمليات مستمرة تؤدى كل عملية منها إلى العمليات التالية ، ولا يمكن تناول عملية واحدة منها فى عزلة عن العمليات الأخرى .

والواقع أن كلا من الرجعيين والتقدميين المتطرفين يقعون فى نطاق التطور الحضارى . فالرجعيون فى الواقع يتحيزون لمرحلة حضارية معينة ولمجتمع حضارى معين . وكذلك يفعل التقدميون المتطرفون . ولم يذهب الرجعيون إلى حد التحيز للمجتمع الإنسانى فيما قبل الحضارة . إنهم يقصرون المقارنة على ما بين مجتمع حاضر وبين مجتمع ما معين كان موجودا فى عصر من عصور التاريخ الحضارى .

ولعل أحد القراء يتساءل : « ألست من خلال كتابتك بالفصول السابقة قد تحيزت للمجتمع الإنسانى السابق على الحضارة الإنسانية ؟ وألا يعد هذا من

قبيل الرجعية ؟ لقد اشترطنا لكى يوسم الشخص بالرجعية أن يكون مغلق العينين تماما عما بالمجتمع الحديث من مزايا ، بحيث يعمد إلى تقديس الماضى ويحن إليه مغضيا بصره عن كل مزية يختص بها المجتمع الحديث وما يمكن أن يحمله المستقبل . وهذا شىء لم نقل به ولا يمكن أن نقول به . إننا عندما أخذنا فى إبراز بعض الاعوجاجات التى ابتلى بها إنسان الحضارة ، فإننا لم نكن نقصد الطعن فى الحضارة ككل ، لم نكن نعنى ضربها فى الصميم والإتيان عليها . لم يكن لسان حالنا « أيها الإنسان ... انفض عن نفسك كل ما علق بك من حضارة، ارجع إلى مجتمع القبائل البدائية » . إن كل ما نعنيه هو أن نصحح المسار الذى ضربت الحضارة فى إثره ، بحيث لا تضل الطريق وتتعرض الإنسانية للأخطار التى بدأت تسقط فى مهاويها .

وليس هناك ما يمنع من إبراز ما كانت تتمتع به المجتمعات القديمة السابقة على الحضارة من جوانب يفتقدها المجتمع الحديث ، فننادى ونطالب بإلحاح بالعمل على استرداد تلك المزايا التى افتقدت أو التى تتعرض للفقدان . أما كيف السبيل إلى تصحيح مسار الحضارة ، فهذا ما سنكرس له الفصل الأخير من هذا الكتاب .

والواقع أن كلا من الرجعيين والتقدميين والمتطرفين لا يتمتعون بالفكر المفتوح الذى يستطيع أن يستوعب الحقائق بغير تحيز وبغير تعصب . ولعلنا نبحث عن الأساس السيكولوجى الذى ترتكز عليه كل من الرجعية والتقدمية المتطرفة . فمن حيث الرجعية فإننا نجد أن هناك مزاجا انطوائيا وآخر انبساطيا. والانطوائيون يعيشون فى داخلهم ويرون الحياة من منظار أنفسهم . أما الانبساطيون فإنهم يعيشون فى الخارج ويشاهدون أنفسهم من الخارج . إنهم يترجمون دخائلهم فى ضوء ما تقع عليه أبصارهم فى الخارج .

والشخص الانطوائى يعيش حياته الداخلية حول بؤرة نفسية ثابتة جوهرية لا تتغير. إنه يضيف إلى تلك البؤرة ويوسعها ويخصبها ، ولكنه لا يعيش حول بؤر كثيرة . فهناك محور ذاتي يدور حوله فكره ووجدانه ، وهو محور ثابت لا يتغير ولايتطور . وكما أن الرجعى يعمد إلى سحب جميع الظواهر الخارجية التى يقع عليها حسه إلى تلك البؤرة الداخلية ويذيبها فيها ، فإنه على نفس النحو يعيش فى ماضٍ تاريخى شبيه بذلك الماضى النفسى الذى يرتكز عليه . فهناك فى نظر الرجعى ماض تاريخى مواز للماضى النفسى الذى يتمركز حوله كل نشاط لديه .

أما الشخص الانبساطى فإنه على عكس الانطوائى يعيش فى الخارج ، فهو شخص متفاعل مع الوقائع التى تحيط به من حوله وتتم تحت حواسه وتتصل بحياته وواقعه . إنه شخص يذيب مزاجه واتجاهاته فى الخارج ويدير أفكاره ويمركز ميوله حول مراكز أو محاور موضوعية خارجية . من هنا فإنك تجد أن المزاج الانبساطى يناسب مزاج التقدمى المتطرف . فهناك توازٍ بين الاستمساك بالخارج وبالحاضر باعتبارهما كل الحقيقة وبين ما يتصف به المزاج الانبساطى من تبأور حول الخارج الموضوعى .

ولكننا مع هذا لا نعنى أن كل انطوائى يكون بالقطع شخصا رجعيا ، وأن كل انبساطى يكون بالضرورة شخصا تقدميا متطرفا . ولكن كل ما نعنيه أن الخامة النفسية الصالحة للرجعية هى الخامة الانطوائية ، وأن الخامة النفسية الصالحة للتقدمية المتطرفة هى الخامة الانبساطية . والخامة النفسية تساعد بلا شك على تشكيل المزاج الرجعى أو المزاج التقدمى المتطرف .

وواضح إذن أن من الممكن أن يكون الشخص الانطوائى أو الشخص الانبساطى من العلميين ، وبذلك يخرج من نطاق الرجعيين ومن نطاق التقدميين

المتطرفين . فكما أن حالات الجنون ترتكز على أساس مزاج سوى معين، كذلك الحال بالنسبة للرجعية وبالنسبة للتقدمية المتطرفة . فعلماء النفس يقولون لنا؛ إن مرض الفصام يصيب الانطوائيين ،وأن مرض الهوس (المانيا) يصيب الانبساطيين . فإذا نحن اعتبرنا الرجعية والتقدمية المتطرفة مرضين اجتماعيين، إذن لقلنا إن الرجعية تختار لها الخامة الانطوائية ، بينما تختار التقدمية الانبساطية المتطرفة خامة مناسبة لها لتشكيل ملامحها وتحديد قسماتها .

الانحلال فى شجار مع النفاق

تتنازع الشباب اتجاهات متضاربة يمكن تلخيصها فى فئتين أساسيتين : فئة يمكن تسميتها بعوامل الانحلال ، وفئة أخرى يمكن تسميتها بعوامل النفاق . والانحلال هو التنحى عن القيم الأخلاقية التى دأب المجتمع على الأخذ بها ، والنفاق معناه: المبالغة فى الاستمساك بالقيم الأخلاقية ، بل وبالصيغ الأخلاقية ، وشكليات السلوك التقليدى ، بغير أن يكون هناك صدى لذلك فى نفسية الشخص أو اعتمال له فى أعماقه .

وكل مجتمع يعمد إلى تحريم بعض التصرفات على أبنائه بغية الحفاظ على أفراده والتقدم بهم فى سلم الرخاء والتقدم ، ولعل الجنس البشرى كان يصدر فى تحريماته عن بواعث لا شعورية ، أى بواعث لا يدرك مغزاها ولكنها بواعث جديرة بالاعتبار ، خذ مثالا لذلك عدم الزواج من المحارم . لقد حرمت الأديان والأعراف الاجتماعية الزواج من بعض الأفراد ذوى الدرجات القريبة جدا من القرابة كالآباء والأمهات والإخوة والأخوات . وعند إعلان تلك التحريمات لم يقدم المجتمع إلى أفراده تعليلا فسيولوجيا عن الضعف الذى يصيب النسل نتيجة معاشرة ذوى المحارم . ولكن ثبتت صحة ذلك بطريقة قاطعة نتيجة الدراسات

العلمية الحديثة التى أجريت على النباتات والحيوانات ، ونتيجة الملاحظات التى جمعت من المجتمعات التى تنغلق فى الزواج على الأقارب وحدهم بصفة عامة .

بيد أن كل جيل يقوم باستخدام تحريمات جديدة يضيفها إلى التحريمات القديمة ، فصارت هناك محرمات لانهاية لها تكبل الإنسان الحديث إذا هو أخذ على عاتقه أن يرعى جميع الأصول التحريمية وأن يقيد سلوكه بحذافير ما صدر بإزائه من تحريمات خذ مثالا لذلك السنن الأخلاقية المتعلقة بالمسائل الجنسية . لقد كان في مستطاع الإنسان القديم نسبيا أن يتخذ له عددا معينا من الزيجات بالإضافة إلى ما يمكن أن يمتلكه من جوار ومن نساء مسبيات فى الحروب التى اشترك فى معاركها . ولكن المجتمع الحديث أضاف إلى المحرمات الجنسية القديمة محرمات جديدة . فلاشك أن حركة تحرير المرأة قد واكبتها المطالبة بمنع تعدد الزوجات واحترام حرية المرأة فى القدرة على السعى إلى فسخ عرى الزوجية، إذا ثبت لها أنها غير سعيدة فى زواجها ، أو إذا هى لم تجد أنها قد حققت آمالها المنشودة فى الزواج . أضف إلى هذا أن منع الرقيق ومنع سبى النساء بسيادة القانون الدولى قد أدى إلى ظهور مجموعة من المحرمات الجنسية لم تكن موجودة من قبل . وما يقال عن المسائل الجنسية يمكن أيضا أن ينسحب على غيرها من مسائل اجتماعية تتعلق بالمعاملات والمرور والمبانى والآداب العامة وغير ذلك .

وواضح أن المحرمات المستحدثة لا تعمل على جب المحرمات القديمة ، بل إنها تضاف إليها وتتواكب معها ، وينجم عن هذا بلا شك ثقل العبء الذى على الإنسان الحديث أن يحمله ، إذ إن عليه أن يلتزم بالقديم والجديد على السواء من التحريمات .

ولقد نتج عن هذا حلول أربعة : الحل الأول: بذل الجهد اللازم لمراعاة

التحريمات القديمة والتحريمات الجديدة على السواء ، وإخضاع الذات تماما لكل تحريم من التحريمات . الحل الثانى : النفاق فى إبداء المراعاة الشكلية للتحريمات القديمة والتحريمات الجديدة على السواء ، والظهور أمام الناس بمظهر الخاضع لتلك النواهى التحريمية ، وعدم مراعاتها فى السلوك الحقيقى . ذلك أن الشخص يمكن أن يسلك سلوكين : سلوكا ظاهريا وسلوكا مستترا . فيكون فى سلوكه الظاهرى متمسكا بل وداعية من دعاة التحريمات القديمة والحديثة ، بينما يكون فى سلوكه المستور عن الأعين غير مراع لما يبدى أنه مؤمن به . أما الحل الثالث: فهو حل اجتزائى ، إذ قد يعمد الشخص إلى مراعاة بعض تلك الحدود ، بينما يعزف عن بعضها الآخر ، فيقوم بعملية اختيار من بينها ، أما الحل الرابع والأخير : فهو حل انحلالى ، إذ يعمد الشخص فيه إلى إعلان عصيانه لما قرره المجتمع قديما وحديثا من حدود وهذا الحل الأخير هو الحل الانحلالى؛ لأن الشخص فى اختياره لهذا الحل يكون قد كفر بتلك القيود التى قررها المجتمع ، ويكون خارجا على قوانينه ونظمه .

ولا شك أن الشخص الذى يلتزم بالحل الأول يكون قد استطاع أن يوفق بين نفسه وبين المجتمع بقهر الذات وتذويبها فى المجتمع . ذلك أن مثل هذا الشخص يتقمص المجتمع أو يمتصه فى ذاته ولا تظهر لديه تلك الثنائية فيما بين الإنية الفردية الغيرية الاجتماعية . فهذا الحل إذن حل حاسم ، وإن كان على حساب الفرد وبين وعلى حساب ما لدى الفرد من ذكاء واختيار. ولعلنا لانجانب الصواب إذا قلنا: إن الآخذين بهذا الحل لايختارون ، فهم لا يتخذون إلا خطوة واحدة هى خطوة قهر الذات وسحقها لصالح المتطلبات والتحريمات الاجتماعية . والواقع أن الاختيار يكون بين شيئين وليس القبول بشىء واحد بغير قيد أوشرط . فصاحب هذا الحل يجعل أمامه شيئًا واحدًا يظل يجاهد فى سبيل الحفاظ عليه ومراعاة حدوده وسننه . ولا شك أيضا أن صاحب هذا الحل يكون صاحب حياة قاحلة ولا

يكون له موقف إيجابى من أى نوع . إن موقفه سلبى بحت وتقبلى بحت . فهو مأمور دائمًا وخاضع للنواهى بصفة مستمرة .

أما صاحب الحل الثانى فهو حل المنافق ، والمنافق شخص جبان يخشى مواجهة الواقع برغم إعماله بذكائه فى النواهى والمحرمات التى سنها المجتمع قديما وحديثا . فالمنافق شخص لا ينقصه الذكاء ولا تنقصه القدرة على النقد ، بل تنقصه القدرة على الجهار بالرأى المخالف لما استنه المجتمع وقرره من حدود . والمنافق يجد تناقضا يعتمل بداخله بين اتجاهين أساسيين : اتجاه نحو التكيف للمجتمع والتوافق مع ما استنه من سنن وما قرره من حدود، واتجاه عقلى تمحصى ، إذ إن الشخص المنافق يرغب فى الوقوف على جلية الأمر ، ولا يحب أن يكون شخصا إمعة يصدق كل شىء ويتقبل كل ما يؤمر به ، وينتهى بكل ما ينتهى عنه . وهو أيضا شخص يريد الحفاظ على إنيته فهو لا يرغب فى تذويب نفسه فى المجتمع ، بل يرغب فى أن يتخذ موقفا محددا بإزاء المجتمع . ولكن تحديده لموقفه من المجتمع لا يتعدى نطاق نفسه إلى الواقع الاجتماعى الخارجى . إنه يكتفى بتحديد هذا الموقف بداخله ولايخرج به إلى حيز الوجود الاجتماعى الخارجى ، فموقفه أشبه بموقف الحيوانات المتحوصلة التى تبحث لها عن غلاف تختبئ فيه وتحمى نفسها فى طياته ، فالحيوان المتحوصل يقيم ستارًا بينه وبين الواقع الخارجى ويأبى مواجهة ذلك الواقع؛ خشية ما يمكن أن يوقعه عليه من أضرار قد تودى بحياته . وهذا أيضا يحدث فى حالة المنافق . إنه يخشى الخروج بما يعتمل فى صدره من آراء واتجاهات مناهضة لما يأخذ به المجتمع خشية أن يفتك به ويأتى عليه ويصارعه فيصرعه . ومن هنا فإنه يعيش فيما يشبه حلم اليقظة ، بأن ينسج لنفسه عالما خاصا به هو عالمه الحقيقى الجوهرى ، ولكنه يدأب على الحفاظ على مقومات ذلك العالم الشخصى الداخلى؛ حتى لا ينكشف أمره أمام الآخرين ، وحتى لا يعلن التناقض المترتب على موقفه

فيما بين العالم الداخلى – أعنى: عالمه الشخصى العقلى – وبين العالم الخارجى – أعنى: العالم الاجتماعى ومحرماته وحدوده – من هنا فإنه يحاول جاهدا تحقيق التوفيق الشكلى الزائف بين شخصه وبين المجتمع ، وذلك بارتداء زى سلوكى مغاير لما يعتمل فى طياته من أفكار ومعتقدات واتجاهات وقيم .

أما الحل الثالث ، وهو الحل الاجتزائى ، فإن صاحبه يجتزئ بجانب دون الجوانب الأخرى . فهو لا يتقبل كل النواهى فيرعاها شأن صاحب الحل الأول ، وهو فى نفس الوقت لا يتخذ الحل الثانى فيظهر بوجه أمام المجتمع ، ويكون فى حقيقته بوجه آخر أمام نفسه . إنه يختار جانبا من التحريمات أوالحدود ويرعاها فى سلوكه الشخصى وفى حياته أمام الناس ويبرهن عليها ويدعمها ، بينما يرفض جانبا آخر من الحدود المقررة ويدحضها ويكون له موقف إيجابى ، ولا يكون قد عمد إلى إذابة نفسه فى المجتمع بل محافظا على وجوده الفردى وعلى قدرته على النقد وإبداء الرأى، ولعل هذا الصنف من الناس أكثر جرأة وأكثر صراحة وقدرة على مجابهة المجتمع من النوع الثانى الذى يسلك سلوكا مستخفيا تمام الاستخفاء . فالشخص هنا ليس شأنه شأن النوع الثانى الذى يترك نفسه لانطباعات المجتمع تشكله كيفما يحلو لها ، كما أنه أيضا ليس كأفراد الفئة الثانية الذين يخشون مجابهة الواقع وإعلان موقفهم بصراحة لمن حولهم .

وأخيرا نأتى إلى الفئة الأخيرة صاحبة الحل الرابع وهى فئة الانحلاليين . ولقد فضلنا استخدام لفظ انحلاليين على استخدام لفظ « منحلين » ، وذلك لأن الانحلالى شخص لم يكن الانحلال لديه نتيجة جهل بالقيم والمحرمات الاجتماعية ، بل كان نتيجة الوقوف على أنواع المحرمات ثم رفضه لها عقليا وسلوكيا . أما المنحل فإنه شخص كان انحلاله نتيجة الجهل وعدم القدرة على الوقوف على مقومات الموقف أو كان نتيجة لعوامل نفسية لا شعورية فى أعماقه .

والانحلالى شخص يجاهر بعصيانة للمحرمات جميعا ويحيلها فى عقله ووجدانه وسلوكه إلى محللات . والانحلالى في الغالب شخص يجرى وراء اللذائذ أيا كانت وفى أى مكان كانت . إنه يبحث فى نفس الوقت عن مبررات لمناهضته للمجتمع فيما يصدره من تحريمات . ولقد يستخدم أسلوب السخرية والبراهين المقتضبة والجمل القاطعة؛ لإفحام سامعيه . وفى بعض الأحيان قد يبدو الانحلالى سعيدا مرحا أمام الآخرين ، ولعله يستخدم أسلوب المرح وإبداء السعادة: حتى يجذب الآخرين إلى مذهبه الانحلالى .

وعلى الرغم من أن الانحلالى شخص يستخدم المنطق فى براهينه لجب الحدود التى فرضها المجتمع ، فإنه فى نفس الوقت يكون قد خبأ فى باطنه اللاشعورى شحنه انفعالية موجهة ضد المجتمع وضد قيمه المتباينة . فهو يكن كراهية شديدة للمجتمع ويدافع عن ذاتيته بشدة وصلابة ودأب ذلك أنه يكتشف فى نفسه خوفا من عدوانية المجتمع عليه ، فلا يجد سبيلا أمامه إلا إعلان الحرب على الخصم المتربص به . فالانحلالى يخشى من ذوبان إنيته فى الكيان الاجتماعى ، ويخشى العبودية التى قد يفرضها عليه بتحريم كثير من تصرفاته ، فيدافع عن كيانه الفردى بكل عزيز وغال .

والانحلالى يرغب فى أن يكون هناك اتساق وانسجام بين داخله وبين خارجه . فهو لا يريد أن يتخذ الموقف الذى يتخذه المنافق ، فيضحى بوجهين ، وجه يتعامل به مع نفسه ووجه يتعامل به مع المجتمع . إنه يريد أن يسلك سياسة واحدة لا تتغير ، وباتجاه واحد فى مسلكه لا يحيد عنه .

ولاشك أن موقف الانحلالى من زاوية الشجاعة ، لهو أقل حطة من موقف المنافق . ذلك أن الجهر بما يؤمن به الانحلالى وإعلان مسلكه وأفكاره أمام الملأ لما يؤكد أنه على جانب أكبر من الشجاعة من المنافق ، ولمما يؤكد أنه أكثر

مراحة منه . ولذا فإنك تجد أن هناك تناقضا بين موقف الانحلالى وبين موقف المنافق .

والواقع أن كلا من المنافق والانحلالى يرتكزان فى موقفهما على أسس جديرة بالاعتبار . فالمنافق يقدم براهينه حول موقفه على النحو التالى :

أولا : لاشك أننا نحن المنافقين نحقق التكيف بيننا وبين المجتمع ، فنرعى حدوده ولا نناهضها ولانتصادم مع محرماته . ذلك أننا على الرغم من مخالفتنا لما يقول به المجتمع فى سلوكنا ، فإننا لا نجهر بذلك بل نعمل ذلك خفية ونعلن موافقتنا لما يذهب إليه .

ثانيا : إن مسلكنا يحقق لكل منا حرية التصرف برغم حرماننا من حرية الجهر بما نراه .

ثالثا : إننا بذلك المسلك نكسب أكبر عدد من الأصوات إلى جانبنا بينما يخسر الانحلاليون أكبر عدد منها .

رابعا : لا شك أن سلوكنا هذا يكفل لنا العيش فى سلام وطمأنينة .

خامسا : إننا بمسلكنا هذا نكفل الحرية للمجتمع ولأنفسنا فى نفس الوقت . فله أن يسلك كما يحلو له ولنا نحن أن نسلك كما نشاء .

أما براهين الانحلالى فهى على النحو التالى :

أولا : لا شك أننا أناس شجعان ، بينما يتصف سلوككم أيها المنافقون بالجبن .

ثانيا : الواقع أن سلوكنا يكفل لنا الحرية الحقيقية : حرية الفكر وحرية التصرف .

ثالثا : إن سلوكنا يحقق الانسجام وعدم التناقض بين دخائلنا وبين سلوكنا الظاهرى .

رابعا : لا شك أن موقفنا هذا دليل قاطع على ما نتمتع به من قوة وذكاء .

خامسًا : إن موقفنا بالرغم من أنه يسيء إلى المجتمع فإنه يعمل على تطويره فى المدى البعيد .

ومهما كان موقف كل من الانحلاليين والمنافقين ، فمما لا شك فيه أن المجتمع بحاجة إلى غربلة تحريماته من وقت لآخر ، بحيث يقدم حدودا معقولة ومناسبة إلى أبنائه لا ترهقهم ولا تؤدى إلى تمزقهم . وهذا منوط بأصحاب الحل الثالث الذين يرفضون مبدأ الخضوع الأعمى ومبدأ النفاق ومبدأ الانحلال ، ويستمسكون بمبدأ التمحيص والغربلة أو التطور بالقيم الاجتماعية لصالح الفرد والمجتمع على السواء .

★ ★ ★

الفصل الخامس

أزمة التوافق الوظيفى

ماذا بعد التخرج

نقصد بالتخرج: الانتهاء من دراسة منتهية سواء كانت مرحلة تعليمية متوسطة، أو فوق المتوسطة، أو مرحلة تعليمية جامعية . لقد كان التخرج قديما مرتبطا فى أذهان الناس بمجموعة من التوقعات نحددها فيما يلى :

أولا – كان المتوقع للمتخرج شغل وظيفة حقيقية يحتاج إليها المجتمع . ولم يكن ينظر إلى التعيين بعد التخرج باعتباره نوعا من المنحة أو الشفقة أو المساواة بين الخريجين حتى يلتحق الجميع بالوظائف بغير استثناء حتى ولو أدى هذا الاتجاه إلى انتشار ما يعرف بالبطالة المقنعة . وبتعبير آخر: كان سوق العمالة فى حاجة إلى أيد عاملة أكثر من الخريجين ، وبالتالى فإن جهات العمل كانت تنتظر الخريجين بفارغ الصبر ، فتتلقفهم وتغريهم بالمرتبات الكبيرة حتى لا يفلتوا منها وتتلقفهم جهات عمل أخرى .

ثانيا – كانت القوة الشرائية للعملة مرتفعة ، وكان الموظف أيا كان حتى ذاك الذى كان يقع فى أسفل السلم الوظيفى قادرا على تغطية جميع نفقاته ويدخر من راتبه الشهرى . وكان الموظف الجديد قادرا على استئجار شقة من الشقق الكثيرة المعروضة وكان يستطيع فى نفس الوقت النهوض بتكاليف الزواج بغير مشقة بحيث لا يستدين بل كان يبدأ حياته الزوجية فى وفر وسعة .

ثالثا – كان ينظر إلى الخريج بنظرة كلها ثقة فيما تم له كسبه من علم ومعرفة وثقافة عامة ومتانة فى أدوات التعبير والأداء . فلقد كان المؤهل الدراسى متواكبا مع اكتمال النضج الخبرى والنضج الاجتماعى والنضج المهنى فى نفس الوقت . فكانت الوظائف توكل إلى الخريجين فيضطلعون بها أحسن اضطلاع ، بل إن ما كانوا يكتسبونه من خبرات بالمؤسسة التعليمية كان أزيد مما كانت تتطلبه الوظائف التى تسند إليهم .

رابعا – كان الطريق موصولاً بين المهن وبين مؤسسات التعليم ، بمعنى أن ما يتلقاه المتعلم من علم وخبرة غير زائغ عن المطلوب بالحياة العملية بعد التخرج . فلم تكن المؤسسات التعليمية متخلفة عن ركب الحضارة ، بل قل: إن تلك المؤسسات هى التى كانت تمسك بدفة الحضارة وتوجهها وتتقدم بها خطوات إلى الأمام .

خامسا – كانت المؤسسات التعليمية عاملا رئيسيًا من عوامل تثبيت القيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية فى نفوس الملتحقين بها . فكان الخريجون يحملون معهم أرقى القيم إلى واقع الحياة العملية . فكانوا نماذج طيبة بالبيئات التى ينخرطون فيها ، بل إن تلك البيئات والناشئة فيها كانوا ينظرون إليهم بنظرات الإعجاب والتقدير والاحتذاء .

بيد أن مكانة الخريجين فى المؤسسات التعليمية على اختلافها قد تدهورت إلى حد بعيد . ويرجع هذا التدهور إلى الأسباب الآتية :

أولا – تتجه الحضارة بسبب التقدم التكنولوجى إلى الاقتصاد فى الأيدى العاملة . فصارت الأجهزة والآلات تضطلع بالأعمال ، فلم تعد ثمة حاجة إلى الأعداد الضخمة من العاملين ، بل صارت هناك حاجة إلى قلة قليلة منهم تراقب الآلات أو الأجهزة . والعجيب فى مسيرة الحضارة أنها سارت لصالح أصحاب

الخبرات النادرة من جهته ولصالح الفئات قليلة المهارة جدا من جهة أخرى، وبتعبير آخر : فإن الحضارة صارت تستغنى عن الفئات التى تقع بين أصحاب الخبرات النادرة وبين أصحاب الحرف التى لا تستند إلى أساس علمي متين ، بل يتم اكتسابها بالتقليد والممارسة أو الحرف التى تحتاج إلى لياقة بدنية معينة كحمل الأثقال أو التنظيف أو نحو ذلك .

ثانيا - ظهرت طبقة جديدة من الأغنياء جدا يحسب دخلهم بالملايين من الجنيهات وهذا بالتالي أفقد الرواتب قيمتها بما فى ذلك راتب الوزير نفسه .فما بالك بالخريج الجديد الذى لم يعد راتبه يكفيه إلا لبضعة أيام . ذلك أن زيادة الدخول بالملايين قد أدت إلى موجة رهيبة من الغلاء . فأغلق الأمل أمام الخريج فى استئجار شقة معقولة بإيجار معقول يتناسب مع راتبه الضئيل . ناهيك عن الأسعار الباهظة لكل شيء كالأثاث والملابس ونفقات المعيشة اليومية .

ثالثا - ومادام الاستقرار المالي للخريج غير متوافر ، فإن قيمة الأعمال التى تسند إليه فى الوظيفة التى لا تدر ما يكفى نهوضه بأعبائه أو تحقيق أمله فى مستقبل معقول قد تدهورت إلى حد بعيد ، فانتشر الإهمال والتراخى واحتقار العمل بين الموظفين بالمؤسسات الحكومية والشركات والبنوك ونحوها .

رابعا - وبالتالى فقد انهارت قيم كانت مقدسة . فتحت وطأة الحاجة انتشرت الرشوة بين الموظفين ، وقد اكتسبت مسميات جديدة كالهدايا والمجاملات والتعارف ونحوها . وكثير من الموظفين يزاوجون بين وظائفهم وبين بعض الأعمال الحرة . وبعضهم يهرب من مقر العمل لبعض الوقت فى نظير الحصول على كسب آخر بمزاولة أعمال أخرى . ونجم عن ذلك تعطل كثير من الأعمال والمصالح ، ولم تعد تقضى إلا مصالح من يتخذ طرقا ملتوية باستثناء قلة كادحة تحت وطأة الظروف القاسية .

خامسا – أما الحلول الترقيعية كتعيين دفعات التخرج حسب السنة التى وصل إليها التعيين ، فإنه يؤدى إلى إلحاق الخريجين بأية مؤسسات أو أية وظائف لا قبل لهم بها ولا يتقنون من مهامها ولو ذرة واحدة . فخريج الجيولوجيا يمكن أن يعين بوزارة المواصلات ، وخريج كلية الزراعة يمكن أن يعين بالجهاز المركزى للمحاسبات . ومن هنا فإن مستوى الكفاءة قد انحط فى كثير من الوظائف، كما فقد الخريجون ثقتهم فى أنفسهم ، وشعروا بأنهم هامشيون لا يعتد بهم أو بكفاءاتهم .

فماذا إذن بعد التخرج ؟ إن أمام الخريجين مجموعة من الحلول التى عليهم أن يختاروا من بينها . والحلول المتاحة هى :

أولا – الضرب صفحا عن التخصص الذى يشير إليه المؤهل الدراسى الذى حصل عليه الخريج ، والبدء من جديد فى تعلم أصول إحدى الحرف اليدوية التى تدر على الممارس لها دخلا ضخما . وهذا الحل اتجه إليه بعض خريجى الجامعة فى كليات متباينة ، فاشتغل بعضهم فى أعمال الألوميتال وبعضهم فى التبليط وبعضهم الثالث فى ميكانيكا السيارات أو السمكرة ، وبعضهم فى قيادة سيارات التاكسى وما إلى ذلك من أعمال لم تكن بحاجة إلى كل تلك السنوات التى قضاها الخريج فى الاستذكار ودخول الامتحانات وتحميل الدولة الإنفاق على تعليمه بالمجان .

ثانيا – محاولة الالتحاق بالدراسات العليا فى نفس التخصص أو بدراسة أعلى من الدراسة التى انتهى منها الخريج أملا فى زيادة الراتب أو أملا في الوصول إلى قمة التخصص فتزداد قيمته فى سوق العمالة ويعتبر ضمن الخبراء النادرين . وهذا الحل وإن كان يتجه إليه كثير من الخريجين ، فإنه فى الواقع من الحلول الصعبة المفروشة بالشوك ، بل إن نسبة كبيرة ممن اختاروا هذا الحل قد أخذوا يعضون بنان الندم لأنهم لم يجنوا الثمار التى كانوا يترجونها من وراء كفاحهم فى الدراسات العليا أو التخصصات النادرة .

ثالثا – الاغتراب مؤقتا بإحدى الدول العربية أو إحدى الدول الأفريقية أو الأوروبية لجنى ثروة خلال بعض سنوات ثم العودة إلى أرض الوطن والعودة إلى نفس الوظيفة أو نفس المؤسسة وقد توافرت العملة الصعبة ، فيشترى ذلك الخريج الذى اغترب عدة سنوات عن أرض الوطن الشقة المرجوة ويتزوج ويبنى أسرته . بيد أن هذا الحل ليس حلا سعيدا على طول الخط . ذلك أن الحل الكبير الذى اعتاد عليه ذلك الشخص فى أرض الغربة لم يعد متوافرا له بعد عودته ، الأمر الذى يشعره بالتعاسة وينزل به عن مستواه الاقتصادى فتظلم الدنيا فى وجهه من جديد .

رابعا – الامتهان بمهنة أو بحرفة إلى جانب المهنة أو الحرفة التى يشتغل فيها بوظيفته فخريج مدرسة الصنايع الذى يعين بأحد المصانع الحكومية يمكن أن يشتغل فى وقت فراغه بعد الظهر بإحدى الورش بالقطاعات الخاصة . وكثير من المدرسين يعطون الدروس الخصوصية أو يقومون بتأليف الكتب والمذكرات المدرسية . وبعض الخريجين يغيرون مهنتهم أو يشتغلون بنفس المهنة فى أماكن أخرى وراء الكسب .

خامسا – الهجرة الكاملة إلى أمريكا أو استراليا حيث الآمال البراقة فى العيش الرغد والحياة السعيدة . ولكن الواقع أن كثيرا ممن التمسوا هذا الحل قد خابت آمالهم ولم يجدوا ثمن تذكرة العودة نادمين إلى أرض الوطن فصاروا ضائعين محطمين فى أرض الغربة وليس فى جيوبهم شروى نقير . ناهيك عن أن الكثير منهم يعانون معاناة أليمة؛ لأنهم لا يتمكنون من إتقان لغة التخاطب، ولم يتكيفوا للقيم الاجتماعية بالمجتمع الجديد الذى التحقوا به . وكثير منهم يعانون نفسيًا لأن أطفالهم نشأوا هناك على قيم متضاربة مع قيمهم وتقاليدهم .

العلاقات بالرؤساء :

كانت العلاقة قديما بين الرئيس ومرؤسيه فى المؤسسات المتباينة علاقة

طبيعية ، إذ كان الرئيس يعتبر المرؤوسين بمثابة أولاد له يرعاهم ويوجههم ويؤدبهم حتى يحسن تربيتهم وظيفيا ، فيُخرج منهم موظفين محنكين استفادوا من خبراته واكتسبوا صلابة فى الشخصية وارتباطا وثيقا بالعمل . فكانت تلك العلاقة امتدادا لعلاقة الأب بأولاده بالبيت ، وامتدادا أيضًا لعلاقة المدرس أو الأستاذ بتلاميذه أو طلبته .

بيد أن هزة عنيفة قد عملت على تصديع العلاقات فيما بين الكبار والصغار ذلك أن السلطة الأبوية قد تصدعت منذ بواكير طفولة الطفل . فهو لا يرى فى أبيه العمود الفقرى للأسرة كما كان حال أطفال الأجيال السابقة ، وكذا فإنه لا يرى في أمه ذلك العمود الفقرى . لقد صار الأب والأم غريبين بالأسرة ، إنه لا يكاد يراهما خلال يومه إلا لبعض لحظات خاطفة ، وقد وصلا إلى البيت منهكين ومشغولين عنه أو عصبين يضيقان به ذرعا إن هو نبس ببنت شفة أو وجه إليهما أى طلب . وأكثر من هذا فإن الكثير من أطفال الاجيال الحديثة يكنون للوالدين حقدا وكراهية متمنين لهما الموت أو متلهفين على لحظة الخلاص من نيرهما الثقيل .

ومن الطبيعى أن يحمل الطفل هذه الكراهية إلى المدرسة ، أعنى: إلى بديل الوالدين وهم أولئك المعلمون الذين يحتلون مكان الأبوة والأمومة فى تلك المؤسسة التى دخلت فى حياته شريكا جديدا لأسرته فى شئون رعايته . ومادامت الكراهية قد انتقلت مع الطفل إلى المدرسة منذ اللحظة الأولى لالتحاقه بها ، فإن تلك الكراهية تنمو وتستفحل فى قلبه كلما تقدم فى السلم التعليمى . فهو لا ينظر إلي أساتذته بإجلال واحترام ، بل ينظر إليهم بحقد وتربص بأخطائهم ، بل يتمنى فى قلبه أن يجد فى كل منهم المسخ الذى يستهزئ به ويضحك منه ويثير سخرية زملائه عليه .

ويتخرج هذا الإنسان ويحصل على المؤهل الدراسى الذى يعتبر المسوغ للتعيين فى إحدى الوظائف . وما إن يرى رئيسه حتى يشاهد فى وجهه صورة والديه ثم صور مدرسيه . فهو إذن إما عدو لدود لا بد من مناهضته بشتى الوسائل، ولابد من تقليم أظافره قبل أن يخدش بها كرامته . فلابد إذن من البدء فى التحدى والهجوم . ولكن ألا يجب عليه قبل التحدى والهجوم إيقاع الرئيس فى مصيدة الأخطاء ؟ إذن لا بد من إحصاء أخطاء ذلك الرئيس وإثباتها بوقائعها ومكان وتاريخ وقوعها و الاحتفاظ بها لإذلاله فى الوقت المناسب . وبعد جمع مجموعة من الأخطاء أوالمخالفات ، يبدأ التصدى والهجوم . فإذا ماقابل الرئيس التحدى والهجوم . بتحد وهجوم مضاد ، عندئذ تبرز الأوراق الخفية وتعلن على الملأ سواء للتشهير ، أو للتهديد ، أو لإيقاع أشد العقوبات على ذلك الرئيس الذى تجرأ على التحدى والهجوم ، أوقل تجرأ على الدفاع عن موقعه بإزاء ذلك الموظف الجديد .

بيد أن الرئيس الذى يجد ذلك المرؤوس الجديد وقد وقف منه موقف التحدى قد يرى أن من الأصوب التزام جانب الحكمة مع ذلك الغر الصغير . فهو إذن يقابل التحدى والهجوم باللين والحب والتعاطف . فماذا يكون موقف الموظف الجديد من تلك المعاملة اللينة الحسنة ؟ إنه يترجمها بأنها الضعف والخوف والخور الذى ألم بذلك الإنسان الجبان . إن مقود العمل إذن فى يده وليس فى يد ذلك الرئيس الخواف . وما دامت هذه الطريقة الصارمة مع الرئيس قد نجحت كل هذا النجاح ، وقد استطاع باستخدامها أن يكون فى المكانة الأسمى بينما الرئيس فى المكانة السفلى ، فلابد إذن من الاستمرار فى تطبيقها ،بل والتمادى فى تطبيقها وزيادة جرعة التخويف والتهديد لذلك الرئيس اللين المطواع.

ولكن ماهو رد فعل ذلك الرئيس على ذلك المارد الجديد الذى خرج من القمقم؛ ليخنق من أخرجه منه ؟ إن أمام ذلك الرئيس حلا من الحلول التالية عليه أن يقع على واحد منها ويتخذه :

أولا – مقابلة التحدى بتحد مماثل ، مجابهة الهجوم بهجوم مضاد أشد وأعتى ومادامت السلطة الرئاسية فى يده فما المانع من توقيع أقسى العقوبات على ذلك الشاب المتعجرف الذى أعلن العصيان وشق عصا الطاعة منذ اللحظات الأولى من تعيينه ، وقد عامله ذلك الرئيس باللين والهوادة والمهادنة ولكن بغير ما جدوى ، بل إن سياسة اللين والهوادة والمهادنة قد حملته على الطمع فى الاستحواذ على قوة أكبر ، وعلى التمادى فى طغيان لانهاية له .

ثانيا – مقابلة التحدى والهجوم يوجهه الموظف الجديد بالتفاهم والتبصير بالعواقب وإلقاء المواعظ عليه وإسداء النصائح له . فربما يكون جهل ذلك الشاب الغض بالعواقب هو الدافع له نحو اتخاذ هذا الموقف الطائش .

ثالثا – الاستعانة بالمرؤوسين القدامى فى تبصير ذلك الشاب الجديد بالوظيفة حتى يعدل عن طريقته هذه فى التعامل مع رئيسه . فربما يصغى إليهم ويأخذ بنصائحهم وتقويمهم لسلوكه .

رابعا – حصر المواقف والأخطاء التى يقع فيها ذلك الموظف الجديد والبدء فى كتابة التقارير السرية التحريرية ضده لوضعها فى ملف خدمته ، فيكون الانتقام منه انتقاما مستقبليا ، حيث تعمل تلك التقارير على إعاقة ترقيته أو حجب العلاوات عنه ، أو الحيلولة بينه ، وبين المشاركة فى المسئوليات الحساسة المتعلقة بشئون العمل .

خامسا – التخلص من ذلك الموظف الجديد المشاغب وذلك بالمبادرة بطلب نقله إلى أية جهة أخرى؛ حتى بغير انتظار لبديل له . وذلك لمشاغبته وعدم صلاحيته للعمل وعدم قابليته للتعاون مع الزملاء والرؤساء .

والواقع أن جميع هذه الحلول الخمسة لاتجدى نفعا مع ذلك الموظف

الجديد ؛ لأن موطن الداء يضرب بأطنابه فيه منذ الطفولة الباكرة عندما تزلزل نظام الأسرة وفقد الأب والأم مكانتهما فى قلبه ، وعندما صارت الأسرة منعدمة الدفء وقد سلمت شئونه كلها إلى يد خادمة جاهلة أو إلى جدة مخرفة أو إلى دار حضانة لاتعدو عن كونها محلا تجاريا فتحه أصحابه؛ ليدر أكبر ربح عليهم ، فلا نحس فيه المدرسات بروح الأمومة بل إن كل واحدة منهن تنقم على ما بين يديها من مسئولية ، وكيف لا تضيق ذرعا بأطفال غيرها من سيدات ، بينما هى تجد أن الأمهات قد ألقين بعبء مسئولية الأمومة عليها . وكيف بالله تكون أما حنونًا على جميع أولئك الأطفال الذين يزيد عددهم على الثلاثين أو حتى على الخمسين فى بعض الأحيان ؟!

وإذا كان صرح الأسرة قد انهار بهذه الصورة الرهيبة فقد الوالدان سيطرتهما على الناشئة ، ومن بعد الأسرة المدرسة والجامعة ، فكيف يستطيع الرئيس علاج ما استقر وتأصل وامتد بجذوره عميقا فى أغوار الشخصية ؟ فلا العقوبات الصارمة تنفع أو تصلح ، ولا النصائح والمواعظ تجدى مع ذلك المتمرد، ولا تكاتف الزملاء القدامى مع الرئيس؛ لأنهم مثله فى الاستخفاف بالرئيس وربما يزيدون الطين بلة ويشجعونه على زيادة التحدى فيؤلبونه أكثر فأكثر على رئيسهم . أما حصر الأخطاء وكتابة التقارير السرية لإيذاء الموظف الجديد فى مستقبله ، فإنه يلهب قلبه بالنيران ويجعله أكثر عتوا وجبروتا . وأخيرا فإن التخلص منه بالنقل ، بمثابة إعلان الإفلاس فى شأن إصلاح حاله وسياسته ، وبالتالى نقل المشكلة وإحالتها إلى رئيس آخر يعانى بدوره منها ويظل الحال كما هو بل ويزداد سوءا يوما بعد يوم . وإذا كنا قد أرجعنا أساس الداء إلى الطفولة وقد فقد الأبوان مكانتهما وسلطتهما فإننا نضيف إلى هذا بعض العوامل الأخرى التى تساعد على تفاقم العلاقة بين الشباب المتخرج حديثا برؤسائه على النحو التالى :

أولا – تفاهة المسئوليات التى تناط بالموظف الجديد في وظيفته وشعوره

بأنه شخص هامشى لا يتمتع بالنهوض بمسئولية على قدر ما لديه من مؤهل دراسى أو ما فى جعبته الخبرية من خبرات . فهو شعوريا أو لا شعوريا يحمل رئيسه مسئولية وضعه فى ذلك الوضع المهين .

ثانيا - عجز الموظف الجديد عن تحمل مسئولية اتخاذ القرارات ، وقد دأبت التربية منذ نعومة أظفاره حتى نهاية السلم التعليمى على جعله سلبيا يتلقى الأوامر أو العلوم يكدسها فى ذهنه لكى يفرغها فى آخر العام على ورقة الإجابة . وطبيعى أن يلقى مثل هذا المخلوق العاجز عن تحمل المسئولية احتقارًا وازدراء من رئيسه ، مما يحمله على اتخاذ موقف دفاعى بالتحدى والمهاجمة .

ثالثا - إحساس الموظف الجديد بأنه بمثابة جسم غريب يلقى المقاومة ويعامل بحذر من جانب رئيسه ومن جانب المرؤوسين القدامى ، وشعوره بأن الجميع ينظرون إليه باستخفاف وبأنه غض قليل الخبرة . فهذا الشعور يحمله على محاولة إثبات شخصيته ولو بطريق التحدى والهجوم السافر .

رابعًا - اكتشاف معايب سلوكية تصدر عن الرئيس كالتحيز للمرؤوسات الجميلات أو قبوله للرشاوى أو إذعانه للمنافقين المداهنين من المرؤوسين ، أو غير ذلك من سلوكيات تدعوه إلى احتقار رئيسه والرغبة فى تحديه ومهاجمته .

خامسًا - إحساس الموظف الجديد بأن رئيسه ملجم باللوائح والقوانين التى تضعه فى إطار ضيق ، بحيث لا يستطيع أن يفرض سلطانه عليه .

سجن الروتين

المعنى الحرفى للروتين هو: النظام . والنظام فى العمل شىء مطلوب ولابد منه . ولكن كلمة روتين اكتسبت معنى رديئًا ، فصار الروتين يعنى: تعطيل مصالح الناس والبطء فى قضاء مهامهم . ولعلنا نعزو ما لحق بالروتين الذى هو ضرورة لازمة لأى عمل من فساد بالمؤسسات الحكومية والشركات والبنوك إلى الأسباب الآتية :

أولا – النزعة التراكمية : فلقد دأب الناس على الحفاظ على القديم خوف أن تبدو الحاجة إليه . ولا يقتصر هذا الإبقاء على القديم على اللوائح والقوانين ، بل يمتد فى الواقع إلى جميع ما يتعلق بالإنسان . فمعظم البيوت تضم أشياء كثيرة لا حاجة لأحد من أفراد الأسرة إليها . وأكثر من هذا فإن غالبية المكتبات سواء بالمنازل أو بالمؤسسات التعليمية تضم كتبًا ومنشورات يجب التخلص منها . بيد أن الخوف من أن يندم؛ المرء لأنه بعد أن تخلص من الشيء عاد فاحتاج إليه ، فإنه يحتاط ويبقى على كل القديم مضيفًا إليه الجديد .ونفس الشيء يتبدى جليا فى القوانين واللوائح . فكل قانون جديد أو لائحة جديدة تنضاف إلى ما سبق سنه، ولا تسن اللائحة ولا يسن القانون بداءة ، بل هما يستندان إلى القوانين واللوائح السابقة ، فيقال مثلا: « استنادًا إلى اللائحة رقم كذا بالقانون رقم كذا ، فقد تم الاتفاق على تعديل الفقرة كذا فتصير كذا » . وهكذا يضطر من يريد استخدام اللائحة السابقة ، أن يرجع إلى اللائحة الأسبق حتى بداية سلسلة اللوائح الممتدة إلى الوراء لأكثر من مائة عام .

ثانيًا – فئة خبراء اللوائح والقوانين : وفى كل مؤسسة أو مصلحة تجد بعض الأشخاص يحتفظون فى سرية بالأضابير التى تضم اللوائح والقوانين . وهم لا يطلعون المديرين أو وكلاء الوزراء على تلك الأضابير ، بل يقتبسون منها الفقرات التى يرغبون فى اقتباسها لتسهيل الأمور أو لتعقيدها حسب الهوى . وهذه الفئة من الموظفين يشكلون طغمة خطيرة تهدد أى نشاط أو أى ابتكار أو أية محاولة للتحرر من القيود الروتينية المعوقة . وإنك لتجد المديرين ووكلاء الوزراء يحسبون ألف حساب لأولئك الأفراد الممسكين بمفتاح اللوائح والقوانين .

ثالثًا – إخضاع المنطق لنص اللائحة أو القانون لا العكس : وعلى الرغم من أن اللائحة أو القانون قد وضع أول ما وضع بناء عل ما يقرره العقل السليم والمنطق السديد فإن جمع جميع الحالات والظروف فى إطار حال واحدة أو ظرف

واحد من المستحيلات ناهيك عن أن ما وضع فى إطار زمانى مكانى معين لايصلح؛ لكى يطبق فى إطار زمانى مكانى آخر . ومن الخطر والخطل أن نلغى العقل ونستند إلى ألفاظ مرصوصة نطبقها بغض النظر عن المعطيات الجديدة . وكان الأحرى أن يتجاور النص مع الفكر المتجدد ولكن الذى يحدث فى الواقع هو إلغاء العقل أو إبطاله والخضوع خضوعًا أعمى للنص . وليس هذا مقصورًا على اللوائح والقوانين ، بل إنه شائع أيضًا فى مجال التعليم بصدد المناهج الدراسية. فبدل أن تكون تلك المناهج عونا للطلبة والمعلمين والأساتذة بحيث تكون مجرد مؤشرات أو عوامل مساعدة للانطلاق إلى البحث فى بطون الكتب والجرى وراء المعرفة أينما تكون ، فإنها صارت قيودًا على الطلبة والمعلمين والأساتذة جميعًا ، فأخذت بأعناقهم وألزمتهم بحدودها بحيث يكون الخروج عن تلك الحدود خرقًا وتعديًا وتحديًا للأصول المرعية .

رابعًا – مركزية الروتين : والروتين يتصف بالعمومية وبالمركزية . فهو لا يأخذ فى اعتباره تباين المؤسسات بعضها عن بعض ، ولا يجعل للعاملين فى أحد القطاعات دورًا فى خلقه أو تطويره أو تعديله ، بل هو ينبثق مركزيا من الجهات العليا التى تقع فى قمة الإدارة ، ثم يلزم جميع الجهات التابعة لها بتطبيقه ولو أن الروتين كان منبثقًا من كل وحدة من الوحدات الإدارية أو الثقافية ، لكان فى مستطاع كل وحدة التعديل والتغيير والتطوير بالحذف والإضافة حسب مقتضى الأحوال . ولكن لأن الروتين مركزى ، فإنه يتصف بالسلطة المطلقة بحيث لا يكون فى مقدور الواقعين فى القاعدة سوى طأطأة رؤوسهم له والخضوع حرفيا لما يأمر به ويقرره .

خامسًا – تثبيط همة المجتهدين : والروتين يلجم كل مجتهد . ذلك أن كل شىء قد تقرر وتحدد مسبقًا فى القوانين واللوائح . ومن هنا فإن الشباب المفعمين بالروح الثورية التجديدية لا يجدون لهم دورًا يمكن أن يلعبوه فى التخطيط أو

الأداء . فلقد جعلهم الروتين مجرد تروس فى آلة كبيرة . فلا يستطيع الواحد منهم ترك بصمته على العمل الذى يضطلع به . فإذا هو حاول ابتكار شىء جديد برز له من يقول له: « إن ما فعلته مناف لما يقرره الروتين » .

فماذا يكون إذن رد فعل الخريجين الجدد الذين يلتحقون بالوظائف بعد انتهائهم من المراحل الدراسية التى اجتازوها ؟ لا شك أن رد فعلهم يكون معبرًا عن خيبة أملهم فى الانطلاق والتجديد والتغيير. ويتأتى عن هذا اتخاذ موقف من المواقف الآتية :

أولا – الهروب من المسئولية : سواء بالتزويغ من مقر العمل إلى حجرة أخرى أو إلى مكان آخر بأية حجة كمقابلة المدير العام أو التوجه إلى الوزارة أو نحو ذلك من تعلات يختلقها الشاب الملتحق حديثًا بوظيفة جديدة . ولقد يتم التهرب بطريقة واعية وقد يتم بطريقة لا شعورية . من ذلك مثلا الانهماك فى قراءات لا يقصد من ورائها سوى قتل الوقت والهروب من تحمل المسئولية . وتصفح الجرائد اليومية واشتغال الشابات بالتريكو وغيره أمر مشهور فى كثير من الأوساط الوظيفية . ولقد يكون الهروب من العمل بالاستغراق فى النوم العميق أو فى إثارة أحاديث أو مناقشات ، أو حتى الانخراط فى شجارات وإثارة خلافات شخصية يكون أساسها ومبعثها فى الواقع هو الهروب من العمل ومن المسئوليات التى تكتنفه ، أو بتعبير آخر: الهروب من سيف الروتين المصلت على رقاب جميع العاملين ، والذى يعمل على شل حركة التفكير والابتكار والمبادرة لدى أولئك الشباب القادر بما لديه من طموح وإمكانيات ، والعاجز فى نفس الوقت عن التحرك وإبداء رأى جديد أو اتخاذ أية خطوة جديدة .

ثانيًا – إحالة الأوراق لعدم الاختصاص : وعبارة « عدم الاختصاص » هذه مشهورة فى الأوساط الوظيفية . وهناك عبارة أخرى مشهورة ، وهى « تحويل

الأوراق إلى الإدارة أو إلى الوزارة لإبداء الرأى » . وليس من شك فى أن جهل الشباب من الخريجين باللوائح والقوانين المنظمة للعمل ، وخوفهم من سطوتها وسلطانها فى نفس الوقت ، لمما يجعلهم يحفظون هاتين العبارتين وأمثالهما ويختبئون وراءها؛ لكى يغلقوا جهلهم وخوفهم بما يشبه أن يكون علما وشجاعة ومجابهة للمسئولية . وواقع الأمر أن ما يعتمل فى قلوب الشباب تجاه المسئولية هو الخوف والجهل معا . ومما يساعد على هذا الجهل والخوف معا هو أن الكثير من قدامى الموظفين الذين ينتهون من الخدمة يخبئون الأضابير التى تضم اللوائح والقوانين أو قد يمزقونها أو يحملونها معهم إلى بيوتهم حيث لاترى سوى الظلام والاختباء . ولكن هل يعنى إخفاؤها وبعدها عن مقر العمل إلغاءها وإبطال مفعولها وملاشاة سلطانها وسطوتها ؟ العكس هو الصحيح . فإخفاؤها أو ضياعها يجعلها كالعفريت المختبئ الذى يخيف الناس منه؛ لأنه غامض ومختبئ وبعيد عن الأنظار ، ولو أن تلك اللوائح والقوانين كانت بين أيدى الشباب من الموظفين الجدد؛ لما سيطر عليهم الخوف منها ، بل ربما كانوا قد تفهموها وتحكموا فيها وسيطروا عليها ووظفوها بطريقة أفضل من الطريقة التى اعتاد السابقون عليه توظيفها به بشكل ملتو ومغرض أردأ الغرض وأبشعه .

ثالثا - الارتجال فى إبداء الرأى أو اتخاذ القرار والوقوع تحت طائلة المساءلة : ولقد يجرب بعض الشباب استخدام ذكائهم فيما يعرض عليهم من أمور ، فيستلون أقلامهم كما يستل الجندى المغوار سيفه ، ويسجلون القرارات ويتخذون الإجراءات العشوائية التى لا تحمد مغبتها ، بل توقفهم أمام المحققين ثم توقع عليهم الجزاءات . وطبيعى أن من عليه الجزاء الرادع؛ لأنه أعمل ذكاءه فى الموقف لن يعود إلى إعمال ذكائه مرة أخرى ، بل إنه سيقول لجميع من حوله « حاولنا تحريك الأمور فوقع علينا الجزاء بالخصم من المرتب ، إذن من لا يعمل يكون فى مأمن ، ومن يعمل يكون فى خطر . فلنلتزم إذن جانب السلبية؛ حتى لا يوقع علينا جزاء مرة أخرى » .

رابعًا – الخروج من إطار الروتين بالاستقالة والانخراط فى الأعمال الحرة : لقد يضيق الشاب ذرعا بقيود الروتين ، فلا يجد مناصا من تطليق الوظيفة نهائيا والبحث عن مجالات عمل جديدة لا تخضع للروتين ، بل تتحرر من جميع القيود ، فيجد أمامه عندئذ منطلقًا للعمل والابتكار والمبادأة والمغامرة .

خامسًا – الإمساك بالعصا السحرية والاستحواذ عليها : أخيرًا قد يجد الشاب الجديد فى المجال الوظيفى ضالته المنشودة ويتوافق مع الأوضاع الوظيفية ، وذلك بالدأب على البحث عن اللوائح والقوانين فيستظهرها ويعرف خباياها وأسرارها ، ثم يبدأ فى فرض سلطان القانون واللائحة بحيث يتسنى له أن يلوى جميع الرقاب حتى رقاب رؤسائه ، فيضحى المستشار الذى لا يفل له رأى ولا يعصى له أمر .

التدهور الثقافى

يتوقع الشاب أنه سيجد فى حياته الوظيفية استثمارًا لما سبق له أن درسه فى المؤسسات التعليمية من جهة ، واستمرارًا لكسبه مزيدًا من الثقافة فى مجال تخصصه وفى المجالات العامة من جهة أخرى. بيد أنه يصدم فلا يجد أنه قد استثمر ما سبق له أن حصله بالمعهد أو الكلية ، ولا يجد أنه يحصل على ثقافة جديدة فى عمله . ويرجع افتقار مجالات العمل إلى الخبرات الجديدة وعجزها عن استثمار الخبرات التى سبق للشاب إحرازها إلى الأسباب الآتية :

أولا – كثيرًا ما يعين الشاب فى مجال غريب تماما عن المجال الذى أعد له بالمعاهد التعليمية . وكما سبق أن قلنا فإن خريج كلية الزراعة قد يتم تعيينه بوزارة بعيدة كل البعد عن الزراعة وفنونها . ومن ثم فإنه يضرب عرض الحائط بكل ما سبق له أن درسه ، بل إنه يندم على كل لحظة قضاها بكلية الزراعة التى حشدت رأسه بمعلومات تموت تدريجيا فى ذاكرته أيضًا؛ لأنها لا تجد لها منفذًا تطبق فيه بالحياة العملية .

ثانيا – وحتى عندما يعين الخريج في وزارة أو هيئة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالتخصص الذى أعد له ، فإنه يجد أن الأعمال التي تسند إليه لا تحتاج إلا شظية ضئيلة مما سبق أن حصله . أما الكثرة الكثيرة مما تعب في تحصيله ، فإنها تبقى كجثة هامدة فى ركن قصى من ذاكرته إلي أن تذبل وتنطفئ تمامًا .

ثالثًا – هناك انفصام كامل أو شبه كامل بين المؤسسات التعليمية سواء كانت معاهد متوسطة أو فوق متوسطة أو كليات وبين مؤسسات العمل . ولا نغالى إذا قلنا : إن الجهات التعليمية والبحثية تتهم جهات العمل بالجهل والتخلف عن مواكبة البحوث العلمية والمكتشفات الجديدة ، بينما تتهم مؤسسات العمل بدورها المؤسسات التعليمية ، بأنها لا تلتزم الواقعية ، وأن الجانب النظرى غير التطبيقي هو الذى يحتل بؤرة اهتمامها فهى تحلق فى سماء بعيدة عن أرض الواقع .

رابعًا – إن مؤسسات التعليم لا تربي الناشئة والشباب على حب البحث ، بل تجعلهم مجرد متلقين وحفظة لما يدرس لهم . ومن هنا فإن حب البحث والاطلاع لا يتوافر لدى معظم الشباب . ومن هنا فإن التدريبات التى تعقدها المصالح والهيئات والشركات لا تكاد تجد لها صدى فى عقول وقلوب العاملين بها من الشباب . وإذا طلب من أحدهم الاضطلاع ببحث ما ، فإنه يجد نفسه فى حيرة من أمره ، وذلك لأنه لم يعتد النهوض بمثل تلك المهام ، بل درب على التلقى وحفظ ما يتلقاه من معلومات .

خامسًا – لا تكاد تتوافر بجهات العمل مكتبات للاطلاع والاستعارة . وإذا وجدت مثل تلك المكتبات ، فقلما تتوافر بها الكتب الحديثة باللغات الحية إلي جانب الكتب الحديثة في اللغة العربية ، وحتى إذا وجدت مثل تلك الكتب والمراجع، فإنها لا تكاد تجد إقبالا عليها من جانب العاملين وفي مقدمتهم مديروهم ورؤساؤهم .

وعلى الرغم من أهمية جميع الأسباب الخمسة السابقة ، فإن هناك سببا رئيسيا فى التدهور الثقافى لدى الشباب هو تلك الأيديولوجية التى اعتنقها معظم الشباب من الجنسين ، وهى أيديولوجية المادية التي تقول بأنه لا توجد قيمة إلا تلك القيمة المادية فأى منشط من المناشط التى يضطلع بها الإنسان لا تكون له قيمة مادية يدرها أو تترتب عليها ، فإنه يكون فارغ القيمة . وبالتالى فإن الشباب لم يعودوا يؤمنون بالقيم الثقافية المطلقة التى تطلب لذاتها، ولم يعودوا يطلبون العلم لذات العلم بغير انتظار لفائدة تعود عليهم منه . والواقع أن الشباب قديمًا كانوا يضحون بالرخيص والغالى من أجل الحصول على المعرفة . ولكن في ضوء الأيديولوجية الشائعة اليوم بين الشباب ، فإن العلم الذى لا يتأتى عنه ربح لا يساوى إذن شيئا . وكلما كان العلم أكثر إدرارًا للربح كان أغلى قيمة وأرفع شأنًا . لقد كان العلماء يفتخرون فيما مضي بالمعاناة ولم يكونوا يرتدون من الملابس إلا ما يجعلهم في مظهر معقول . أما اليوم فإن الشباب يتهافتون على أحدث الأزياء . ومن لا يظهر بمظهر فخم ، فإنه لا يساوى شيئًا ، بل لقد يثير الشفقة عليه مهما كان متمتعا بالعلم والمعرفة يملآن رأسه .

وإذا أضفنا إلى هذه الأيديولوجية التي يعتنقها الشباب اليوم عاملا هاما آخر هو ارتفاع أسعار كل شىء ، فإننا نجد أن الشاب الذى لا يكافح فى سبيل لقمة العيش ، يتعرض للجوع والعرى والتشرد . وأكثر من هذا فإن الشاب الناشئ فى أسرة متوسطة ووالده موظف عادى قد يتعرض للتشرد أو ما يشبه التشرد إذا لم يكافح بعد انتهاء ساعات العمل ليغطى نفقات معيشته بمزاولة أى عمل آخر إضافى . فكيف والحال هذه يقوم الشاب بشراء كتاب قيم يعكف عليه بالقراءة وقضاء الساعات تلو الساعات فى قراءته والاستمتاع بما فيه من معرفة شائقة يكتنزها لذات اكتنازها ، ويستوعبها لذات استيعابها وليس لأن تلك المعرفة التى يستقيها منه سوف تزيد من مستوى دخله .

ومما يدفع بالشباب إلى طريق المادة وليس إلى طريق العلم لذات العلم الرأى العام السائد من حوله فثمة ضغط اجتماعى معنوى يكتنف الشباب من كل جانب . إن هناك سيفًا مصلتًا على الرقاب هو ما يقوله الناس عنا وما يقدروننا فى ضوئه . لقد كان الناس قديمًا يقدرون الشخص الحائز على علم غزير ، وكان العلم الغزير كفيلا بوضعه فى المكانة اللائقة بالمجتمع . أما اليوم فإن الرأى العام قد تحول من كفة العلم لذات العلم إلى كفة العلم للكسب والثراء، فإذا كان العلم الذى فى رأسك لا يساعدك على إحراز الثروة ، فإنه فى نظر المجتمع لا يساوى شروى نقير . فماذا يفعل الشباب إذن بإزاء هذا الضغط الاجتماعى ؟ لابد من الإذعان ولابد من احتقار العلم الذى لا يساعد على الحصول على الربح الوفير، ولابد فى الجهة المقابلة احترام وتقدير العلم الذى يساعد على إحراز الثراء .

ويتبدى التدهور الثقافى الذى يعانى منه الشباب فى الجوانب الآتية :

أولا – التدهور المعرفى : فالغالبية العظمى من الشباب لم يستمروا بعد تخرجهم واندراجهم بالحياة العملية فى الجرى وراء المستحدثات العلمية التى استحدثت منذ تخرجهم حتى اللحظة الراهنة . ونأسف إذ نقرر أن أساتذة الجامعات أنفسهم لا يجدون الوقت لمتابعة حركة العلم حتى فى مجال التخصص . وكيف يتسنى لأستاذ الجامعة ذلك وهو الذى يدرس بالقاهرة والإسكندرية وطنطا وبنها خلال الأسبوع الواحد ؟ وكيف يتسنى للطبيب الذى حظى بالشهرة أن يتابع ما يكتشف فى مجال تخصصه بالطب بينما هو مرهق فى عيادته حتى منتصف الليل ؟ إن الطاقة على الدرس محدودة جدا إذا ا أخذنا فى اعتبارنا أن الإرهاق الجسمى والذهنى لا يسمح بالاستيعاب المستأتنى والجاد والمتعمق وإذا ما أضفنا إلى الجرى وراء الكسب انتشار التلفزيون والفيديو على نطاق واسع وما يحملانه من ترفيه ومتعة سهلة ميسورة ، لوقفنا إذن على مدى ما يستهلك فيه وقت الشباب ، وما يتبع ذلك من تدهور ثقافى معرفى .

ثانيا – التدهور اللغوى : ويتبدى هذا النوع من التدهور اللغوى في الانفصام الذى حدث بين التراث الأدبى لغة الجرائد والمجلات والكتب التى تم تأليفها حديثًا وبخاصة القصص والمسرحيات والشعر. فتجد اليوم عزوفا شديدًا عن لغة التراث بل إن الشباب ينظرون باستخفاف إلى متانة العبارة أو الثراء فى المفردات أو العبارات وفن الأداء اللغوى. والأخطر من هذا كله عجز الشباب عن الإبانة عن أفكارهم بأبسط لغة بحيث يأتى ما يقومون بكتابته سليما وواضحا مبينًا عما يرغبون فى التعبير عنه. إننا لا نتوقع أن يكون جميع الشباب أدباء أو فلاسفة ، ولكننا نتوقع أن يتمكن الشباب من استخدام أداة التعبير بقدرة وتمكن فى حياتهم اليومية. وكثيرًا ما ينعى المثقفون على الشباب عجزهم عن التعبير عما يريدونه سواء بالقلم أو باللسان.

ثالثا – التدهور الأدائى : ونقصد هنا بالأداء: استخدام الآلات والأدوات. فهناك فى كل مهنة آلات وأدوات تبتكر ولكن شبابنا لا يكادون يستوعبون استخدام تلك الآلات والأدوات التى تقع فى مجالاتهم التى تخصصوا فيها ، وذلك إما عزوفا عن تعلم فنون جديدة لم يسبق لهم تعلمها ، وإما لصعوبة حصولهم على تلك الآلات أو الأدوات لارتفاع أسعارها. وأبسط الأمثلة على هذا عزوف معظم المشتغلين بالكتابة عن تعلم الآلة الكاتبة ، وندرة منهم يمتلكون آلة كاتبة ينجزون عليها أعمالهم ، ومعظمهم يكل مهمة كتابة مقالاتهم وأبحاثهم لمكاتب الآلة الكاتبة.

رابعًا – التدهور الفنى : فالذوق العام لدي الشباب قد تدهور. فالإقبال كل الإقبال على الرخيص فنيا من الفنون الجميلة. فالأغنية الهابطة والمسرحية المبتذلة والصور والتماثيل المستهجنة هي التي تلقي رواجا بين الشباب. ناهيك عن القدرة علي الإبداع الفني الجمالي التي تقلصت في أيدي حفنة صغيرة جدا من الشباب.

خامسا – التدهور التكنولوجي : ولفظ «تدهور» هنا أقل من مستوى الوصف الواجب. فالأصح أن نقول إننا عالة تماما علي التكنولوجيا التي ترد إلينا من الخارج، ونكاد نقطع بأن شبابنا ليست لهم إسهامات من أي مستوي في الابتكارات التكنولوجية.

اصطدام المثل العليا بالواقع الملتوى

يبني الطالب آمالا عريضة يعلقها علي المستقبل الذي ينتظره ويتوقعه. ولكن الآمال التي تعتمل في الذهن شيء والواقع الفعلي شيء آخر. ذلك أن المثل العليا التى ترتسم فى أذهان الشباب تتعارض تعارضًا شديدًا مع ما يحمله الواقع المرير من إمكانيات وما يعتور طريق التفوق والنجاح من صعاب. ولعلنا نعزو ذلك التعارض بين المثل العليا وبين الواقع الملتوي إلي الأسباب الآتية:

أولا – يعتقد معظم الشباب من الجنسين أنهم عندما يحتلون مكان الكبار ويتسلمون زمام المسئولية، فإنهم سوف يصلحون الواقع ويقضون علي كل المساوئ التي تكتنفه ذلك أنهم يحسون بالقوة تسري في أوصالهم، بينما يستشعرون الضعف وقد بدأ في أوصال الكبار الممسكين بزمام الأمور. ولكن ما أن ينخرط الشباب في الوظائف ويتحملون المسئوليات حتي يكتشفوا أن العملية ليست بالبساطة التي تخيلوها، وأن الصعاب والعقبات متشعبة أشد التشعب، ومعقد أشد التعقيد، وأنهم لا يستطيعون استئصال الشر من جذوره كما سبق أن توهموا قبل أن يدخلوا علي غمار الحياة العملية.

ثانيا – ينظر كثير من الموظفين القدامي إلى الشباب المنخرطين حديثًا في الحياة العملية بعدم الرضا. فهم يعتبرونهم منافسين لهم في الاستيلاء علي السلطة التي في أيديهم. ولذا فإنهم يحولون بينهم وبين تفهم طبيعة العمل الذي يلتحقون به، كما أنهم يشيحون بوجوههم عنهم، ويحسون أنهم بمثابة جسم

غريب يجب القضاء عليه، أو علي الأقل يجب إعاقة تقدمه. وهكذا يظل الشباب الملتحقون حديثًا بالأعمال علي غير علم ببواطن الأمور، ويجدون أن المثل العليا التي ترسموها قبل التحاقهم بالحياة العملية كانت أخيلة فارغة لا يمكن ترجمتها إلي واقع حي.

ثالثا – والواقع أن الكثير من الأحلام والتصورات المستقبلية التى يترسمها الشباب قبل التحاقهم بالحياة العملية تكون مثلا عليا وتصورات جوفاء لا تستند إلي معرفة بالحياة العملية ولا بطبيعة العمل الذي سوف يتسلمونه. ومن ثم فإن تلك المثل العليا والتطورات الخيالية سرعان ما تتحطم بمجرد الانخراط في ركب الواقع والتأكد من زيفها وبهتانها.

رابعا – هناك أيد خفية كثيرة تلعب وراء الظاهر من الأمور بجهات العمل. فكثير من الصفقات والخطط تتم خارج نطاق العمل وتحاط بالكتمان والتستر. وكثير من تلك الصفقات والخطط يتلبس بأثواب قانونية أو حتي بأثواب المصلحة العامة. وعندما يحاول الشباب الكشف عن تلك الأساليب الملتوية وفضحها وإعلام أسباب الفساد على الملأ، جريا وراء ما ترسموه في أذهانهم وقلوبهم من ضرورة القضاء على الفساد، فإنهم يجدون العقبات الكأداء تقف لهم بالمرصاد، كما يجدون أن من بين المتسترين ومن بين الرؤوس المفكرة في تلك الألاعيب من كانوا يرون فيهم الطهر والسمو والبعد عن كل الشبهات. فعندئذ تنهار ثقتهم في جميع الناس، بل وتتهشم مثلهم العليا، وقد ينحرفون بدورهم وينساقون في التيار الردىء.

خامسا – كثير من الشباب يعتقدون أن الحياة العملية سهلة ميسورة وأن الطريق الذي ترسموه في أذهانهم سهل العبور وليس بحاجة للسير فيه إلا لبذل جهد بسيط بغير ما فشل أو عقبات أو تعطيلات. ولكن الواقع يختلف تماما عما

وقر في أذهانهم وقلوبهم من يسر فى إخراج ما في جعبتهم من خطط إلي ذلك الواقع. فعندما يصطدمون بأول عقبة فإنهم ينكصون علي أعقابهم مخذولين، وقد تحطمت مثلهم العليا وتبخرت إلي الأبد، فتفتر هممهم وتخور قواهم وتتبدد أحلامهم وتذهب هباء منثورا.

ولعلنا نتساءل بعد هذا عن النتائج النفسية والاجتماعية التي تترتب علي ذلك الاصطدام بين المثل العليا التي ترسمها الشباب وهم بعد في مراحل التعليم وبين الواقع العملي بعد انخراطهم فى الحياة العملية . إننا نستطيع تحديد النتائج النفسية أولا فيما يلي:

أولا - العجز عن بناء مثل عليا مستقبلية جديدة طوال الحياة. وهذا العجز يعمل في الواقع علي عدم التبصر أو عدم التشوف إلي المستقبل وانعدام استشراقه.

ومن المعروف أن مثل هذا العجز يضرب الشخصية بالعجز عن التقدم ولو خطوة واحدة إلي الأمام . ذلك أن الركيزة الرئيسية التي يعتمد عليها التقدم في الحياة هي التطلع إلى المستقبل وعمل توقعات وارتسام مثل عليا بالذهن. أما أن يقيد المرء نفسه بسلاسل الواقع المحدود فحسب، فهذا معناه: أنه قد استحال إلي كائن ميت الهمة وعاجز عن التحرك برؤية مستقبلية إلي الأمام.

ثانيا - الاستسلام لمتطلبات الروتين الجامدة، وفقدان كل إرادة للتغيير والتعديل والتطوير. ذلك أن الإنسان الذي يفقد الرؤية المستقبلية لا يستطيع إلا أن يكون بمثابة ترس في آلة تخضع لمشيئة النظام القائم بغير أن يتسني له الطفو علي سطح الواقع لترسم أهداف مستقبلية جديدة. ومن ثم فإن الشاب يطفىء ما لديه من مثل عليا كانت في أحد الأيام محتدمة في أعماق نفسه.

ثالثا - النظر إلي الحياة الواقعية بتبرم وامتعاض واشمئزاز. ذلك أن الحياة

التي تحطمت علي سنديانها المثل العليا، إنما تصير حياة جافة خالية من أى أمل أو من أي رجاء في تحقيق الأحلام القديمة في الواقع المحسوس، ومن ثم فإن الشاب يبتئس بواقعه وبمستقبله جميعًا، وهو المستقبل الذي يساق نحوه سوقًا بلا إرادة وبلا تمييز لمعالم طريق الحياة.

رابعا - التواء أخلاق الشاب (والشابة) وصيرورة الهدف الوحيد في حياته الوظيفية هي التكيف للواقع القائم بالفعل، ومن ثم فإنه يتخذ طريق النفاق والمداهنة حتي يرضي عنه رؤساؤه ويسبغوا عليه من عطفهم وتفضلهم عليه. وواضح أن مثل هذا الشاب المنافق والمداهن يكون قد رفع الراية البيضاء، وهي راية الاستسلام لما هو موجود مبديا الرضا عنه وعدم الاعتراض عليه، وغير مطالب علي الإطلاق بالتغيير أو التعديل، وغير مبد في نفس الوقت عدم الرضا أو السخط علي مساوئ ذلك الحاضر القائم.

خامسا - غلق الباب أمام المرء بصدد اكتساب خبرات جديدة. ذلك أن الخبرة الجديدة تستهدف حفز المرء علي استحداث تطورات جديدة يتأتي عنها تصحيح أخطاء موجودة، أو يتأتي عنها تحسين في الوضع أو تقدم ملحوظ إلي الأمام. ولاشك أن الشباب إذا ما وجد أن مثله العليا التي اعتملت عميقا في قلبه قد تحطمت، لابد أن ينكص وينزوى بعيدا عن المصادر الخبرية الجديدة والفعالة.

أما عن النتائج الاجتماعية التي تترتب علي اصطدام المثل العليا المعتملة في قلوب الشباب مع الواقع الملتوى، فإنها يمكن أن تتلخص فيما يلي:

أولا - تفكك الروابط بين الشباب وعدم تعاونهم بعضهم مع بعض. ذلك أن التعاون لا يتحقق إلا إذا التقت المثل العليا بعضها مع بعض وتضافرت سويا من أجل تحقيق أهداف مشتركة. ولكن مادامت تلك المثل العليا قد تحطمت علي سنديان الواقع الملتوي، فلا يمكن أن يتم التعاون بين الشباب بعضهم وبعض.

ثانيا – وبالتالي – وهذه هي النتيجة الاجتماعية الثانية – فإن روح الأنانية تأخذ في السيطرة علي الروح العامة للشباب بالمؤسسة الواحدة. فكل منهم يسعي جاهدا للتكيف أو التوافق مع الوضع القائم، وهذا يتطلب اتباع طريق النفاق والمداهنة. ومن ثم فإن كل واحد منهم يتسابق من أجل إحراز رضا الرؤساء بغير تبصر بواقع معوق، وبغير تشوف لمستقبل مرجو، أعني مستقبلا موضوعيا عاما وليس مستقبلا شخصيا ضيقا ناجما عن رضا الرئيس علي المرء.

ثالثا – هبوط مستوي الإنتاج والاستثمار. ذلك أن الإنتاج والاستثمار لايتأتيان إلا عن طريق التعاون والترابط مع ترسم مثل عليا مدفوعة بروح الحماسة والإصرار الجماعى. والواقع أن الدافعية التى يتأتى عنها الإنتاج الوفير والرفيع، وكذا الاستثمار بأمانة وتخطيط لا يمكن أن تعمل عملها إلا إذا ظلت المثل العليا قوية فعالة ولا تجد ما يهشمها علي أرض الواقع المرير.

رابعا – قتل روح الابتكار والمشاركة في إثراء الثقافة والنهوض بها وتعميمها. ذلك أن الأفكار الابتكارية لا تنبت فرديا إلا في الذهن، ولكنها لا تترعرع وتنمو وتؤتي ثمارها إلا إذا وجدت معينا لها من الخارج متمثلا في شخصيات مشجعة ومتآزرة تعمل علي الدفع إلي الأمام، وشحذ الهمة للاستمرار في عملية الابتكار. بيد أن الحادث بالفعل هو أن الشباب يجدون أنهم مفصومون عن الخلفية النفسية الضرورية للابتكار من جهة، وأنهم معزولون عن الواقع الآنى الممتد في رحاب المستقبل من جهة أخري. وما يجدون أنفسهم فيه هو سجن «الآن والهنا» ، أعني: أنهم يجدون أنفسهم مسجونين في إطار العمليات الروتينية المقولبة التي لا تقبل التليين أو التعديل أو التطور.

خامسا – أخيرا فإن الشباب يجدون أنفسهم مرتمين في أحلام اليقظة ذات الدوائر المفرغة التي لا مخرج منها. لعلهم يجدون فيها متنفسًا يحميهم مؤقتا من

اليأس. ولكن أني لأحلام اليقظة من المثل العليا. إن المثل العليا تنفتح علي المستقبل. أما أحلام اليقظة فإنها تسجن المرء في إطارها الضيق وتجعله شخصية بائسة كلما أفاق من تلك الأحلام التي تشبه أن تكون ضمن المخدرات التي تغيب المرء عن واقعه، ولا تسمح له بإحالة آماله إلي واقع موضوعي.

★ ★ ★

الفصل السادس

نحو شباب متكامل

التغيير التربوى المنشود

لابد من إحداث تغيير تربوى شامل، ولابد من قيام ثورة تربوية حقيقية حتى يتسنى التخلص من التمزق الذى يتعرض له الشباب اليوم، بل وتتعرض له الأجيال المتعاقبة. ذلك أن نقطة البداية فى أى اصلاح يجب أن تكون نقطة تربوية. وعلى الرغم من أن التربية لا تؤتى ثمارها بين ليلة وضحاها، فمما لاشك فيه أن التربية هى أكثر العوامل تأثيرًا فى النفوس وفى السلوك، فالتربية تعمل على تحديد مسار الشخصية وهى المسئولة عن العادات والاتجاهات والقيم التى تتمسك بها.

ولعلنا نبدأ بتساؤل هام وأساسى هو: ما الذى نستهدفه – أو يجب أن نستهدفه – فى تربيتنا ؟ الواقع أن تحديد أهداف التربية ليس من المسائل السهلة. ذلك أن الناس ينقسمون إلى فئات بإزاء الأهداف حسب الفلسفات التى يأخذون أنفسهم بها. هناك أولا المثاليون، وهؤلاء أشخاص ارتسمت مثل عليا فى قلوبهم سابقة على الواقع أو منفصلة عنه . إنهم ينشدون من التربية أن تحقق شخصيات لها مواصفات معينة محددة السمات والمشاعر والاتجاهات. وهم يحسون بالفشل إذا لم تنجح التربية فى تحقيق ما رسمته وحددته؛ فالمثالى قد يستهدف من

التربية خلق المواطن القديس. وللقديس فى ذهن فيلسوف التربية المثالى مواصفات معينة محددة بدقة. وطبيعى أن يحشد الفيلسوف المثالى كل الوسائل والإمكانيات والمؤثرات لتحقيق ما ارتسم فى ذهنه من سمات لشخصية القديس. نعم إن هذا الفيلسوف يعتبر أن الوصول إلى مثله الأعلى فى الواقع وصولا كاملا إنما هو أمر مستحيل، وهو يقنع بالاقتراب من مثله الأعلى إلى حد ما بقدر الإمكان. ولكنه مع هذا يحس بتأنيب الضمير؛ لأنه وسائله كانت قاصرة عن تحقيق مثله الأعلى، ولكنه قصر فى كيت وكيت فى التطبيق. ولو أنه استعان بوسائل أخرى؛ إذن لكان قد حقق المثل الأعلى المنشود، أو على الأقل كان قد اقترب منه إلى حد بعيد.

وهناك من جهة ثانية فئة أخرى من فلاسفة التربية هم فئة الواقعيين أو النفعيين . إن الواحد من هؤلاء لا يؤمن إلا بالواقع والمفيد . فالتربية يجب أن تقتبس أهدافها من الواقع البيئى وليس من ذهن الفيلسوف أو من التراث النازل إلينا من الآباء والأجداد . وهذه الفئة من الفلاسفة ماديون فى نفس الوقت . إن قياسهم لنجوع التربية لا يتم إلا فى ضوء مدى قدرتها على تقديم أكبر قدر من الفائدة فى أقصر وقت ممكن وبأقل مجهود ممكن ، وبحيث تستمر الفائدة المجتناة إلى أطول مدة ممكنة ، وبحيث تعم أكبر عدد من الأفراد . والفيلسوف الواقعى نسبى فى نفس الوقت . وهو من هذه الزاوية مناقض فى موقفه لموقف الفيلسوف المثالى . ذلك أنه يعتقد أن كل بيئة وكل زمان لهما خصائص تميزهما عن جميع البيئات الأخرى وعن جميع الأزمنة الأخرى . فمصر اليوم تختلف عن مصر فى القرن التاسع عشر مثلا . ومصر اليوم تختلف عن اليابان اليوم . ولذا فإن الأهداف التى يجب أن تتواخاها مصر فى العصر الحالى يجب أن ترسم فى ضوء ما انتهت إليه اليوم . ولا يمنع هذا من أخذ العوامل التاريخية فى الاعتبار .

ولكن المهم أكثر من أى شىء آخر هو أن تستمد الأهداف التربوية من الواقع الحى الذى تعيشه البلاد فى الوقت الحاضر.

وبينما تركز النظرة المثالية على المفاهيم العقلية والمثل العليا المجردة والمطلقة كأهداف للتربية ، وبينما تركز النظرة الواقعية على الواقع الحى الحالى كمصدر لأهداف التربية ، فهناك فئة ثالثة من فلاسفة التربية ركزوا اهتمامهم على الفرد والمجتمع . هذه الفئة هى فئة البرجماتيين . والبرجماتى يهمه أن تكون الأهداف التربوية المنشودة وظيفية فى مواقف اجتماعية حية . إنه لا يرفض المعايير الأخلاقية أو المعايير الروحية ولا يحط من قدر المفاهيم المادية . إن المهم فى نظره توظيف كل شىء فى الحياة . فمادام الدين يعمل على جعل الحياة أكثر ائتلافا وأكثر بهجة فيجب الأخذ بتعاليمه ، ومادام المال يستخدم ويوظف فى الحياة لاجتلاب السعادة ويدرأ الشقاء ، فيجب إذن الإفادة منه . فالبرجماتى يهمه فى التربية تحقيق التوافق الاجتماعى للفرد والارتقاء بالمجتمع والتقدم به حتى يحقق أكبر قدر من السعادة لأفراده . ومعنى هذا: أن البرجماتى لا ينضم إلى فريق المثاليين ، كما أنه لا ينضم إلى فريق الماديين . إنه ينادى باتجاه جديد هو: توظيف كل شىء فى مواقف حية متصلة بالكيان العضوى للمجتمع . ذلك أن البرجماتى يعتقد أن المجتمع كائن عضوى ، وأن الأفراد ينتمون عضويا إلى ذلك الكائن العضوى . والواجب على التربية أن تحقق الانسجام بين الأفراد ومجتمعهم بحيث يظل الفرد يحس بوجوده الفردى وبحيث يظل المجتمع يحس بوجوده العضوى الكلى . فالمجتمع والفرد يعملان معا كما يعمل وجها العملة الواحدة . فكما أنه لا تعارض بين وجهى العملة ، كذلك يجب ألا يكون هناك تعارض بين المجتمع والفرد.

ونحن نضم صوتنا إلى هذه النظرة أو إلى هذه الفلسفة البرجماتية لدى تحديد أهدافنا التربوية . فالواجب علينا فى هذه المرحلة من حياة أمتنا أن نأخذ

على عاتقنا النظر إلى أهداف التربية بأكثر جدية . فيجب ألا ننظر إلى أهداف التربية بنظرة تقليدية ضيقة الأفق . والواجب أن نوسع نظرتنا . يجب أن نقيس كل شيء فى ضوء مبدأ التوظيف . فالعلم للمجتمع ، وليس العلم للعلم . وعلى نفس النحو يجب ألا نجعل التربية مستهدفة أشياء فى حد ذاتها ، بل يجب أن تستهدف ما يتطلبه المجتمع - والمجتمع المصرى بالذات وفى هذا العصر الذى نعيش فيه بالتحديد .

ومعنى هذا فى الواقع أن الواجب أن تتباين أهداف التربية من جيل لآخر وأن نعيد النظر فى أهداف تربيتنا من وقت لآخر حتى نكون مستلهمين واقعنا وآمالنا بل ومشكلاتنا فتأتى الأهداف التى ننشدها ملائمة لحاضرنا ومتصلة بماضينا ومتعلقة بتفتح إلى مستقبلنا .

وأول هدف يجب أن نضعه نصب أعيننا للتربية هو الارتقاء بالمستوى الصحى للناشئة . ونقصد تلافى ما سبق أن عرضنا له فى هذا الكتاب من نقد لتدليل الحضارة للطفولة . يجب أن نتخذ منحى جديدًا فى تربيتنا : منحى يعود الطفولة على مجابهة الواقع البيئى والمناخى بقدرة وصلابة . يجب أن تهتم التربية بتدريب العضلات وتشغيل الجسم برمته حتى تتحقق الرشاقة التى يتسنى على أساسها بناء شخصية صالحة لمجابهة المطالب البيئية .

والواقع أن تربيتنا الحالية الناحية إلى التنعيم والتخنيث لا تسمح بتحمل المشاق . ويجب أن نعد أبناءنا للذهاب إلى الصحراء ، ومغالبتها وفتح بطنها وإخراج ما بها من كنوز طبيعية لم نستغلها بعد . والواجب أن نضع نصب أعيننا أن عصر الاعتماد على نهر النيل كلية كاد أن يولى الأدبار . يجب أن نربى جيل الصحراء إلى جانب تربيتنا لجيل الخضرة وجيل المدينة . طبيعى أننا سنظل محافظين على مدننا وعلى قرانا . ولكن الواجب أن ينحو مركز الثقل إلى

الصحراء . يجب أن تتجه الأجيال القادمة إلى الصحراء . ولكن هذا لا يتأتى لهم إلا إذا نشأوا على التحمل . إن الطفل الذى ظل قابعا بسريره الدفىء لايصلح للنوم فى الخيام ، ولا يصلح لتعريضه لأشعة الشمس القاسية . يجب أن يكون الإعداد طويلا وشاقا، يجب أن تحدث ثورة فى التربية بدءًا من نعومة الأظفار . وباختصار: يجب أن يكون المبدأ التربوى هو الأخشوشان . ويجب ألا يقتصر الأخشوشان على فئة الذكور ، بل يجب أن ينسحب على جنس الإناث أيضًا .

يجب أيضًا لتحقيق هذا الهدف إعادة النظر فى الطعام من حيث نوعه ومن حيث العادات المتعلقة بإعداده وتناوله . يجب أن يعاد النظر فى الطعام؛ لأن ابن الصحراء يجب أن يتناول طعامًا مناسبًا للصحراء .

وإذا كان للطعام أهمية فى الإعداد الصحى ، فإن للتربية الرياضية العنيفة والمحفوفة ببعض المخاطر أهمية لا تقل عن هذه الأهمية . يجب أن تهتم مدارسنا منذ البداية بالتدريبات الرياضية . وأهم تلك التدريبات ما كان ممارسًا فى الخلاء . فى المعسكرات الصحراوية غير الناعمة . ولا شك أن الكفاية الجسمية هى الأساس فى هذا قبل كل شىء .

يأتى بعد هذا ، الهدف الثانى من التربية – وهو أيضًا هدف مستقى من واقعنا الحالى– أعنى: إعداد المقاتل والمقاتلة، وهى مسألة لا تأتى بين ليلة وضحاها . لا نستطيع أن نتخيل شخصًا عاش حياة منعمة وقد دأب على حياة خالية من الأخطار والمغامرات يستطيع أن يصير جنديا مغوارًا بالغ الشجاعة. لقد يزعم البعض أن الحرب الحديثة هي حرب المفكرين وليست حرب مغامرين مغوارين. ولكن الواقع – كما يتضح من الحروب التي يشتعل أوراها في بعض مناطق العالم – أن الحرب الحديثة لا تختلف عن الحروب التي نشبت في جميع العصور السابقة من حيث حاجتها إلى الشجاعة والإقدام والبسالة. ذلك أن

المقاتلة بحاجة إلي مواقف كثيرة فردية، بل وتحتاج أيضا إلي استخدام السلاح الأبيض وهو أبسط الأسلحة جميعا. وفي تلك المواقف لا تصلح حتي البندقية أو المسدس فالحرب الحديثة تحتاج إلي الشجاعة من جهة، كما تحتاج إلي العمل والفكر والذكاء والتخطيط من جهة ثانية. ولا يمكن الاكتفاء بالذكاء والعلم والتكنولوجيا وحدها لكسب المعركة.

والبيت والمدرسة وكل المؤسسات الاجتماعية يجب أن تدرب الناشئة عمومًا منذ نعومة الأظفار علي المغالبة والمنافسة. وعلي هذا يجب أن تشجع المباريات سواء كانت مباريات فردية أو مباريات جماعية. ولا يكفى أن يقف الشباب متفرجين علي مباراة في الملاكمة أو المصارعة أو كرة القدم . يجب أن يلعب الجميع وأن يتنافس الجميع. كل علي حسب إمكانياته. الواجب هجر ذلك الموقف السلبي. وأكثر من هذا يجب إبطال تلك الأصوات التي تنادي بالحفاظ على الشباب بعيدا عن الألعاب الخشنة.

أما الهدف الثالث فهو إنتاج المواطن المنتج . فالواجب علينا فى هذه المرحلة أن نتجه فى تربيتنا إلى إعداد المواطن المنتج من اهتمامنا بإنتاج المواطن المثقف . إن كثيرا من المناهج الدراسية تهتم بإعداد المواطن المستنير . نعم إن هدف الاستنارة هدف حقيق بالاعتبار ، ولكن يجب التركيز على اليدين أكثر من التركيز على العقل ، أو بمعنى أدق: يجب الاهتمام بالمواد الإنتاجية أكثر من الاهتمام بالمواد النظرية . فتعلم التلميذ الاشتغال على المخرطة أو المنشار الكهربى أو إصلاح الراديو أو التليفزيون أو السيارة أفضل – فى مرحلتنا الراهنة – من تحفيظه قطعة من الشعر . نعم إن الشعر له مكانته ولكنها مكانة يجب أن تحتلها حاليا المواد الإنتاجية التى تعتمد على إعمال اليدين فى الأشياء المحيطة بنا .

ويجب ألا نشيح بوجوهنا عن الزراعة وفنونها فى القرية. وذلك أن الأساس الذى يقوم عليه اقتصادنا هوالزراعة. ونحن وإن كنا ندعو إلى الأخذ بأساليب الصناعة، فإننا لا ندعو فى نفس الوقت إلى العزوف عن الزراعة. يجب أن نغرس فى قلوب أولادنا وبناتنا حب الأرض وحب الزرع. يجب أن نشجع تلاميذ المدرسة الابتدائية على التشجير. والواجب أن يدفع الناشئة – وبخاصة أبناء المدينة ضريبة استهلاك ما تقدمه الأرض إليهم من محاصيل، وذلك بأن يغرس كل منهم نبتة جديدة، أو يقاوم آفة أو يقوم بغير ذلك من خدمات يمكن أن يقدمها إلى الفلاح الذى نقتات من يديه طوال حياتنا.

والواجب على المدرسة أن تقدم المعلومات والخبرات الزراعية إلى تلاميذها وبخاصة أولئك الذين ينشأون فى المدينة ولا علم لهم بالزراعة كيف تتم فى أحضان الحقول. يجب على المدرسة أن توثق علاقة ابن المدينة بموطنه الأصلى – القرية – وأن تذكر دوما بأن الأصل هوالقرية وليس المدينة. وفى هذا السياق التربوى يجب على المدرسة أن تحارب القيم الرديئة بين أهل المدينة والتى تنعكس فى إطلاقهم كلمة «فلاح» على كل متخلف. يجب أن تعلم المدرسة تلاميذها احترام الفلاح وخبراته والعمل على دعمها، بل ويجب أن يحس كل إنسان مصرى بأنه فلاح وأن يفتخر بهذا الشرف.

أما الهدف الرابع الذى ينبغى أن نتوخاه فى تربيتنا فهو تربية المنقب. فلقد سبق أن قلنا: إن مستقبلنا يرتكز على الصحراء. والواجب علينا أن نمرن ناشئتنا على التنقيب وعلى دراسة الصحراء ووسائل ذلك. يجب أن يدرس شبابنا نباتات الصحراء والحياة فيها وكيفية التنقيب عن البترول والمعادن المختلفة. يجب أن نشجع الشباب على سبر غور الصحراء والعيش هناك. لماذا لا تقام مدن جديدة حول المناطق التى تنض بالبترول والمعادن؟ وإلى حين تنشأ تلك المدن يجب تشجيع الشباب على التجمع فى خيام بتلك المناطق. ويجب أكثر من هذا أن

نربى جيلا من الشباب فى أحضان الصحراء؛ لكى يكون طليعة لشبابنا فى الأجيال القادمة ، وحتى تتعلق قلوبهم بالعيش هناك .

أما الهدف الخامس فهو ربط العلم بالعمل ، والنظرية بالتطبيق باستمرار . يجب ألا نقسم حياة المواطن إلى شطرين . شطر للتلمذة وشطر آخر للإنتاج ؛ يجب أن تضم حياة التلميذ الدراسية جانبا تحصيليا وجانبا آخر إنتاجيا . فمن العبث أن نرفع شعارات: « العمل شرف والعمل واجب » بين فئة التلاميذ أو الطلاب وبينهم وبين العمل حاجب لا يمكن سبره . يجب علينا أن نتصور مفهومًا جديدًا للمدرسة يجمع فى نطاقه العلم والعمل جنبًا لجنب . فإذا نحن نجحنا فى تحقيق ذلك المفهوم ، فإننا بالتالى سوف ننتج جيلا منتجًا ومتعلما فى نفس الوقت .

أما الهدف السادس فهو تربية جيل مؤمن « والإيمان الذى نعنيه هو الإيمان بالله وبأن الإنسان أخ للإنسان » ولكن الأخوة التى يجب أن ننشدها أخوة كريمة وشجاعة نابعة من التعاون حول أهداف اجتماعية مشتركة .

الحرية الحقيقية للشباب

قد يفهم البعض الحرية بأنها التسيب والخروج على النظم والتقاليد أو الاتشاح بأساليب سلوكية شاذة ، أو اتخاذ هيئة مباينة لما اعتاد الناس رؤيته ، أو التفوه بآراء غريبة والإمعان فى التعريض بالأوضاع القائمة والقيم السائدة والتقاليد الشائعة . ولكننا نفهم الحرية بمعنى آخر نرى أنه المعنى الحقيقى الواجب الاتباع .

والمعنى الذى نفهمه من حرية الشباب الحقيقية هو تحرير الطاقات والاستعدادات والمواهب وتوفير الفرص الكافية لها؛ لكى تتبدى للعيان، ولكى تصير من صميم حياة الشاب . فتحرر البذرة ليس فى تركها بعيدًا عن التربة ، بل

يتم تحررها بإطلاق مقوماتها من حيز الكمون إلى حيز الواقع الحى ، وذلك بغرسها فى التربة – أو دفنها فيها بتعبير أدق – ثم توفير العوامل اللازمة للإنبات بحيث تتحول من بذرة إلى نبات بازغ .

ولدى الإنسان مجموعة ضخمة جدا من الموروثات الكامنة فى مقوماته الدفينة ولا يمكن اعتبار الشاب متمتعًا بالحرية إلا توافرت له الظروف الكافية لتحويل ما لديه فى حالة كمون إلى حالات أو مهارات أو قدرات يستطيع السيطرة عليها والتمكن منها وإعمال عقله فيها . فالحرية لا تأتى إلا بالسيطرة على الاستعدادات وجعلها إمكانيات تقصد وتستغل بجدارة وكفاءة ، والإفادة منها فى مواقف الحياة العملية .

والواقع أننا فى التربية نسلك – أوالواجب علينا أن نسلك – طريقين أساسيين ، أو مرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى: مرحلة إخضاع الناشئة لقوالب نصوغهم وفقها . والمرحلة الثانية : مرحلة التعبير الذاتى وإبداء الطابع الشخصى للفرد .

ومن المربين من يعتقد أن الواجب هو البدء بإعطاء الفرصة للطفل؛ لكى يعبر عن ذاتيته من البداية ، وألا نقسره على انتهاج طريق نكون قد حددنا خطوطه وتفصيلاته له بطريقة مسبقة . أولئك المربون يطعنون فى التربية التى تعمد إلى تشكيل الناشئة وفق نماذج أو طرز، ويطالبون بترك كل فرد يسلك طريقه فى الحياة ، ويكتسب من الخبرات ما يتناسب ومواهبه ، وألا نرغم أحدًا على أن يتقبل خبرة لم يجعل لها ، ولم يحظ باستعداد خاص لنيلها .

ولكن الواقع أن أكثر المتحمسين للتلقائية فى التربية ، لا يفتأون يقررون بعض المسائل التى ينبغى إجبار الناشئ على الأخذ بها والتلبس بها فى سلوكه ، وإحالتها إلى لحم كيانه الشخصى ، وألا يحاول التخلص منها أو التخفيف من وطأتها . خذ مثالا لذلك: النظافة فلا شك أن الأم والأب والقائمين على شئون

الطفل مسئولون بشكل مباشر على تشريب الطفل حب النظافة . وليس من أحد يطالب الأسرة بترك الطفل حرا بإزاء نظافة جسمه أو نظافة الأشياء التى يستخدمها . ولم يقل أحد : إن تعويد الطفل النظافة فيه إفساد لحريته الشخصية ، أو فيه انتقاص من كيانه الشخصى الحر . إنما العكس هو الصحيح . فليس من مانع على الإطلاق بين أن نعلم الطفل النظافة ، وبين أن نحافظ على كيانه المتفرد به.

وما يقال عن النظافة يقال أيضًا عن الخضوع للعلاج عند المرض أو التحصين ضده فليس من الحرية فى شيء أن نترك الطفل أو الشاب بغير علاج أو بغير تحصين ضد المرض؛ لأنه لا يرغب فى إخضاع ذاته للأطباء ؛ لأنه يؤثر التحرر من تعليماتهم .

ونفس الشيء ينسحب على كثير من الأشياء التى نقوم بتعليمها للأطفال والشباب فبعض الأطفال لا يحبون الذهاب إلى المدرسة ولا الانتظام فى سلكها ، بل يؤثرون البقاء فى البيت . وإذا ظل الآباء والأمهات مراعين لما يعتقدون أنه حرية ؛ فإن أبناءهم سوف يفشلون فى حياتهم كلها . وبعض الأطفال لا يرغبون تعلم مادة ما كالحساب مثلا ويبدون كراهيتهم لها . ولكن المدرسة تجبرهم على التعلم ، وما يفتأون يحبون المادة التى كانوا يبدون لها كراهية شديدة .

يقول برتراند رسل الفيلسوف الإنجليزى: إنه حال إقناع أحد أبنائه عندما كان صغيرًا بالنزول إلى البحر للعوم معه ، ولكن الطفل كان يزداد إباء واستمساكا بالشاطئ فعمد الأب إلى حمله عنوة إلى الماء ، فصرخ ثم أخذ يضحك بعد أن زال عنه وهمه ووجد أن السباحة لذيذة وأن والده سينجده إذا داهمه الخطر الموهوم .

وكثير من الناس كانوا يكرهون أشياء فى بادئ الأمر ، ثم مافتئوا يحبونها بعد التمرس بها وسبر أغوارها . قال لى أحد المدرسين: إنه عندما التحق بكلية

المعلمين كان يكره مهنة التدريس؛ لأنه أجبر على الالتحاق بها ، ولكنه بعد أن وقف أمام التلاميذ فى التربية العملية ، استشعر لذة عميقة فى عملية التدريس ، ومن يومها وهو شغوف بوظيفته كمعلم .

ومما سبق يتضح أن دعوى التلقائيين الذين يريدون ترك الحبل على الغارب للطفل ليأخذ ما يشاء ، إنما هى دعوى باطلة ، وأن الإلزام لا يتعارض مع الحرية مادام فى مرحلة الإعداد . فالمدرس مثلا مادام فى مرحل الإعداد بكلية المعلمين يظل خاضعًا لإرشادات وانتقادات أساتذته ، ولكنه بعد التخرج وبعد أن يكتسب خبرات كثيرة فى ميدان التدريس يستطيع أن يبدأ فى المرحلة الثانية ، أعنى: مرحلة الابتكار والتعبير عن المواهب والاستعدادات والقدرات الخاصة به .

فالشخص يمر إذن فى مرحلة الاكتساب والتقليد والأخذ عن الآخرين ، ثم يتلو هذا مرحلة أخرى هى مرحلة التعبير عن الذات الحقيقية ، وإبداء ما تأصل فى الشخصية من مقومات . بيد أن هذا لا يعنى: أننا ننادى بعدم تشجيع الأصالة والتعبير الذاتى خلال الطفولة والشباب . إن اعتقادنا هو أن الصفة السائدة بعدهما يجب أن تكون التعبير عن الذات والابتكار والأصالة . ولكى نضع النقط على الحروف نقول إن النسبة بين الاكتساب وبين التعبير الذاتى الأصيل يجب أن تسير على النحو التالى : ٠ : صفر ثم ٩ : ١ ثم ٨ : ٢ ثم ٧ : ٣ . . . الخ . فكلما تقدم الإنسان فى العمر زادت لديه نسبة التعبير الذاتى الأصيل على نسبة الاكتساب .

ومعنى هذا إذن: أن الحرية بمثابة نمو فى الشخصية . فكلما ازداد نمو الشخصية؛ ازدادت قدرتها على اكتساب الحرية ، ونستطيع القول بأن الإنسان فى الشيخوخة العارمة حيث ينكس النمو وتصاب أجهزة الجسم بالسقم والضمور، يأخذ بالتالى فى فقد حريته ويكون بحاجة إلى من يلقنه فى كل خطوة من خطوات حياته ما الذى ينبغى عليه أن يعمله .

ولا يخفى أن للشخصية الإنسانية أربع زوايا يمكن أن ينظر إليها منها : الزاوية الأولى زاوية الجسم ، والزاوية الثانية زاوية الوجدان ، والزاوية الثالثة هى زاوية العقل والزاوية الرابعة هى زاوية القوام الاجتماعى بالشخصية .

ولقد نجد فى بعض الشخصيات أن جانبًا من هذه الجوانب الأربعة قد نما نموا حسنا ، بينما ظل جانب منها أو أكثر فى حالة ضمور ، أو لم ينم النمو السوى الكافى فلقد نجد شخصية موفورة الصحة ولكنها ناقصة النمو فى الناحية الوجدانية أو الناحية العقلية أو الناحية الاجتماعية . ولا نستطيع أن نجد شخصية نامية فى جميع هذه النواحى الأربع بنفس الدرجة أو بنفس السرعة ، ومعنى هذا: أن الشخصية لاتحظى بالحريات الأربع المتواكبة مع نمو الجسم ونمو الوجدان ونمو العقل ونمو الحس الاجتماعى بنفس القدر .

ولنبدأ بنظرة سريعة إلى الحرية الجسمية . إن هذه الحرية لا تتوافر لكل إنسان؛ لأنها تحتاج إلى مواصفات خاصة . ولقد سبق أن عرضنا الصعوبات التى يجابهها إنسان الحضارة فى إحراز الحرية الصحية التى كان يتمتع بها إنسان القبائل البدائية الذى كان على درجة كبيرة من الكفاية الجسمية .

وعلى الرغم من أنه من الصعوبة بمكان تحقيق الحرية الجسمية لكثير من المواطنين فإن بمستطاع التربية أن تكفل قسطًا كبيرًا من الحرية الجسمية للشباب ، وذلك بإلقاء البال إليها والاهتمام بتحقيقها منذ نعومة الأظفار . والواجب علينا أن نعمد إلى اكتشاف ذوى المواهب الجسمية فى وقت مبكر ونأخذ فى رعايتهم . ولا شك أن الأمم المتقدمة تولى أصحاب المواهب الجسمية الذين ينتظر أن يكونوا رياعين أومن أفذاذ الرياضة عناية خاصة ، وذلك بأن ننشئ لهم المعاهد الخاصة التى تعتنى بهم وتتقدم بمواهبهم إلى أقصى درجة ممكنة من التحقيق والإتقان.

ومن ناحية أخرى فإن الواجب اكتشاف الأمراض منذ بدايتها مع الطفولة حتى يتسنى ملاشاتها أو التخفيف من حدتها قبل استفحالها . وكلما استطعنا توقية الشباب من الأمراض كنا أقدر على حمايتهم من الأضرار والعراقيل التى تسببها الأمراض . وغنى عن البرهان أن نقول: إن الشخص المريض لا يستطيع بذل الجهد الكافى للعمل ، كما أنه لا يستطيع الابتكار فى عمله . ناهيك عن أن

المرض يعمل بالتأكيد على تقصير معدل العمر وحرمان الإنسان من الاستمتاع بشيخوخة سليمة وصحيحة وقادرة على مواصلة الحياة فى سعادة وإيجابية وحرية من المرض .

وإذا نحن تناولنا الحرية الوجدانية ، إذن لرأينا أن كثيرًا من الشباب أسرى عادات وجدانية رديئة . والوجدان مرتبط ارتباطا وثيقا بالانفعال . فنحن عندما نعتاد الانفعال بالغضب أو بالجنس لأسباب معينة ، فإن حياتنا تصبح أسيرة لتلك الأسباب ، والإنسان صاحب الوجدان الحر يستطيع أن يخلص نفسه من إسار الأسباب التى تدفع به دفعا فى طريق الانفعال . وهنا نجد أن التربية منذ الطفولة وفي بواكير الشباب على جانب كبير من الأهمية . ولقد شاع بكل أسف مع النهضة الباسقة لعلم النفس فكرة زائفة تقول: إن أحسن وسيلة لإحراز الصحة النفسية هى ترك الحبل على الغارب للانفعالات . فمن وجهة النظر الزائفة هذه يكون من الأفيد وجدانيا ترك الشخص لنزواته فى الغضب والجنس . وأطلق على هذا خطأ منع الكبت . فالكبت عند هؤلاء هو الحرمان من الشهوات والنزوات . والواقع أن هناك فرقًا شاسعًا بين الكبت والقمع . فالكبت عملية لا شعورية تقع بغير وعى من جانب الشخص . وأكثر من هذا فإن آلية الكبت موجودة لدى جميع الناس ولكن بنسب مختلفة . وفى بعض الحالات تكون الرغبات المنسية منذ الطفولة ضارة . ولكن الضرر الناشئ عنها لا يرجع إلى عملية الكبت ذاتها بل يرجع إلى النقص فى الرعاية النفسية والتربوية بعد حدوث الكبت .

فالكبت فى نظر فرويد ليس حكما بالمرض النفسى يصدر بحق الشخص ، بل هو آلية نفسية تسود الحياة النفسية لدى جميع الناس . ولكن الناس يختلفون فيما يقابلونه من معاملة ومن سلوك . ومن الممكن فى نظر فرويد: التسامى بالطاقة المكبوتة وتحويل مسار الرغبات المكبوتة فى طريق آخر مقبول اجتماعيا والتسامى عملية هامة ؛ لأن من الممكن بواسطتها تحقيق الصحة للشخص والارتفاع بمستوى نشاطه الاجتماعى ، بل العودة بالفائدة على المجتمع نفسه .

والقمع عملية مقصودة ويجب التدرب عليها منذ نعومة الأظفار وخلال مراحل العمر التالية وبخاصة فى مرحلة المراهقة وصدر الشباب . والقمع هو عملية إرادية يستطيع الشخص بمقتضاها وضع حدود لرغباته ونزواته وكبح جماح نفسه ، فهو يستطيع أن يلجم نفسه قبل استفحال انفعال الغضب واشتداده. وأكثر من هذا فإن القمع عملية يمكن تخصيبها بالتأمل الذاتى والاستبطان والفكر الراجح بعامة .

وما يقال عن الغضب ينسحب أيضًا على الانفعالات الجنسية ، فمن الممكن أن يتحرر الشباب من سطوة الانفعالات الجنسية إذا هو درب نفسه على قمع ما بدأ فى استشعاره من رغبات جنسية . ويجب أن نضع نصب أعيننا أن الفكرة الشائعة بأن صرف النظر عن المسائل الجنسية يضعف القوة الجنسية لدى الشخص هى فكرة خاطئة تماما . فلقد ثبت أن الاحتكاك الكثير الذى يصادف الأعضاء التناسلية إنما يؤدى إلى ضعف الحساسية الجنسية بتلك الأعضاء . أضف إلى هذا أن الإفراط فى الممارسات الجنسية يؤدى إلى الضعف العام للجسم ، وإلى ضعف النشاط الجنسى بصفة خاصة وإلى انتقاص اللذة الجنسية المجتناة فى الممارسة الجنسية .

فالحرية الوجدانية إذن تتحقق إذا كان الشخص هو صاحب انتحاءاته النفسية وكان خالصًا من العلائق ومتحررًا من أسر الانفعالات . ناهيك عن ضرورة تحرره من العوامل اللاشعورية التى تسوق سلوكه وتسيطر عليه وتجعله عبدا لبعض الرغبات أوالمخاوف أو الاضطرابات النفسية . وليتنا نستعين بوسائل الإرشاد النفسى التى من شأنها معالجة المسائل النفسية قبل استفحالها والتى تغنى عن اللجوء إلى الطب النفسى وقصر الأخير على الحالات الحادة .

ونأتى بعد هذا إلى الحرية العقلية ، وهذا النوع من الحرية يمكن أن يتحقق للشخص إذا هو استطاع أن يصحح أفكاره أولا بأول وأخذ فى تخصيبها . ويجب أن نضع نصب أعيننا أن الإنسان له عالمان أساسيان : عالم المحسوسات وعالم

الرموز . ولا نغالى إذا قلنا: إن عالم الرموز بالنسبة للإنسان صار ينافس عالم المحسوسات . فنحن فى تحركاتنا وسكناتنا إنما نسلك بالرموز التى تشير إلى الأشياء بغير أن تكون الأشياء نفسها قائمة فى الموقف .

ومعنى هذا بالتالى: أن غزارة الرموز فى عقل الشخص تؤدى إلى توسيع عالمه وتوسيع قدرته على السيطرة على عالم المحسوسات . وهنا يفترق العالم عن الجاهل . فالعالم يستطيع أن يتحكم فى الأشياء أكثر مما يستطيع الجاهل ، كما يستطيع أن يفيد مما حوله بمدى أبعد مما يستطيع الجاهل . وحرية الشاب العقلية تتحقق له إذا هو استطاع أن يفعم ذهنه بالفكر والمعلومات وبأن يتمكن من التفكير فيما يعرض له من أمور بطريقة عميقة وسليمة ، وبأن يقيم العلاقات الدقيقة بين الأشياء ، بل وأن يقيم العلاقات بين العلاقات .

وأخيرًا نأتى إلى الحرية الاجتماعية . وهذه تتحقق بأن يفهم الشخص مجتمعه ، فيتأثر به ويؤثر فيه . والواقع أنه كلما كان الشخص أكثر تفهما لمجتمعه وتأثرًا به؛ كان أقدر على التأثير فيه وعلى تحريك اتجاهاته وعلى تعديل مساره . ولا شك أن الزعامة الحقيقية لا تتأتى للشخص إلا بعد أن يفهم المجتمع الذى يعيش فيه فهما جيدًا .

والفهم الصحيح للمجتمع لايتأتى بمجرد العكوف على كتب علم الاجتماع واستظهارها بل يجب أن يكون بذهن الشخص أفكار علمية إلى جانب انخراطه بالفعل فى المجتمع حتى يكتسب الحس الاجتماعى وحتى يتم تكيفه للمجتمع ، وبالتالى يحظى بحريته الاجتماعية التى لاتتأتى إلا باتخاذ خطوة مبدئية هى التوافق مع المجتمع ، وبذا يتسنى اتخاذ الخطوة الثانية وهى السيادة على المجتمع ، والقدرة على التأثير فيه ، بل وتوجيه مساره ، أو المشاركة فى ذلك على الأقل .

الجنس والزواج

علينا أولا أن نحدد المبادئ التى ينبغى مراعاتها والأخذ بها فيما يتعلق بالجنس والشباب . المبدأ الأول: أن التربية الجنسية والتوجيه الجنسى يجب ألا يستهدفا القضاء على الجنس أو محاربته . فهناك فرق بين التوجيه الجنسى وبين محاربة الجنس . والمبدأ الثانى: هو أن النظرة إلى أمور الجنس يجب أن تكون نظرة عملية حيادية . فلا ينبغى النظر إلى الجنس بنظرة مشوبة بالتوجس ، ويجب عدم صبغ الجنس بالنجاسة . الواجب اعتباره شيئًا حياديا . إنه كالسكين . فالسكين إذا ما استخدم لخدمة الإنسان صار أداة خبرة ، وإذا استخدم للاعتداء على حرمات الآخرين وطمأنينتهم اعتبر أداة شريرة . والمبدأ الثالث: أننا نرفض اللجوء إلى الأساليب الشاذة فى الإشباع الجنسى . والمبدأ الرابع : أننا ننظر إلى النشاط الجنسى نشاطا اجتماعيا وليس من زاوية الرغبات الفردية فحسب . فيجب اعتبار الجنس نشاطًا اجتماعيا خاضعا لمقتضيات ومطالب المجتمع . المبدأ الخامس: يجب عدم الربط بين الجنس والنسل ربطا مستمرًا . فليس كل نشاط جنسى يمارس من أجل الإنجاب ، فمن الممكن ممارسة الجنس فى الزواج بغير إنجاب .

ومن القضايا التى يبدو ظاهريا أنها حسمت ، ولكنها فى الحقيقة لاتزال قائمة فى الأذهان ولدى جميع الأسر قضية اختلاط الجنسين . فمجتمعنا أيام كان مجتمعًا زراعيا كانت فيه طبقتان أساسيتان : طبقة المزارعين وطبقة الملاك . ولم تعرف طبقة المزارعين عزل الإناث عن الذكور ، بل كان الاختلاط بينهما شيئًا طبيعيا فى الحقل وفى رعاية المواشى ومكافحة الآفات الزراعية . أما طبقة الملاك ، فإنها كانت تخشى على بناتها ،وكانت تستعين بحجبهن كنوع من التنزيه والتسامى عن مستوى العامة ، بل كانت تعتبر ذلك نوعًا من إعلاء مكانة المرأة بطريق عزلها عن المجتمع ، وإبعادها عن أعين الناظرين . وكان هذا يجعل الشباب يتشوفون لمشاهدة البنت من طبقة الملاك والتبارى للزواج منها . ولا شك أن كثيرًا من أبناء الزراع قد أخذوا يقتفون أثر أصحاب الأملاك ، فنزعوا إلى حجب المرأة والبعد بها عن الأنظار والمعاملات .

ولكن هذا الأمر لم يتسن استمراره بعد أن دبت الحضارة فى أوصال البلاد حتى لقد وصلت إلى المراكز والقرى وبعد أن انتشرت مدارس البنات حتى الثانوى بالبلاد التى دأبت على حجب الفتاة ، وآمن الناس بتعليم البنت واعتبروا مستقبلها وحقها فى الالتحاق بالجامعة ثم الامتهان بمهنة ضرورة تحتمها مقتضيات العصر ، ومن ثم انهارت قيم قديمة وظهرت إلى الوجود قيم أخرى جديدة . ولكن على الرغم من هذا فإن هناك بقايا للصراع الذى احتدم فيما بين القيم القديمة والقيم الجديدة . فلا تزال هناك أصوات تنادى بعودة المرأة إلى البيت وتكريس حياتها لخدمة زوجها وأطفالها ، وحتى عندما يحس أصحاب هذه الدعوة بضعف مركزهم بإزاء الموقف القوى الذى احتله أنصار اشتغال المرأة في الحياة العامة، فإنهم يكتفون بإبداء الأسى على ما انتهى إليه حال المرأة من فقدان لمكانتها الأرستقراطية بالمجتمع الريفى ، معتبرين أن الحرية التى اكتسبتها المرأة هى حرية زائفة ، وأن اشتغال الفتاة بعد تخرجها فى المدرسة أو الجامعة إنما هو على حساب كثير من المزايا التى كانت تتمتع بها قبلا [١] .

ولكن المسألة الجديدة ليست مجرد خروج المرأة إلى المجالات العملية ، بل تعدت ذلك إلى الحقوق فى الممارسات للمناشط الجنسية . ففى المجتمع الإقطاعى الزراعى كان من حق الرجل أن يقيم علاقات جنسية متنوعة خارج نطاق المشروع له منها . وإن أردنا الدقة فى التعبير ، إذن لقلنا: إن ذلك المجتمع الإقطاعى كان يغمض عينيه عن أخطاء الرجل الجنسية ملتمسًا له المعاذير والتعلات ، بينما كان لا يتهاون مع المرأة إن هى زلت أو حتى إن هى لم ترع شكليات السلوك بإزاء فئة الرجال .

والمشكلة الجديدة التى أخذت تطل برأسها هى مشكلة : هل تنال المرأة الحقوق الجنسية التى يستأثر بها الرجل ؟ فمثلا . هل تستطيع الفتاة أن تقيم علاقات صداقة مع الرجل ؟ وإلى أى حد تمتد تلك العلاقات؟ وهل تستطيع الفتاة الموظفة أن تضرب موعدًا مع أحد أصدقائها لتقابله خارج المنزل ؟ هذه الأسئلة

(١) انظر كتاب « المرأة والحرية » للمؤلف – مكتبة نهضة مصر الفجالة .

وغيرها تجد إجابات متباينة تباين الأفراد من كلا الجنسين . والاختلاف فيما بينهم إنما يرجع إلى تضارب القيم وتنابذها .

وما يجب أن يستقر في الأذهان حتى نتلافى ما يمكن أن ينتهى إليه هذا التضارب فى القيم الجنسية من نتائج وخيمة ، هو خلق مجالات اهتمام مشتركة بينَ الجنسين ، والعمل على حشد طاقات الطرفين لإنجاز العمل فى تلك المجالات بتوجية أخلاقى واجتماعى مستمر . والواقع أن الجنسين إذا ما التقيا حول اهتمامات مشتركة ، إذن لانصبت طاقات جميع الغرائز حول تلك الاهتمامات ، وإذن لاكتسب كل واحد من الجنسين احترامًا وتقديرًا لأفراد الجنس الآخر ، ولتحولت النظرة من الناحية الجسمية الجنسية إلى الناحية الاجتماعية الابتكارية ، ولظهرت معان جديدة للجنس أسمى وأقوى من المعانى الجسمية المعروفة .

ومن تلك المجالات التى يمكن نشرها: الأندية الرياضية . والواقع أن الذين عاشوا فى الأندية التى يهتم القائمون على شئونها بالتوجيه الجنسى السليم ، يقولون لك: إن النادى كان له فضل كبير فى تغيير نظرتهم إلى الجنس الآخر ، وأن وجودهم بالنادى قد رفع مكانة المرأة فى أعين الذكور ، كما رفع معنى الرجل فى أنظار الإناث .

ولكن ينبغى ألا نقصر الاهتمام على التربية الرياضية فى مجال اختلاط الجنسين بل يجب أن نتعدى هذا إلى مجالات الخدمة الاجتماعية . وفى هذه المجالات يمكن أن يتعاون الجنسان على خير وجه وأكمله ، وأن تركز الاهتمامات على توجيه الطاقات الجنسية وجهة اجتماعية وذلك باستنفادها فى نطاق العمل الاجتماعى .

وأكثر من هذا فالواجب أن نغير نظرتنا إلى الشباب من حيث بداية اندراجهم فى الحياة العامة ، يجب ألا يقام فاصل بين تلقى العلم وبين الاشتغال فى الحياة ، ولعل الجمع بين العلم والعمل فيه تقوية للشخصية وتثبيت للخبرات

المكتسبة ونهوض بالكيان الفردى والاجتماعى على السواء. ينبغى أن يبدأ العمل منذ بداية الحياة . يقول أحد علماء التربية المعاصرين: « إننا كثيرًا ما نخطئ عندما نعتقد أن الطفولة لا تستطيع تحمل مسئولية العمل . والواجب علينا أن نميز بين شيئين أساسيين : اشتراك الطفولة فى العمل كحق طبيعى لها، وإرهاق الطفولة فى العمل واستغلالها فى ذلك . ومعنى هذا: أن الكبار يقعون فى خطأ من خطأين : الخطأ الأول: حرمان الطفل من العمل ، والخطأ الثانى: إرهاق الطفل بالعمل .

والواقع أننا عندما أخذنا فى حماية الطفولة من استغلال الكبار ، وقعنا فى الخطأ الأول وهو حرمان الطفولة من المشاركة فى الحياة العملية . بيد أننا لم نفعل ذلك بالنسبة للطفولة فحسب ، بل امتددنا بهذا الحرمان إلى مرحلتى المراهقة والشباب . ولقد لقى هذا الحرمان ترحيبًا من الكبار الذين أحبوا أن يؤجلوا الزواج إلى سن معينة حتى يستطيع الشاب والشابة تحمل مسئوليات الحياة الزوجية . ولعل الباعث الحقيقى فى رفع سن الزواج هو باعث اقتصادى وليس باعثًا أخلاقيا كما يزعم الكثيرون .

وسبيل الإصلاح فى رأينا هو أن يبدأ العمل – ولو تحت إشراف المدرسة أو المعهد – منذ المراهقة على الأكثر ، وأن ترفع قيود سن الزواج الحالية ؛ حتى يتسنى للشاب والشابة الاستمتاع بحياة زوجية مبكرة . وهذا لا يتعارض بحال مع مبدأ تحديد النسل . فمن الممكن فى هذه السن المبكرة تدريب الشاب على وسائل تحديد النسل بحيث تسقط حجة رفع سن الزواج بقصد الحد من النسل .

ولعلنا نستطيع القول بأن تحديد النسل وتنظيمه يتوقفان على ناحيتين : الاقتناع والممارسة . فبغير أن يكون الزوج والزوجة مقتنعين بوجوب تحديد وتنظيم النسل؛ لما أقبلا إذن على وسائله . وحتى إذا نحن رفعنا سن الزواج إلى أعلى سن ممكنة لكلا الجنسين، ولم يكن هناك اقتناع بتحديد النسل وتنظيمه ؛ لما حصلنا إذن على النتيجة المطلوبة . وعلى العكس من ذلك فإذا كان الاقتناع موجودا وتم الزواج مبكرا فإن التحديد أيضًا يتم على خير وجه .

أما الحجة المتعلقة بعدم الثبات الواجدانى فى الأسنان المبكرة من الشباب ، فالملاحظ من الخبرة العملية أن الزيجات المبكرة فى الأجيال السالفة كانت أرسخ قدما من الزيجات التى تأخرت حتى سن كبيرة . ناهيك عن أن العادات الجنسية التى يتلبس بها الشاب والشابة ، والعلاقات الجنسية غير الشرعية التى يمكن أن يتعرضا لها قبل الزواج – عند تأخر سن الزواج – إنما تؤثر تأثيرًا ضارا فى الحياة الزوجية وفى مدى قدرة الزواج على الاستمرار فى حالة من الاستقرار والسعادة .

ويجب أن يتغير المعمار بحيث يتكيف للأوضاع الجديدة التى ندعو إليها؛ لتحقيق تكامل شخصية الشاب وشخصية الشابة . ويجب أن تعمل الأجهزة الاجتماعية على تذليل الصعاب أمام الشاب والشابة فيما يتعلق بشكل الشقة الجديدة التى تتناسب مع الدخول البسيطة ، إننا اليوم لا نزال نتمسك بالمعايير المعمارية القديمة . لابد من استئجار شقة مكونة من ثلاث أو أربع غرف ، ولا بد من ملئها بالأثاث الضخم . لابد من البوتاجاز والثلاجة والتليفزيون والراديو والغسالة وغير ذلك . وطبيعى أن كل ذلك يتطلب استعدادا ماليا قد تنوء به كواهل الشباب الراغبين فى الزواج . ولكن إذا نحن نظرنا نظرة واقعية تطورية إلى المعمار ، إذن لاستطعنا أن ننشئ العمائر التى تتكون من شقق صغيرة تتكون كل شقة منها من حجرتين والمرافق : حجرة للزوجين وحجرة لما ينجبان من أطفال. ويمكن أن تكون تلك الشقق مؤثثة وأن تستغل الحوائط كدواليب ومكتبة وغير ذلك. ويمكن أن تكون للعمارة الواحدة أنبوبة بوتاجاز واحدة ضخمة كما كان موجودًا بالنسبة لغاز الاستصباح – ولا يزال موجودًا – ببعض العمائر القديمة [١] . ويمكن تجهيز ثلاجات مشتركة بالدور الأرضى للعمارة وينظم استخدامها ، كما يمكن تشجيع الوجبات الجاهزة التى يقوم بإعدادها مطبخ مشترك للعمارة الواحدة الكبيرة .

---

(١) وصل الغاز الطبيعى بالفعل فى أحياء كثيرة بمدينة القاهرة كبديل لأنابيب البوتاجاز .

وطبيعى أن التخلص من المعايير القديمة للرفاهية والأخذ بمعايير جديدة متطورة إنما يحتاج إلى توجيه تربوى واجتماعى بعيد المدى . المهم فى الموضوع أن نزيل العراقيل التى تقف أمام الشاب والشابة فى مسألة الزواج ، وأن نخفف عن كاهليهما المسئوليات الجسام التى توجد حاليا فيما يتعلق بالاستعداد للزواج . ولا يخامرنا أى شك فى أن الشاب الصغير والشابة الصغيرة أكثر قدرة على استيعاب التوجيهات المتعلقة بالتكيف الاجتماعى للحياة الجديدة من أولئك الذين يظلون بغير زواج حتى سن متأخرة .

ونحن نعيب على المدرسة المصرية أنها تخاصم الدراسات التربوية النفسية الجنسية . نعم إنها بدأت تأخذ ببعض الدراسات الجنسية ولكن بطريق غير مباشرة كما هو الحال لدى تدريس الأمومة بدور المعلمات ، وكما أن بعض مناهج الدين تتعرض لشىء من الدراسات الجنسية وأحكام الدين فى هذا الشأن . ولكن الناحية النفسية والاجتماعية تحتاج إلى شىء كثير من العناية والتنظيم . يجب أن يدرس الجنس بالمدارس ، وذلك لأن إغفاله يؤدى نتائج وخيمة . ولا يكفى أن يدرس الطالب والطالبة فسيولوجية الأعضاء التناسلية فى مادة الأحياء، بل يجب أن يقفا على نظريات علماء النفس وعلماء الاجتماع فى هذا الشأن. ولاشك أن درج الجنس ضمن الدراسات الاجتماعية والنفسية بالمرحلتين الإعدادية والثانوية سيعزف بالمراهق والشاب عن اقتناء كثير من الكتب الغثة التى استهدف مؤلفوها إثارة الأخيلة والشهوات الجنسية ولم يقصدوا من ورائها تبصير المراهق والشاب بواقعهما النفسى والجسمى .

والزواج المبكر يعطى صورة حقيقية للزواج باعتباره عملية تحتاج إلى توجيه وتدريب مستمرين . أما الزواج المتأخر فإنه يغلق الباب أمام كل توجيه فى هذا الشأن . ذلك أن الشخص بعد سن معينة يكون منعدم القابلية للتوجيه ، أو يكون توجيهه عبثا من العبث ، ولغوا من اللغو . والواقع أن الزواج المتأخر يكون بمثابة تسديد خانة؛ لأنه يتم بعد أن يكون كل من الشاب والشابة قد فترت حماستهما القديمة للزواج ، وتكون القابلية للتعلم لديهما قد ذبلت ، ناهيك عن أن القوة الجنسية تكون قد ضعفت أو تكون قد بدأت فى الأفول .

ويمكن إنشاء أقسام للتوجيه الجنسي والتوجيه في الزواج بالمدارس والجامعات وليس بخاف أن الاستشارة النفسية والاجتماعية لا تقل في أهميتها عن الاستشارة الطبية . والواقع أن كثيرًا من النجاح في الزواج يمكن أن يتحقق بتوافر التوجيه السليم . ولا يخفى على أحد أن الزواج المبكر القديم كان ناجحًا في مجموعه بفضل التوجيه المستمر الذي كان كل من الزوج والزوجة يتلقيانه من الآباء والأمهات والأحماء والحموات . ولا شك أن الزواج القديم الذي كان يتم في ربوع البيت الكبير كان مجالا تدريبيا رائعا برغم ما كان يضمه من مشكلات دأب الكتاب والقصاصون بالدق عليها ويؤكدونها ويبرزونها لما تتضمنه من ميراث ومفارقات . بيد أننا لا ندعو إلى أن يسكن الابن المتزوج حديثًا مع والديه، ولا حتى أن تتزوج العروس وتبقى في بيت أبيها مع زوجها الجديد . إننا نعتقد أن الاستقلال مفيد في تكوين شخصية العريس وشخصية العروس . ولكن الذي نؤمن به وندعو إليه هو ضرورة وجود بديل للكبار الذين كانوا يقومون بدور الموجه والناصح الأمين فيما يتعلق بوسائل تحقيق السعادة في الزواج . وهذا البديل الذي نطالب به يجب أن يتوافر لديه الإخلاص والدراية العملية والصبر في تناول مشكلات الزواج بعين فاحصة ، وأن تنظم عملية توجيه الأزواج بطريقة تضمن سرية المشكلات ، وتضمن سلامة التوجيه ودقته وتحقيقه لأهدافه المرجوة منه .

ومن الممكن أن تجمع هذه المؤسسات الاجتماعية بين وظيفتي تنظيم الأسرة وبين التوجيه الجنسي ، ومعنى هذا: أننا ندعو إلى تكامل التوجيه الأسري، بحيث ينظر إلى الأسرة بنظرة شاملة . ويمكن أن يتولى مستشار واحد أمر توجيه الأسرة الجديدة فيضم مشكلاتها في ملف واحد . ويستمر التوجيه الأسري في عنق ذلك المستشار الأسري بحيث تكون في متناول يديه جميع المشكلات الناشئة ، والتوجيهات التي قدمها إلى شريكي الحياة بما في ذلك تنظيم نسلهما ، ولا يكون التوجيه الأسري عندئذ قاصرا على موضوع تنظيم النسل ولا يكون الإقبال على مؤسسة تنظيم الأسرة وفق الهوى والرغبة الشخصية ، بل يكون إلزاميا حتى يتسنى القيام بعملية المتابعة المستمرة ، وحتى يمكن تلافي المشكلات الضخمة قبل استفحال كيانها وتفاقمها .

من الحقائق المؤكدة أن الشباب من الجنسين بحاجة إلى توجيه فى خضم الحياة حيث إنهم لا يستطيعون القيام باستكشاف الحياة من حولهم بغير هدى من ذوى الخبرة. والواقع أن مفهوم التوجيه قد أخذ يتبلور ويحتل مكانه فى جميع مجالات الحياة وذلك لدقة تلك المجالات الحضارية من جهة ولأن التواؤم مع المجتمع الحضارى المعاصر لا يتأتى للإنسان بالفطرة من جهة أخرى ، حيث إن المجتمع الحضارى بطبعه مجتمع مصطنع ولا يمت بصلة من قريب أو من بعيد للفطرة الإنسانية . من هنا فإن من الخطل الاعتماد على التلقائية فى سبر الشباب لأغوار الحياة من حولهم . لقد كان الإنسان البدائى فى غنى عن التوجيه المباشر؛ إذ كان يكفى أن ينخرط الطفل والمراهق والشاب فى ركب الكبار؛ لكى يمتص من حوله القيم ويتمرس بالاتجاهات والمهارات الشائعة بمجتمعه ويقف على المعارف التى تشيع بذلك المجتمع الذى كان يعتمد على الفطرة إلى حد بعيد .

بيد أن المجتمعات الحضارية قد دأبت على توجيه الناشئة بغير توان وبغير أن تتنحى عن ذلك : وكان المتزعم لتوجية الناشئه باستمرار هو المدرس . ذلك أن المدرسة عندما نشأت أول ما نشأت كانت ذات ارتباط وثيق بالأسرة؛ لأنها عندما بزغت إلى الوجود كانت بمثابة الخادم الأمين للأسرة . ولم تكن المدرسة فى واد والأسرة فى واد آخر ، بل كان ثمة تكامل وتآزر فيما بينهما بحيث كنت تجد أن المثل العليا التى تقدمها الأسرة لشبابها هى ذاتها المثل العليا التى كانت تحاول المدرسة عن طريق مدرسيها بثها فى الشباب. لقد ظل المجتمع الحضارى لفترة طويلة غير مناهض بعضه لبعض ، ولم تكن هناك قضايا نزاعية بين الأسرة وبين المدرسة ، بل كانت القضايا التى تنافح عنها الأسرة هى نفس القضايا التى تنافح عنها المدرسة .

ولكن بعد اشتداد تعقيد الحياة الحضارية وبعد أن وقع الانفجار السكانى ، وجدت المدرسة نفسها بإزاء وضع جديد هو الإنتاج بالجملة . وكانت النتيجة

الطبيعية لهذا الإنتاج بالجملة أن ظهر التخصص الدقيق فى شريحة صغيرة واحدة من العمل الكبير. ولكن ما الشريحة التى اتجه التخصص إليها فى المدرسة ؟ إنها المنهج الذى يقوم كل مدرس بتدريسه بغير أن يلقى بالا إلى الهدف العام من المدرسة. وأكثر من هذا فإن التخصص الذى وكل بكل مؤسسة اجتماعية قذف بالمدرسة عن العرش السلوكى الأخلاقى وعمل على حصرها فى نطاق العرش التعليمى المعرفى. لقد سقطت القيم من حساب المدرسة فى المجتمع المعاصر، وقد حبست فى نطاق ضيق هو النطاق المعرفى.

وحتى البقية الباقية من الأهداف الأخلاقية القيمية التى كانت المدرسة إلى عهد قريب مستمسكة بها قد استلبت منها على يد وسائل الإعلام. فلقد عملت السينما والإذاعة والصحافة بأنواعها، وأخيرًا التليفزيون على إسقاط فاعلية المدرسة فى تشكيل الاتجاهات لدى الناشئة والعمل على ترسيخها فى شخصيات التلاميذ. لقد ثبت بما لا يرقى إليه الشك أن فاعلية المدرسة فى تشكيل شخصيات التلاميذ قد أخذت تتضاءل مع ازدياد تأثير وسائل الإعلام وبخاصة التليفزيون الذى كاد أن يستولى على مقاليد الحياة السلوكية للناشئة وبخاصة الشباب. وعندما أحست المدرسة بضآلة رسالتها الأخلاقية إذا ما قيس تأثيرها فى ضوء تأثير وسائل الإعلام، فإنها تنحت عن حمل مسئولية الإعداد الأخلاقى للشباب والناشئة بعامة، وقد غاصت حتى أذنيها فى هدف واحد هو الهدف المعرفى.

فأنت اليوم إذا سألت أى شاب أو شابة عن المهمة الموكولة للمدرسين بإزائهما، إذن لحصلت على إجابة واحدة بغير اختلاف وهى أن مهمة المدرسين تنحصر فى تدريس المناهج بحيث يتسنى اجتياز أكبر عدد من التلاميذ لحاجز الامتحان بأعلى درجات ممكنة. صحيح أن المدرسة لا تزال تعلن رسميا عن مسئوليتها عن الإعداد الأخلاقى والسلوكى للناشئة ولكن شتان ما بين ما تعلنه المدرسة على الملأ وبين ما تأخذه على عاتقها بالفعل. فالكلام شىء والعمل شىء آخر. وما تضطلع به المدرسة حاليا قاصر على تشريب التلاميذ بالمناهج الدراسية. وإذا كان ثمة تأثير للمدرسة والمدرسين فى شخصيات التلاميذ فإنه

إذن يكون تأثيرًا عفويا بالمصادفة ولا يعتمد على أسس وركائز راسخة ، بل إنه يكون فى غالبية الحالات تأثيرًا رديئًا لا تأثيرًا طيبًا .

ذلك أن المدرسة الحديثة بالمجتمع الحضارى تصنف تلاميذها فى ضوء معيارين : إما معيار السن وإما معيار المستوى المعرفى ، ولا تلقى بالا إلى القيم فتصنف التلاميذ فى ضوئها . وليس بخاف أن مبدأ تكافؤ الفرص الذى ساد التعليم والذى بمقتضاه تحرت المدرسة تحقيق العدالة الحسابية فى توزيع المعرفة على الناشئة بغير اختلاف قد ضرب بكل القيم الأخلاقية والاجتماعية عرض الحائط ولم يأخذ فى اعتباره إلا شيئًا واحدًا هو المستوى التحصيلى الذى يمكن أن يتأتى للتلاميذ فى مرحلة ما من مراحل الدراسة . ونذكٍّر هنا بما نعنيه بالمساواة الحسابية فى توزيع المعرفة على التلاميذ بمقابلتها بالمساواة الهندسية . فنقول: إن المساواة الحسابية كأن نقسم أربعة أرغفة على أربعة أشخاص بالتساوى بغض النظر عن حاجة كل منهم إلى الكمية الغذائية حسب حالته الجسمية ، بينما تتحرى المساواة الهندسية أن يحصل كل واحد من الأربعة حسب احتياجه . فإذا كنا بصدد توزيع خبز على أربعة أفراد أحدهم طفل والآخر شاب والثالث مصارع والرابع امرأة تقوم بعمل ريجيم للحفاظ على قوامها ، فإننا سوف نقدم إلى كل واحد من أولئك الأربعة قدرًا من الخبز حسبما يحتاج إليه جسمه وحالته ويكون من العدالة أن نراعى تلك الحاجة وأن لا نقسم الأرغفة بينهم بالتساوى . فمبدأ تكافؤ الفرص المعرفى لم يحسب حسابا لأية قيم اجتماعية أو أخلاقية ، بل حسب كل الحساب للقيم المعرفية ، وبتعبير آخر: فإن إذابة الطبقات الاجتماعية من أجل تحقيق التكافؤ فى الفرص المعرفية قد أدى إلى إذابة القيم الاجتماعية الأخلاقية أيضًا .

وعلى الرغم من أن المدرس الحديث يقف أكثر بكثير من المعلم القديم على معلومات نفسية عن التلاميذ فى مراحل النمو المختلفة ، فإننا نستطيع القول من جهة أخرى: إن المدرس الحديث أقل قدرة من المدرس القديم فى اتخاذ موقف سيكلوجى باتجاه تلاميذه ؛ لقد كان التأثير النفسى للمعلم القديم بالغ الفاعلية

فى توجيه دفة سلوك الشباب بينما نأسف إذ نقول: إن المدرس الحديث مفلس أو يكاد من حيث القدرة على التأثير نفسيا فى قلوب وسلوك طلبته . ذلك أن الطالب لم يعد يرى فى مدرسه سوى مصدر للمعرفة ، بل نستطيع تحديد الكلام فنقول: إنه لم يعد يرى فيه إلا مساعدًا له لاستيعاب المناهج المقررة لا الحصول على أية معرفة من أى نوع . والواقع أن المعرفة قديما كانت تعنى الحكمة أكثر مما كانت تعنى المعلومات . فكان الاعتقاد قديما بإزاء المعرفة ينصب على جماع الأفكار والمفاهيم التى تصقل الشخصية . أما المعرفة المستقاة من المناهج فهى معرفة مجزأة ومبعثرة . إنها جثث بغير أرواح . فهى نتف يحصل عليها التلاميذ للقذف بها على ورقة الإجابة فى آخر العام . ومادام العلم قد ارتبط فى ذهن التلميذ بالامتحان والمستقبل ومادام الامتحان هو مجرد وسيلة لاجتياز ممر مرهق ، فقد صار المعلم أيضا – بل والمدرسة برمتها – بمثابة وسيلة موقتة يجب أن يلقى بها بعيدًا عن مجال اهتمام الطالب بعد أن تكون قد استنفدت الغرض منها . ولذا فإنك تجد أن الطالب ينظر بشىء من الاستهانة إلى مدرس الثانوى بمجرد التحاقة بالجامعة ؛ بل إنه لا يكاد يرغب فى تحية أستاذه الذى أوصله إلى باب الجامعة ،ونستطيع أن نستكشف ما يشبه العداء بين الطالب والمعلم ، بل بين الشباب كمجموعة كبيرة وبين المعلمين والمدارس بعامة.

وإذا كان هذا هو الحال الذى وصل إليه الشباب اليوم ، فيجب أن نبحث عن أول الخيط لنلتقطه ولكى نبدأ العمل منه ، فنقول : إن الواجب يحتم علينا أولا أن نبحث عن كيفية إعداد المعلم الرائد قبل أن نبحث عن كيفية إعداد المعلم العارف بالمناهج . وهذا يتطلب منا بادئ ذى بدء أن نبحث فى عملية الإعداد ذاتها التى يخضع لها المعلم حاليا. يجب أن نقرر أن عملية إعداد المعلم يجب أن تتعدل عما عليه الحال اليوم . يجب أن نبحث فى كيفية إعداد المعلم سيكولوجيا قبل أن نعمد إلى إعداده معرفيا . صحيح أن المعرفة هامة والتمكن من المناهج شىء غنى عن المناقشة ، ولكن الذى يجب أن يحتل الأولوية هو الوسائل التى تعد شخصية المعلم . ويتطلب هذا فى رأينا أن يتلقى طالب المعلمين – بكليات المعلمين – تدريبات تتعلق بشخصيته . فبدلا من دراسة الإيحاء مثلا يجب أن يتم تدريب

الطالب على كيفية تقديم الإيحاءات إلى الآخرين . وشتان ما بين قراءة كتاب عن الإيحاء وبين التدريب على تقديم الإيحاءات إلى الآخرين . ونفس الشيء يقال عن التحليل النفسى وغير ذلك من فنون سيكلوجية قد يستفاد ببعضها فى إعداد الرائد النفسى والاجتماعى للشباب .

وإذا كان فرويد قد أكد فى أكثر من موقف أن المحلل النفسى يجب أن يخضع هو نفسه أولا للتحليل النفسى قبل مباشرته على المرضى النفسانيين حتى يكون شخصية نقية من العقد النفسية ، فنستطيع القول بنفس القدر من التأكيد أن الشخص الذى يراد له أن يتصدر لريادة الشباب نفسيا واجتماعيا يجب أن يخضع بالتالى للتنقية النفسية ، بل وللتمرس بالقيم الأخلاقية والاجتماعية التى يراد للشباب أن يرعوها فى حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية . وغني عن القول أن مدرسًا لا يؤمن بقيمة اجتماعية وأخلاقية ما لا يستطيع – بل إنه سوف لا يحاول – بثها فى نفوس الناشئة . إنه قد يعمد – وكثيرًا ما يحدث – إلى بث قيم مناهضة للقيم الأخلاقية التى يراد بثها فى الشباب . ونستطيع أن نزعم بحق: أن مسئولية المدرس عن غرس القيم الأخلاقية والاجتماعية في الشباب إنما هى مسئولية ضخمة لا يستطيع بمجرد معرفته بها أن يتولى بثها فى قلوبهم . ذلك أن شرط إمكان بث القيم فى الآخرين أن تكون هى أولا راسخة فى قلب من يريد النهوض بإشاعتها وغرسها فى قلوب الناس . ففاقد الشيء لا يعطيه . وفاقد الإيمان بالقيم الأخلاقية لا يستطيع أن يحمل الآخرين على الإيمان بها ، بل الأحرى أن يحملهم على الإيمان بعكسها .

وإذا نحن أردنا لشبابنا أن يستمسكوا بالقيم الدينية فلا بد أن يكون معلمو التربية الدينية هم أنفسهم مؤمنين بالقيم الدينية ومتمرسين بها فى حياتهم اليومية . فلا نستطيع أن نتخيل أن تقديم المعرفة الدينية وحده كفيل بحمل الشباب على التمسك بالقيم الدينية . فمن المعروف أن من الممكن أن يكون الشخص ملما بأطراف الدين وواقفًا على جميع المعلومات الدينية الأساسية حول المعتقدات وحول القيم بينما لا يكون متحمسًا لما يقرره بلسانه باعتبار أنه

حقائق لدنية ، وباعتبار أنه قيم ينبغى التمسك بها . سهل جدا أن يقرر اللسان حقائق لا يقررها القلب . ومعنى هذا بتعبير آخر: أن دور الوجدان على جانب لا يقل أهمية فى إعداد الرائد الروحى عن جانب إعداده المعرفي . فلابد أن تتجاور المعرفة الدينية مع الحماس الدينى؛ حتى يتسنى غرس القيم الروحية الأخلاقية فى نفوس الشباب .

ولسنا نغض من أهمية الوسائل التربوية، أعنى وسائل تطبيق المعرفة على الواقع الاجتماعى أو خلق مواقف تربوية يتم التطبيق من خلالها . ينبغى أن نشير هنا إلى أهمية تذرع المعلم بوسائل التربية والاستعانة بالأساليب المناسبة فى إيصال الخبرات إلى التلاميذ . من أهم ما يمكن أن يتسلح به رائد الشباب تمكنه من إقامة العلاقات الاجتماعية بين الشباب بغرض إنجاز أهداف معينة . ونخشى أن نقول: إن أغلب المدرسين اليوم لا يجيدون فن إقامة العلاقات الاجتماعية بين طلابهم . إن كل ما يتسلح به المدرس فى الغالب هو فن المحاضرة . فالصورة المتكررة عن المعلم فى الأذهان هى تلك الصورة المتعلقة بوقوفه أمام مجموعة من التلاميذ والإبانة عما فى ذهنه من معلومات . ولكن الواقع أن القدرة على تشكيل مجموعات من التلاميذ تستهدف أهدافا معينة ، لمما يفعم وظيفة التعليم بالحيوية ولمما يجعل من المعلم لا مجرد شخص يبين عما فى خلده من معلومات بل يجعله صانعا للشخصيات الاجتماعية . ذلك أن الشخصية الاجتماعية التى نصبو إلى تكوينها فى ناشئتنا هى تلك الشخصية التى تستطيع أن تتواءم مع أكبر عدد ممكن من المواقف الاجتماعية، وهى الشخصية التى تكون المبادرة فى مقدورها وفى قبضتها ، وهى الشخصية التى تستطيع أن تلعب الأدوار الثلاثة المشهورة فى العلاقات الاجتماعية أعنى: دور التابع ودور الند أو الترب أو الزميل ، ودور الرئيس أو الزعيم . أما أن يظل التلميذ أو الشاب فى موقف التابع للمعلم باستمرار وهو دور المستمع بشكل سلبى لما يقال ، فإنه لا يضمن لنا إعداد الشخصية الإيجابية فى المجتمع ، بل يضمن لنا تخريج شباب مبعثر لا يستطيع أن يجد نفسه؛ لأنه تمرس بالخضوع السلوكى والخضوع الفكرى والثقافى لغيره. فلا يتسنى له أن يتخذ موقفًا إيجابيا فى أى مجتمع ينخرط فيه فتشيع السلبية والإمعية فيه وهو ما نخشى أن نقرر أنه منتشر بين شبابنا فى

الوقت الحاضر . فإعداد الرائد الاجتماعى للشباب أهم فى رأينا بكثير من إعداد المعلم التقليدى الذى لا يعرف إلا شرح ما غمض على الطلبة من معلومات . وشتان ما بين الشارح للغوامض وبين من يقوم بريادة الشباب .

أندية العمل

سبق أن عرضنا لأهمية العمل وإتاحة فرصة ممارسته أمام الشباب؛ حتى لا يظل الشخص عيلا حتى نصف عمره ، وحتى لا يكون التعليم معارضا لسنة الحياة . ولقد ثبت أن الذين يتزوجون فى سن مبكرة ويعكفون على تحديد نسلهم يستطيعون الاضطلاع بالدراسة ومواصلة البحث بغير أن يشكل الزواج عائقًا أو معطلا لهم . ولكن كيف السبيل إلى العمل بالنسبة لشاب يرغب فى أن يجمع بين دراسته وبين ممارسته لبعض المناشط التى يمكن أن تدر عليه ربحًا ؟ إن هذا لا يتأتى إلا عن طريق أندية العمل .

وأندية العمل كما نتصورها بمثابة مؤسسات اجتماعية تكون مهمتها القيام مع المؤسسات والمصالح الحكومية لتحديد ما تحتاج إليه كل مؤسسة وكل مصلحة من أعمال موسمية أو مؤقتة ، وتحديد أجر لكل عمل . ويقوم نادى العمل بالتعاقد مع تلك الجهات العامة دفعة واحدة ، ثم يكون دوره الاتصال بالشباب أعضاء النادى ويتعاقد معهم بدوره على الأعمال ويتولى دفع الأجر لهم .

والمفروض فى نادى العمل ألا يكون جهة توظيف . فليس من مسئوليته تثبيت الشاب فى وظيفة ما ، كما أنه ليس من حقه إجبار الشاب على مواصلة العمل فى المكان الذى وجه إليه . إن المبدأ الذى يجب أن يتبعه نادى العمل هو إتاحة الفرصة أمام الشباب للعمل خلال أية فترة زمنية يرغب العمل خلالها مهما قصرت . من الجائز أن تكون العملية المطلوبة عبارة عن تنظيف مدخنة أحد المصانع ، أو المساهمة فى حفر إحدى القنوات .

ومن مزايا أندية العمل: أنها تكفل الكرامة للشباب؛ لأنها مؤسسات خاصة بهم ، ويمكن للشباب أن يترك العمل الذى يسند إليه ليتحمل مسئولية عمل آخر

أكثر ملاءمة له . ناهيك عن أن أندية العمل ستضمن حصول الشاب على أجره بمجرد انتهائه من المهمة الموكولة إليه ، أو حصوله على الأجر يوما فيوما بغير تأخير وبغير حاجة إلى الاستعانة بالروتين الحكومى الذى قد يضطر العامل فى بعض الأحيان إلى الانتظار لعدة أشهر؛ حتى يتسنى له صرف مستحقاته .

ولا تقف مهمة نوادى العمل على مجرد إسناد الأعمال إلى الشباب ، بل إنها ستقوم بدراسة حالة كل عضو من أعضائها الشبان والشابات للوقوف على استعداداته ولتقديم فرص العمل المناسبة له . ولقد يكون نادى العمل فرصة للشاب والشابة؛ لكى يقفا على حقيقة الحياة العملية وعلى حقيقة العمل الذى يعتزمان جعله مصدر رزقهما فى المستقبل . فليكن إذن نادى العمل بمثابة معمل اختبار يستطيع الشاب والشابة من خلاله تمحيص ذاتهما والوقوف على حقيقة استعداداتهما وميولهما . ولا يقتصر عمل نادى العمل على معرفة حالة الشاب والشابة واستعداد كل منهما ، بل إنه يذهب إلى أبعد من هذا بأن يقوم بالتوجيه المهنى ويطبق بإزائهما فنون هذا النوع من التوجيه .

والهدف الأساسى من التوجيه المهنى هو تحقيق الانسجام والتوافق بين الشخص وبين مجالات العمل المختلفة . فالمسألة لاتتوافق إذن عند حد إسناد عمل ما إلى شخص ما بل تتعدى هذا إلى مستوى آخر هو وضع الشاب المناسب أو الشابة المناسبة فى المكان المناسب . وطبيعى أن هذه العملية التكيفية لا تتأتى بسهولة لنادى العمل . ولا يكفي بالنسبة للمسئولين عن النادى العمل أن يكونوا على قدر كبير من الدراية بفنون التوجيه المهنى ، بل إن الممارسة فى حد ذاتها ستكفل وستوفر الخبرات لهذه المؤسسة الاجتماعية التى ندعو اليوم إلى إنشائها لسد حاجة ملحة لدى الشباب . ولسوف يرجع الفضل إلى نوادى العمل فى إعداد موظف المستقبل القادر على تحمل أعباء العمل؛ لأنه أخذ فى تحمل المسئولية منذ وقت مبكر ، ولم يستمر عيلا لأكثر من نصف عمره ، وإذا به يجد نفسه فجأة أمام مسئوليات جسام لم يعتد تحمل أعبائها . فنادى العمل سوف يتدرج بالشاب والشابة فى طريق تحمل مسئولية العمل ، وسوف يبدأ من القليل إلى الكثير ومن السهل إلى الصعب ، ومن العمل المؤقت إلى العمل الدائم .

وفى نادى العمل سوف نجد الإخصائيين الاجتماعيين والإخصائيين النفسيين الذين يقومون باكتشاف الصعوبات الاجتماعية والنفسية التى تجابه الشاب والشابة فى نطاق الحياة العملية التدريبية . ولسوف توجه عناية خاصة إلى التجربة الجديدة التى يجمع فيها الشاب والشابة بين ممارسة الحياة العملية وبين الانتظام فى سلك الحياة الدراسية . ولسوف توجد صلات قوية بين أندية العمل وبين المدرسة والمعهد والجامعة ، ولسوف تقوم مراكز البحث الع مى بالدراسة فيما يتعلق بتأثير ممارسة العمل فى قوة الشخصية ، بل وفى كمية التحصيل العلمى ، وفى مدى ارتباط الفكرة العملية المكتسبة بالإفادة بها وتطبيقها فى مجالات الحياة المتباينة .

ولسوف تكون من مسئولية نادى العمل إقامة معسكرات العمل الثابتة والمتنقلة ، وسوف تقوم بالتعاقد مع الشاب والشابة وتوجيههما إلى أماكن التنقيب بالصحراء ، بل سيكون لها الفضل فى إرساء الأسس الأولى للمدن الجديدة التى ستقام حول مناطق التعدين بالصحراء . ولسوف يكون من مهمة نادى العمل النهوض بالأعمال المؤقتة المتعلقة بالبناء والتشييد والنقل وغير ذلك مما يحتاج إلى أيد عاملة غير ثابتة وغير دائمة .

والواقع أن قطاع العمل الموسمى أو المؤقت لا يقل حجما عن قطاع الأعمال الثابتة . أضف إلى هذا أن تلك الأعمال غير الثابتة تعتبر اللبنة الأولى للأعمال الثابتة . خذ مثالا لذلك بناء أحد المصانع . إن عملية بناء المصنع وتجهيزه عملية غير دائمة ، ولكن ما إن يبدأ عمله حتى يتحول العمل فيه إلى عمل دائم فى مجموعه . ولا شك أن تعيين عامل كموظف ثابت للقيام بعمليات متقطعة أو متناثرة أو عارضة إنما يحمل ذلك العامل على التراخى وعدم الانتظام ، بل إنه يضربه بالملل والإحساس بعدم المسئولية .

ومن المتوقع بالنسبة لأندية العمل لدى إنشائها أن تمتد بنشاطها إلى الدول العربية بل وإلى الدول الأفريقية والأوروبية ، وذلك عن طريق اتصالاتها بجهات العمل هناك واتفاقها معها على إيفاد العاملين فى الإجازات الصيفية

ونصف السنة . وبهذا ينفتح مجال الاتصال بتلك الشعوب البعيدة عنا ، وتلقى الخبرات بالترحال إليها والعمل فيها . وطبيعى أن كثيرًا من الشباب يرغبون اليوم فى العمل فى أماكن بعيدة ولكنهم لا يعرفون الطريق إلى ذلك ، بل إنهم كثيرًا ما يمنون النفس باستثمار أوقات الفراغ ولكنهم لا يجدون من يأخذ بأيديهم أو يرشدهم ويوجههم إلى أماكن العمل .

ويمكن لدعم أندية العمل بعد إنشائها أن تصدر التعليمات إلى الوزارات والهيئات بأن تخصص نسبة مئوية معينة من مجموع ميزانيتها ولتكن ٢٪ مثلا توضع تحت تصرف الجهة الأم التى ستكون مسئولة عن أندية العمل ،وهذه تقوم بدورها بتوزيعها على فروعها . وبهذا تستطيع أندية العمل أن تقدم الأجور عن الأعمال بطريق مباشر إلى الشباب العامل بغير لجوء إلى الوزارات والمؤسسات من جديد لاعتماد تلك الأجور عن الأعمال التى أنجزها الشباب الأعضاء بها .

وإنا لنريد أن يكون نادى العمل جزءًا حيا من حياة كل شاب وشابة . إننا نريد لهما أن ينتسبا إليه ، وأن يجدا فيه كل ما يدخل البهجة على نفسيهما . يجب أن يتضمن نادى العمل كل ما يمكن أن يتوافر فى أى ناد من وسائل ترفيهية ومن أسر ومن اجتماعات دورية ويجب أن يكون هناك اشتراك رمزى يتيسر لكل طالب وطالبة أن يسدداه . ليكن الاشتراك خمسة قروش مثلا فى الشهر؛ لكى يصبح الشخص عضوا فى النادى وحتى يكون له الحق فى المساهمة فى مناشطه الداخلية ومناشطه الخارجية .

وهناك بعض المشكلات الكبرى التى تجابه البلاد والتى تنفق الدولة من جرائها أموالا طائلة وهى مشكلات ملحة يجب الوصول بإزائها إلى حلول حاسمة . من أمثلة تلك المشكلات: مشكلة محو الأمية، ومشكلة نظافة العاصمة، والمدن الكبرى، ومشكلة الذباب، ومشكلة العصافير وخطورتها على المحاصيل الزراعية، ومشكلة الآفات الزراعية، ومشكلة المستنقعات فى بعض مناطق الريف، ومشكلة الأوبئة التى قد تتعرض لها البلاد من وقت لآخر ، كل هذه المشكلات

وغيرها يمكن أن تشكل جانبًا هاما من نشاط أندية العمل ، ويمكن أن ينظم العمل فيها ، وأن ينخرط الشاب فى المجالات والأعمال المؤدية إلى حلها .

ونحن لا نوافق على أن يكلف الشاب بالمشاركة فى أى عمل بغير أن يتقاضى عنه أجرا . يمكن أن يكون الأجر رمزيا . ولكنه أجر على كل حال . ذلك أن الأجر بمثابة رمز لاعتراف المجتمع بما بذله الشخص من جهد ، بل بمثابة رمز العرفان بالجميل وبما أسداه الشخص من خدمات يجب أن يشكر على قيامه بها. ناهيك عن أن الشاب والشابة سوف يحسان بكيانهما الاجتماعى لدى تلقيهما الأجر عما قاما به من عمل . وأكثر من هذا فإن الأجر سيبث فى الشخص إحساسا قويا بالمسئولية وبأنه إذا أخلص فى العمل فإن نادى العمل الذى ينتسب إليه ويشارك فى عضويته سوف يكل إليه فى المستقبل مسئوليات على جانب أكبر من المهارة والتعقد ، وبالتالى فإنه سيحظى بأجر أكبر .

ولكى يسير نادى العمل بطريقة علمية ، فلسوف يخصص لكل عضو به سجل هو بمثابة بطاقة لحالته . ويضم السجل المقترح ما يتصل بالعضو ، كما يضم الأعمال التى وكلت إليه والخبرات الجديدة التى حصل عليها ، والخبرات التى يسعى للحصول عليها . وهنا نشير إلى فائدة هامة سوف يحصل عليها الشاب والشابة من نادى العمل . فسوق العمل المفتوح منذ وقت مبكر أمام الشاب والشابة سيبصرهما بالمطلوب لهذا السوق . وبالتالى فإنهما سيسعيان للحصول على الخبرات المطلوبة للأعمال المفتوحة أمامهما . خذ مثالا لذلك: الآلة الكاتبة . المطلوب أشخاص يجيدون الكتابة على الآلة الكاتبة . لكن الشاب أو الشابة لا يعرفان الكتابة عليها . إذن فمن الممكن أن يفسح نادى العمل مجالا لديه لتلقى مثل هذه الخبرات المطلوبة . فالشاب والشابة لدى التحاقهما بنادى العمل يكونان بمثابة خامة قابلة للتصنيع كيفما يشاء المصنع . إذن يستطيع نادى العمل أن يقدم إليهما الخبرة المطلوبة ، وهما سيعكفان على تعلمها برغبة من جانبهما؛ لأنهما يعلمان أن ما يتعلمانه مطلوب عمليا ولسوف يتمرسان به فى حياتهما ، ولسوف يحصلان نتيجة التمرس به على أجر معين .

ونأسف إذ نقرر: أن كثيرًا جدا من طلاب وطالبات المدارس الثانوية التجارية غير واثقين من أنهم سوف ينتفعون بما يتلقونه من مواد دراسية – ويضمنها الكتابة على الآلة الكاتبة – فى حياتهما العملية؛ ذلك أن مهمة المدرسة التجارية الثانوية تتوقف عند حد تطبيق المناهج التى تم الاتفاق عليها فى نطاق وزارة التربية والتعليم بغير أن يكون هناك اتصال مسبق بجهات العمل ، وبغير أن يكون هناك تأكيد بأن ما يتعلمه الطالب سينتفع به بالفعل فى سوق العمل . ومن ثم فإن هذا الشعور يشيع التشكك فى قيمة ما يدرسه بمدرسته ، وبالتالى فإنه يتخلف فى دراسته أولا يقبل على تلقيه بهمة وحافز متقد .

يقول لنا علماء النفس: إن المكافأة العاجلة أقوى فاعلية من المكافأة الآجلة . إنك إذا علمت أنك إذا تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة؛ فإنك ستحصل بعد ذلك مباشرة على عمل يتطلب الكتابة عليها ، وأنك ستنال عن ذلك أجرا يجعلك سعيدًا ميسور الحال ، فإنك ستقبل إذن على تعلمها . طبيعى أن هذا أفضل جدا من التحاقك بإحدى المدارس الثانوية التجارية لمدة ثلاث سنوات تحصل خلالها على المعلومات والمهارات ، ولكنك فى نفس الوقت لا تعرف بالضبط ما هى المادة التى ستكون بحاجة إليها فى حياتك العملية ربما لا تكون بحاجة على الإطلاق إلى مادة مسك الدفاتر أو الاختزال . ولعلك تقول لنفسك : « ما دمت غير مستوثق من مدى انتفاعى بما أدرس . إذن لماذا أدرسه ؟! أو لماذا أتقن ما درس ؟! » والواقع أن الفلسفة التربوية الخاطئة التى تدعو إلى فصل جهة التعليم عن جهة العمل لهى فلسفة ضارة بكل من العلم والعمل . إنها تفصل العقل عن اليد أو تفصل الناس عن حياتهم الحقيقية .

والحقيقة المؤسفة أن المدرسة كثيرا ما تتخلف عن ركب الحياة العملية . ذلك أن من المعروف أن الحضارة الإنسانية ليست حضارة ثابتة . إنها متطورة باستمرار ويتدفق ومن ثم فإنها تهجر أشياء كانت متشبثة بها ، وتأخذ بأشياء لم تكن موجودة ، أو كانت موجودة ومهملة ولكنها رجعت إليها . إن المجتمع فى ذلك كالفرد . إن الواحد منا كثيرا ما يترك أشياء كان مشغولا يوما بها ، ثم يأخذ نفسه

بأشياء جديدة لم تكن تملأ عليه حياته قبلا بل كان قد ابتذلها وأهملها . خذ مثالا لذلك بالنسبة للمجتمع: مهارة الاختزال: لقد كان الاختزال قبل ذيوع أجهزة التسجيل الصوتى له مكانة هامة . ولكن بعد أن انتشرت أجهزة التسجيل الصوتى ، لم تعد هناك أهمية للاختزال بنفس الأهمية التى كانت له قبل اختراعها أو ذيوعها .

ومما يجب أخذه فى الاعتبار ، الحاجة العددية من كل فئة من العاملين . فإذا كان السوق محتاجا إلى مائة شخص لديهم خبرة معينة ، فيجب ألا نعمد إلى إعداد مائة وخمسين شخصًا لهذا الغرض ، إذ إن معنى هذا أننا سنستفيد من مائة شخص ولا نستفيد من خمسين شخصًا بذلوا جهدا فى الحصول على تلك الخبرة . وهناك مسألة أخرى يجب أخذها فى الاعتبار . قد تكون الحاجة إلى خبرة معينة. ولكن المسئولين عن تعليم الشخص لا يكتفون بكسبه لتلك الخبرة المطلوبة ، بل يضيفون إليها خبرات أخرى متخصصة غير مطلوبة . فتجد أن الآلة الكاتبة المطلوبة بجانبها الاختزال ومسك الدفاتر وغير ذلك من خبرات غير مطلوبة .

والواجب أن تقدم الخبرة المطلوبة فحسب لاكتسابها . والواجب أيضًا أن يتجاور العمل مع مجال تلقى الخبرات ، وأن تكون الخبرة المكتسبة وظيفية فى الحياة العملية . وليس ثمة مانع عملى أو منطقى يحول دون اكتساب خبرات جديدة كلما ظهرت الحاجة إلى اكتسابها . فمثلا إذا احتاج العمل إلى الاختزال ، فيجب أن يحصر العدد المطلوب من الشباب بالضبط ثم حملهم على تعلمه وإتقانه . هذا ما سيضطلع به نادى العمل فى المستقبل .

والواقع أن أندية العمل المقترحة سيكون لها أعظم الأثر فى التعليم . إنها ستكون مصدرًا أساسيا لنشوء ثورة تربوية فى مصر ، بل وفى البلاد العربية كلها . لسوف ينفتح الشباب عن طريقها على آفاق الواقع ، ولسوف تكون المدرسة والمعهد والجامعة فى ارتباط وثيق بالواقع ، بل إن المناهج فى المستقبل ستكون خاضعة لما تقدمه أندية العمل من ملاحظات ومقترحات . ولعلنا لا نجانب

الصواب إذا قلنا: إن العمل هو الأساس والجوهر ، وإن العلم وسيلة لجلاء هذا الجوهر وإبراز كيانه وتجويد إنتاجه . وإذا كان العلم حقا وواجبا بالنسبة لكل مواطن ، فإن العمل حق وواجب بالنسبة لكل مواطن أيضًا . فنحن نؤكد حق كل مواطن فى عمل يتناسب مع كفاءته واستعداده ومع العلم الذى يحصل عليه . ذلك أن العمل فضلا عن أهميته الاقتصادية فى حياة الإنسان فإنه يؤكد الوجود الإنسانى ذاته .

توزيع الثروة البشرية

يجدر بنا أن نؤكد بادئ ذى بدء أن الإنسان وإن كان حرا فيما يختاره لنفسه من خبرات ، فإنه ليس كذلك فيما يتعلق بالاختيارات الوظيفية التى يستطيع أن يضطلع بها فى المجتمع الذى يعيش فى إطاره . ذلك أن العمل الذى نضطلع به فى المجتمع ليس له صفة مزاجية شخصية بقدر ما له من متطلبات اجتماعية . فليس هناك من عمل واحد يضطلع به الفرد فى المجتمع؛ لكى يحصل منه على رزق إلا ويكون المجتمع بحاجة إليه . وأى شىء يخرج عن هذا النطاق لا يكون واقعا ضمن الأعمال الشريفة ، بل يكون فيه خروج عن المجتمع وتحد لقيمه ومعاييره الاجتماعية أو الأخلاقية .

ولكن قد يقول قائل : إن العمل بالمجتمع الحديث – أعنى: المجتمع الحضارى – يرتبط ارتباطا وثيقًا بالخبرات المقننة والمحددة التى يحتاج إليها ذلك العمل – وهذا صحيح – ولكن مع هذا فإننا نستطيع أن نقول: إن كل عمل بالمجتمع الحديث يحتاج إلى مجموعة من الخبرات المعينة ولكن العكس ليس صحيحًا . فقد نجد – وهذا واقع بالفعل – كثيرًا من الخبرات لا ترتبط ارتباطا مباشرًا بأى عمل من أى نوع ؛ ذلك أن الخبرات التى يمكن أن يحصل عليها الفرد أوسع نطاقا من المتطلبات العملية المتعلقة بلقمة العيش وبتعبير آخر يمكن القول بأن كل عمل يتضمن خبرة ولكن ليست كل خبرة تتعلق بعمل أو بممارسة وظيفية بقصد الحصول على أجر من وراء ممارسة تلك الخبرة . وهذا يشير إلى ما يسمى

بالهوايات أو العلم للعلم أو الثقافة للارتقاء بالشخصية أو المناشط الدينية التى يضطلع بها الفرد العادى من غير رجال الدين . وبهذه المناسبة فإننا نجد أن الخبرة التى يتمرس بها رجل الدين هى خبرة وظيفية، بينما نجد أن نفس الخبرة أو نفس المعلومات الدينية التى يستخدمها رجل الدين باعتبار أنها من متطلبات وظيفته تقصد لذاتها بالنسبة للفرد العادى الذى يجد فى حصوله عليها أو تمرسه بها أو إيمانه بمضامينها لذة أو مقاصد أخروية حيث يلقى الجزاء الصالح بالآخرة .

ومعنى هذا: أننا لا نريد للخبرات جميعًا على اختلافها أن تقاس فى ضوء المصلحة المادية ؛ ذلك أن مثل تلك النظرة النفعية تجعل الحضارة الإنسانية والثقافة الإنسانية ثقافة وحضارة ضيقتين باليتين ، بل وتجعل الحياة فجة واهية قابلة للذبول السريع ، بل إنها تطفئ بريق الحياة ، وذلك باستحالتها إلى حياة مادية صرفة خالية من الجانب الروحى أو الجمالى أو الثقافى بالمعنى الحقيقى للثقافة .

وحيث إن المسألة قد اتضحت بهذا الشكل ، فإننا نستطيع أن نقسم الأعمال أو الوظائف على تباينها – سواء كانت وظائف عامة أو وظائف خاصة – إلى نوعين أساسيين : نوع تطبيقى نفعى ، ونوع تطبيقى أو ابتكارى تتجلى قيمته فى ذات الممارسة وليس فى النتائج المترتبة على تلك الممارسة . ولنضرب مثالا للنوع الأول: بالمهندس المعمارى والنوع الثانى : بالموسيقار ؛ فنجد أن المهندس المعمارى يطبق النظريات المعمارية بإزاء ما يشيده من مبان ، وتتجلى فائدة النظريات الهندسية المعمارية التى يضطلع بها بدراستها فى ضوء مدى الفائدة التى تتأتى عن التطبيقات المعمارية التى يضطلع بها، أما بالنسبة للموسيقار ، فإن المستهلك لخدماته يلتذ ويستمتع ولكنه لا يحصل نتيجة الالتذاذ والاستمتاع على منافع مادية . وقد يكون الموسيقار مجرد مطبق أو منفذ لنوتة موسيقية وضعها أحد الملحنين كما قد يكون هو نفسه واضع اللحن ابتداء فيكون بذلك من المبتكرين الأصليين ، صحيح أن مجال الابتكار ليس مغلقًا أمام المهندس

المعماري ولكنه مجال أضيق بكثير من ذلك المجال المفتوح على مصراعيه أمام الموسيقار .

والواقع أن هناك تقسيما آخر – أو بتعبير آخر تسمية أخرى – لهذين القسمين اللذين قسمنا إليهما جميع الأعمال : قسم يتعلق بالموضوعات غير الإنسانية وقسم آخر يتعلق بالإنسان . فالطبيب وإن كان يقوم بعلاج الإنسان فإنه لا يعالجه باعتبار أنه إنسان بل باعتباره كائنا حيا يصاب بمرض ما ، وتكون نظرته إليه نظرة موضوعية شيئية . إما إذا تطرق الطبيب إلى الجانب النفسي للمريض فإنه يكون قد انتقل من النظرة الشيئية إلى النظرة الإنسانية . وبذا نستطيع أن نضم ذلك الطبيب فى هذه المرحلة إلي الفريق الثانى وذلك؛ لأنه يكون قد ترك التطبيب بالمعنى البيولوجى باعتبار أن الإنسان كائن حى شيئى شأنه شأن أى كائن حى آخر واتجه إلى النظرة السيكلوجية الإنسانية التى يشارك فيها الطبيب المريض نفسه بذاته . ذلك أنه يكون فى شركة تبادلية مع المريض وذلك قياسا على ذاته . فهو يقيس العادى أو السوى فى ضوء حالته وأوضاعه الشخصية وما قد ينحو إليه من أساليب سلوكية فى حياته اليومية. ومن يشذ عن ذلك يكون إذن شاذا وبالتالى يكون بحاجة إلى علاج . وكل ما هو إنسانى سواء كان متعلقا بالفرد أو بالمجتمع وسواء تعلق بالتكوين المورفولوجى للإنسان الفرد أو الإنسان المجتمع أو كان متعلقًا بالنتاجات الخبرية كالأدب والفن والموسيقى فإنه ينخرط فى نطاق الفئة الثانية وهى الفئة الإنسانية .

وبالنسبة لهذه الفئة الأخيرة فنرى أنه يجب ألا يحد من عدد المقبلين على دراستها بحجة أن سوق العمالة ليست بحاجة إلى جميع الأعداد المتقدمة إليها .

ويجب أن يفهم الشاب أن الدراسات الإنسانية قد ترتبط بالتمرس المهنى وقد لا ترتبط بذلك بل تقصد لذاتها ، ويجب أن نميز مثلا بين طالب الآداب وبين طالب كلية التربية فالطالب الأول لايرتبط من قريب أو من بعيد بالوظائف ولكن طالب التربية يرتبط ارتباطا مباشرًا بالعمل فى حقل التربية والتعليم . ومن

الخطأأن ننظر إلى كلية الآداب باعتبار أنها كلية لتخريج المدرسين . صحيح أن خريج الآداب قد يشتغل بالتدريس ، ولكن هذا يجب ألا يكون حتما أو المصير المؤكد بالنسبة لمثل هذا الطالب . فمثل تلك الكلية يجب أن تفتح أبوابها أمام الإنسان لكى يدرس الإنسان؛ وما أنتجه من آداب وفنون عقلية لا ترتبط بالضرورة بالمهنة التى سوف يتمرس بها الشخص مستقبلا فى الحياة . ولسنا نجد ما يمنع من أن نرى طبيبًا أو مهندسًا وقد التحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو الآداب الإنجليزية أو الفرنسية ، أو غير ذلك بغير أن يقصد من وراء ذلك تغيير مهنته التى يتمرس بها . فدراسة الآداب بأنواعها يجب أن تقصد لذاتها ولا يكون المنخرط فيها مؤملا فى الحصول على وظيفة من وراء التحاقة بها . ولكن يمكن أن ينتهى الشخص من دراسته فى تلك الكلية إلى الانخراط بعد ذلك فى كلية من كليات التربية؛ لكى يحصل على المؤهل التطبيقى المتعلق بالتدريس وفنونه . وهذا لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه من أن كلية الآداب ليست كلية لأكل العيش وذلك لأننا اشترطنا أن يلتحق الخريج فيها بإحدى الكليات التطبيقية فى مجال أو آخر من الفنون التطبيقية .

وبمناسبة التحدث عن كليات التربية – أو عن غيرها من كليات تطبيقية إنسانية ككلية الإعلام مثلا – فإننا نستطيع أن نميز بين الدراسة الإنسانية الخالصة وبين الدراسات الإنسانية التطبيقية وهى فى هذه الحالة تكون دراسة تقنية . ونستطيع أن نقرر: أن مثل تلك الدراسة التقنية الإنسانية لا تختلف كثيرا فى جوهرها عن الدراسة بالكليات التقنية الشيئية . فليس هناك اختلاف جوهرى بين المهندس المعمارى وبين الإذاعى أو الصحفى أو المدرس التربوى . ولكن الاختلاف يتضح إذا ما قارنا هؤلاء جميعًا بالفنان أو الأديب . والمفروض ألا نزعم: أن الأدب أو الفن يقعان ضمن الوظائف التطبيقية وذلك لأنها مناشط ابتكارية وهما يتعلقان بالإنسان من حيث هو إنسان ، ويكون موقف المتمرس بهما موقف العاشق وليس موقف المستفيد حتى وإن ترتب على التمرس بهما فائدة مادية مباشرة أو فائدة معنوية غير مباشرة .

ونحن نطالب بتوزيع الثروة البشرية بإزاء جميع الأعمال التقنية سواء كانت التقنيات شيئية أو كانت إنسانية . ولكننا لا نطالب بنفس الشيء بالنسبة لدراسة الإنسانيات وهى دراسة عشقية كما هو الحال بالنسبة لطالب الآداب أو طالب الفن ، بل يجب أن نشجع أكبر عدد من المواطنين للإقبال على رحاب الأدب والفن والنهل منهما . بيد أننا يجب أن نعلن على الملأ أن المقبل على دراستهما يجب ألا يكون قد وضع نصب عينيه النفع المادى أو الامتهان بمهنة من وراء الالتحاق بهما . ولكن إذا كانت هناك معاهد أو كليات تالية تؤهل الشخص لمهنة معينة أو لاكتساب مهارة تطبيقية تقنية معينة تتعلق بشكل مباشر أو غير مباشر بالفن أو بالأدب ، فهذا شيء آخر لا يجب أن يدخل فى حساب كليات الآداب وكليات الفنون التى تقدم الثقافة لذات الثقافة وليس لطالبى لقمة العيش .

ولكن هذا لا يعنى أننا نترك الأمور تسير اعتباطا بالنسبة للشباب ، بل يجب أن نعمل جاهدين على توزيع الثروة البشرية توزيعًا سليما حسب احتياجات المجتمع . وذلك بالنظر إلى المستقبل . فالمسألة إذن بحاجة إلى نظرة تنبؤية خاصة بما سوف يكون المجتمع بحاجة إليه من وظائف سواء كانت وظائف حكومية أو وظائف بالقطاع العام أو وظائف بالقطاع الخاص . وليس من المتعذر وقد تقدمت فنون الإحصاء أن نضع خريطة تضم احتياجات سوق العمالة بعد خمس سنوات مثلا . صحيح أن أية خريطة توضع لهذا الغرض تكون خريطة تقريبية ولكنها تكون مع ذلك دقيقة إلى حد بعيد ، كما تكون أقرب ما يكون إلى واقع الحاجات الفعلية للمجتمع بفرض أننا نتحرى الدقة فى وضعها واستغلال الإمكانيات العملية والتقنية المتاحة لدى تخطيطها .

والواقع أن هناك مشكلة طالما احتدم النقاش بإزائها بين دعاة الحرية الإنسانية الفردية وبين دعاة التوجيه الحرفى والمهنى . فأصحاب الدعوة إلى الحرية يطالبون بعدم التدخل فى شئون الفرد الشخصية ؛ وترك الأمور تجرى فى أعنتها بغير تدخل أو توجيه من جانب الكبار أو المتخصصين بأمور التوجيه . أما المتحمسون للتوجيه المهنى والحرفى فإنهم يطالبون بالتوجيه إلى اكتساب

الخبرات المتعلقة بالمهن التى سوف يكون المجتمع بحاجة إليها لدى انخراطه فى سلك الحياة العملية وذلك تجنبًا للبطالة أو البطالة المقنعة . والبطالة المقنعة تتبدى فى تكديس موظفين أكثر من العدد المطلوب فى مقر العمل وذلك تجنبا للبطالة الصريحة أو التسكع فى الطرقات أو التعرض للمجاعات أو الخروج على القانون للحصول على لقمة العيش بالوسائل غير المشروعة التى لا يقرها المجتمع .

والواقع أن تنسيق التعليم قد انتحى حتى اليوم إلى قبول الطلاب فى ضوء عدد الأماكن التى تستطيع كل كلية إتاحتها لمن يقبلون بها من طلاب وذلك فى ضوء مجاميع الطلاب وتبعًا لمبدأ العرض والطلب . والعرض هنا هو المجاميع وعدد المتقدمين أما الطلب فهو الأماكن المتاحة بكل كلية . ونقطة الضعف هنا تتبدى فى أن ثمة مغايرة واختلافا جوهريا بين ما يمكن أن يتاح فى إحدى الكليات من أماكن لقبول الطلاب وبين حاجة سوق العمالة بالفعل فى المستقبل إلى هؤلاء الطلاب لدى تخريجهم فيها بعد بضع سنوات . وشتان ما بين فائدة التنسيق فى ضوء عدد الأماكن المتوافرة بكل كلية وبين التنسيق فى ضوء إحصاء واقعى مستقبلى يتعلق باحتياج السوق إلى كل فرد من الأفراد المقبولين بكل كلية . ولا شك أن من الخطل بل ومن الانفصام بين نشاط الجامعة وبين الواقع الاجتماعى للمجتمع أن تغمض عينيها عن الواقع الاجتماعى بخارجها بينما هى تركز كل اهتمامها وتصب كل همها إلى ما يعتمل بداخلها وما يتاح فى رحابها من أماكن . إن الجامعة بهذا النهج تكون أنانية للأسف بل وتكون غريبة عن الواقع الاجتماعى ، بل تكون مجرمة فى حق المجتمع الذى أنشئت من أجل خدمته وسد مطالبه . ولا يخفى على أحد أن اتباع الجامعة لهذا النهج يمكن أن ينتهى إلى نتيجة أخرى وهى عدم سد حاجة المجتمع إلى عاملين فى قطاعات لم تعمل على توافرم ولم تعكف على إعدادهم اعتمادًا على المواد الإحصائية الدقيقة التى تتيحها لها أجهزة التخطيط والإحصاء المتخصصة فى ذلك .

ولعلنا نفعل خيرًا إذا نظرنا إلى المسألة بشكل واسع فلا نقصر حديثنا على الجامعة بل نعمم الكلام فنقول: إن المؤسسات الخبرية جميعًا التى يمكن أن تسد

حاجات المجتمع من عاملين يجب أن تعمل شيئين : أولا: تطوير أنفسها باستمرار بحيث توائم بين ما فى جعبتها من خبرات وبين ما يحتاج إليه سوق العمالة . ثانيا: أن تقبل الأعداد المطلوبة لسوق العمالة من المتقدمين إليها بغير زيادة أو نقصان . ولعلنا نزعم بحق أن خرائط العمالة إذا ما أعلنت على الشباب ، فإنه سوف يكون بمقدور كل شاب أن يوفق بين رغباته وميوله الشخصية وبين الخبرات التى يقبل على اكتسابها من مصدرها .

وما نؤكده باستمرار هو ضرورة التوفيق بين الخبرة المقدمة وبين الحاجة الحقيقية لسوق العمالة بحيث لا يحدث فصام بين الخبرة المقدمة وبين العمل المطلوب . ولا ننسى أن عملية التطوير الخبرى للمواطن يجب أن تكون عملية مستمرة طوال حياته العملية وذلك حتى يتحقق التكيف الخبرى للمواطن مع المتطلبات العملية التى يستلزمها سوق العمالة.

الدستور الأخلاقى للشباب

نريد فى هذه الفقرة أن نحدد بعض المبادئ أو الأسس التى يقترح على الشاب مراعاتها فى مسلكهم فى الحياة . ونرى من وجهة نظرنا أنها تؤدى إلى سلوك متين وغير متناقض ، بل ومتفتح على آفاق رحبة ومؤد إلى حياة خصبة مستنيرة .

(١) ليكن سلوكى معبرا عن جوهر شخصيتى : فلا نريد أن يكون هناك تناقض بين ظاهرية السلوك وبين باطنيته . وعلى الرغم من أن هذا مثل أعلى بعيد المنال ، إلا أنه ميسور للشخص أن يقترب منه ، وأن يجاهد فى سبيل تحقيقه، وذلك بأن يدأب دوما على إزالة التناقضات من حياته الشخصية .

(٢) فلأتعلم كيف أختار من بين أشياء أو بدائل كثيرة : الحياة أمامنا خصبة رحبة ، وحياة كل منا هى حياته وليست حياة غيره . ويجب أن نرنو إلى أن يكون اختيارنا هو لنا وفى أيدينا وليس فى أيدى الآخرين . نعم ربما نعجز عن الاختيار أحيانا ، ولكن يجب ألا يشيع العجز عن الاختيار فى أنحاء حياتنا وفى

مواقفها المتباينة . فلندرب أنفسنا على تحمل مسئولية الاختيار . فإذا ما تدربنا على ذلك ، فسوف تكون اختياراتنا فى المستقبل سديدة .

(٣) يجب علي أن أستمر فى اكتشاف ذاتى فى تفتحها المستمر : إنك لا تستطيع أن تكشف أغوار ذاتك دفعة واحدة . وإنك اليوم غيرك بالأمس ، وأنت اليوم غيرك غدا.إن شخصيتك بمثابة مجموعة هائلة من التفاعلات المعقدة والمتشابكة . كلما مر عليك يوم تكون شخصيتك المركبة قد أفضت إلى خصائص جديدة تصير بحاجة إلى تفاعلات جديدة . فعليك باستمرار اكتشافك حتى تستطيع رؤية الطريق أمامك .

(٤) يجب على أن أفهم العالم من حولى ولأستمر فى تفهمه : ما يقال عن شخصيتك يقال أيضًا عن العالم من حولك . إن الوجود – وبخاصة الحضارة الإنسانية – فى تغير وتدفق مستمرين . عليك بالوقوف على الخطوط العريضة فيما يور حولك؛ حتي لا تضحى غريبًا عن واقعك البيئى الاجتماعى . عليك أن تظل دائما طافيا فوق الواقع ، وإلا غمرك ذلك الواقع وأغرقك فى باطنه فلا ترى شيئًا من حولك .

(٥) لابد إذن من الاستمرار فى تحصيل الخبرات : ذلك أن الخبرة هى النتائج السلوكية المترتبة على ما يدركه الفرد أو يتمرس به ، والتوقف عن اكتساب الخبرات الجديدة معناه: الذبول السلوكى المفضى إلى ضمور الشخصية .

(٦) لابد من الدأب على استخدام خبراتى فى مواقف الحياة ، لأن التوقف عن استخدام الخبرة يؤدى إلى ذبولها ، فإذا نحن عمدنا إلى استخدام خبراتنا التى حصلنا عليها بصفة مستمرة وفى مواقف متعددة ومن زوايا كثيرة ؛ فإنها تظل ملكا لنا . أما إذا نحن أهملنا استخدامها ؛ فإنها سوف تفلت منا وتبعد عن نطاق سيطرتنا .

(٧) يجب أن أحافظ على مرونة شخصيتى بحيث أستطيع تعديل سلوكى كلما اقتضى نسق حياتى ذلك : فكما أن الجسم يجب أن يتسم بالمرونة حتى يكون أكثر كفاءة فى أداء الحركات المطلوبة منه فى المواقف المختلفة ، كذلك يجب أن أكون قادرا على تعديل سلوكى بمرونة حتى أكون أكثر قدرة على التوافق مع المجتمع، والمرونة فى السلوك تختلف عن التلون والنفاق ، والمنافق ضيق الأفق ، لأنه لا يريد إلا إرضاء شخص أو أشخاص ، أما صاحب السلوك المرن فإنه شخصية واسعة الأفق رحبة التفكير ، إذ إنه يُقْدم على تعديل سلوكه بفكر واضح وفي ضوء اعتبارات موضوعية وواقعية وجيهة .

(٨) يجب أن أتقن ما يسند إلى من مسئوليات ، وأن أجهز طاقة كافية لكل عملية أضطلع بها : ولكى أحقق هذا الإتقان فى حياتى العملية ، يجب أن أتفهم المسئولية المنوطة بى تفهما جيدًا ، ثم أمرن نفسى على العمليات التى تتضمنها ، ثم أصحح الأخطاء التى أقع فيها ، ثم آخذ عن الآخرين خبراتهم فى هذا المجال ، وأن أكون صريحًا مع نفسى جريئًا فى تقويمها وتعديل مسارها ، وأن أكون مستعدًا لبذل مزيد من الجهد كلما تطلب الموقف ذلك .

(٩) فى حالات الفشل ، يجب ألا استسلم لليأس ، بل يجب أن أوظف إحساسى بالأسف فى إثارة كوامن فكرى للوقوف على أسباب الفشل ، ووضع خطة جديدة لإحراز النجاح فى المستقبل : والواقع أن المهم هو الوقوف على أسباب الفشل الحقيقية . ولكى أعرف ذلك يجب أن أهدأ نفسا ، وألا أحكم على نفسى بالعجز بعد الإخفاق مباشرة . على أن أقوم أولا باستبعاد هدوئى النفسى، وبعد ذلك أبدأ فى دراسة الموقف من جميع جوانبه .

(١٠) يجب ألا أكون خاضعًا عقليا أو نفسيا لسلطة الآخرين : يجب أن تكون طاعتى للكبار والرؤساء طاعة المتبصر الحر ، ليست طاعة الأعمى العبد . الشخصية القوية لا تخضع للإيحاء بسهولة . وإن بها طاقة نفسية وعقلية تستطيع أن تقيها من شر الذوبان فى شخصية الغير . يجب أن أحتفظ دائما بكيانى الفردى المستقل وألا أذوب فى أحد أيا كان .

(١١) **فلأفهم مرامى الآخرين على حقيقتها** : فلا أنخدع بالكلام المعسول الزائف ولا أتشكك فى نيات المخلصين . ليتنى أستطيع اكتساب القدرة على معرفة كل شخص على حقيقته ، وأن أقف على مشاعره ونيته بتجاهى .

(١٢) **يجب على أن أقيم علاقات إيجابية مع أكبر عدد من الناس ، وأقل عدد من العلاقات السلبية مع بعض الأفراد** : فمن يقول: لك إن جميع علاقاته بالناس إيجابية ،فهو إما كاذب وإما أبله . لابد من وجود بعض الأعداء أو المناوئين أو المنافسين . المهم هو أن تحتفظ بصداقة أكبر عدد من الناس ، ولا تلقى بالا إلى أولئك الذين يخاصمونك ويتربصون بك . هناك أشخاص يخشون من تفوقك عليهم ، فيناصبونك العداء لتعطيل مسيرتك . انظر إلى الأمام ولا تتلفت حولك ، ولا تنصت إلى إيحاءاتهم . ولكن حذار من خططهم .

(١٣) **يجب أن أتصف بالشجاعة فى كل مواقف حياتى** : ذلك أن الشجاعة سلاح جبار يقهر أعداءك؛ويشد أزر أصدقائك ويجمعهم حولك . فنحن لا نحب أن نصادق الجبناء ، ولكننا نهفو إلى التعرف بالشجعان ، وإقامة علاقة صداقة وود معهم .

(١٤) **يجب على أن أكون أمينا بإزاء ممتلكات الآخرين ، فلا آخذ إلا ما يخصنى وأن أترك لغيرى ما يخصه** : والأمانة لا تنصب على الأشياء المحسوسة فحسب ، بل تنصب أيضًا على الأشياء المعنوية . لاتعزو أفضال الآخرين إلى نفسك . أعط كل ذى حق حقه حتى تتصف بالأمانة وتتحلى بتاجها العظيم .

(١٥) **على أن أفتح دائما مجالات جديدة أمامى ؛ ذلك أن تجديد الأهداف هو أيضًا تجديد لحياتى** : فالشخصية صاحبة الأهداف الكثيرة والدقيقة والخصبة والمتجددة هى تبشر بالخير الوفير . أما الشخصية المتقوقعة حول أهداف محدودة فهى شخصية فقيرة ضحلة ، وربما تفشل حتى فى تحقيق أهدافها الضيقة الهامدة .

(١٦) ليتنى أتعلم كيف أتعاون مع الآخرين بحيث يكون جهدى جزءًا لا يتجزأ من جهودهم : وشرط التعاون أن يكون نابعا بحرية من جانبى ، وبإقبال ورغبة حقيقيين وألا أكون متوجسًا فى نيات الآخرين ، بل أكون مستعدًا لمساندة من يعجز من زملائى فيما يرهقه من عمل مادمت انتهيت من الجانب المطلوب منى .

(١٧) **يجب ألا أحتقر أحدًا** : بل أتشح باحترام الناس جميعًا ، الكبير والصغير ، الغنى والفقير، العالم وغير المتعلم . ويجب أن أحس بالتقدير لكل المجتمع ، البدائى والمتحضر، الغابر المنقرض والحاضر المزدهر. وأكثر من هذا يجب أن أحترم الحياة فى جميع أشكالها وأن أحس بالانتماء والقرابة معها .

(١٨) **يجب ألا أجعل الحضارة تطمس إحساسى بالطبيعة** : يجب أن أفهم الكون وأن أقف على الأشياء بنظرة متجددة متفتحة . ويجب أن أضم صوتى إلى الداعين إلى الحفاظ على الاتزان البيئى واحترام قوانين الطبيعة ونظامها الدقيق .

(١٩) **فليتدعم إيمانى باطراد بوحدة الثقافة مهما انتشر التخصص**: فمهما كان تخصصى فيجب أن أنظر إلى الثقافة ككل بطريقة تكاملية وأن أعتبر الفكر الإنسانى وحدة لا تتجزأ.

(٢٠) **ليكن ضمن عاداتى اليومية القراءة المنظمة الجادة** : فيجب أن أعتاد القراءة المدققة ، وذلك بتخير الكتب المناسبة لاستعداداتى ، والتى تحتاج منى إلى بذل الجهد وتركيز الذهن . ينبغى ألا تكون قراءاتى الجادة عندما يكون أمامى امتحان فحسب ، بل يجب أن أعتاد مداومة الاطلاع على أمهات الكتب وأكثرها جودة وعمقًا .

(٢١) **يجب أن أنمى قدراتى اللغوية باستمرار** : فبقدر ما يكون فى جعبتى من ألفاظ لغوية تغطى المعانى التى أرمى إلى التعبير عنها ، يكون ازدهارى الفكرى ويكون نماء قدرتى على الاتصال بالناس . ولأتعلم كيف أستعين بالحركات المعبرة إحساسى وبغير أن تكون الحركة الصادرة عنى لازمة تفرض نفسها على وجهى أو على أى جزء من جسمى.

(٢٢) فلأتعلم أن أعبر عن نفسى بالكلام والكتابة : وألا يكون موقفى من اللغ موقف السامع الفاهم والمتحدث أو الكاتب العاجز عن استخدام ما يفهمه من معان . يجب على أن أمرن لسانى وقلمى على الكلام والكتابة ، وألا أظن أن الخطباء وحدهم هم أصحاب الكلام ، أو أن الأدباء والعلماء وحدهم هم أصحاب الأقلام والصحائف . كل إنسان متحضر يجب أن يعرف كيف يعبر عن نفسه باللسان والقلم .

(٢٣) ليتنى أتعلم أنه ليس كل ما يعرف يقال : وأن الصمت يكون أحيانا أفضل من الكلام وأن الكلام يكون أحيانا أفضل من الصمت .

(٢٤) لأكن كاتم أسرار من يأتمننى على أسراره ، وألا أطعن فى الآخرين من وراء ظهورهم : فمن أودعك سرا فيجب المحافظة علية بداخل نفسك . وأكثر الأسرار خطورة ما كان متصلا بسياسة بلدك وشئونه الحربية أو السياسية . ولا يجوز لك إفشاء الأسرار الشخصية للآخرين إلا إذا كانت تتضمن خطرًا على حياة أحد المواطنين أو مستقبله أو كان مؤامرة ضد بلادك .

(٢٥) فلأكن مخلصًا لوطنى ومراعيًا لقوانينه وأن أدافع عنه حتى ولو كلفنى هذا حياتى: والواقع أن تحمل المسئولية بأمانة ودأب فى وقت السلم والحرب هو البرهان العملى على حب الوطن والإخلاص له . وليس حب الوطن بالحماس الأجوف أو بالشعارات الزائفة .

(٢٦) فلأهتم بصحتى وصحة غيرى : وألا أتناول من الطعام أو الشراب أو المواد ما يضرنى ، ولأذهب إلى الطبيب إذا ألم بى مرض ، ولأتناول الدواء الذى يصفه لى . وقبل كل شىء يجب أن أدأب على التمرس بالتمرينات الرياضية والحفاظ عليمرونة جسمى ولياقته وقدرته على بذل الجهد بغير كلل .

(٢٧) يجب أن أحس بالولاء الشديد لأسرتى: محاولا بكل طاقاتى أن أشيع السعادة فى ربوع بيتى ، وألا أسبب لأحد أفرادها الكدر أو اليأس .

(٢٨) ليتنى أستمسك بالمثل العليا الروحية وبالقيم الدينية: التى تجعل حياتى نقية ونظيفة والتى تساعدنى على اتساع نظرتى إلى وجودى الذى يمتد رحبا إلى الخلود . فلست كائنا فانيا ، بل كائنا خالدا لا انقطاع فى فكره ، ولا توقف لروحانيته حتى وإن توقف نبضه ، وانخلع عن جسده .

(٢٩) فلأدرب نفسى على احترام معتقدات الآخرين : وألا أكن لهم العداء؛ لاختلاف عقيدتهم عن عقيدتى . فالناس وإن اختلفوا فى المعتقدات ، فإن بينهم أخوة إنسانية تجمعهم فى نطاقها ، والواجب أن تكون الأديان عوامل تقريب بين أفراد الإنسانية وليست عوامل تفريق وتباعد .

(٣٠) فلأتعلم التمييز بين الشعور بالجمال وبين الشعور بالشهوة بتجاه أفراد الجنس الآخر: حبذا لو تعلمت كيف أدرك الجمال فى كل ما يقع عليه بصرى وعلى كل ما يصل إلى سمعى ، وعلى كل ما أدركه بأية حاسة من حواسى الخمس

(٣١) يجب على أن أتعلم معنى التكريس الجنسى فى الحب : ولأجهز نفسيتى بحيث لايخرج منى شخص مزواج أو شخص لا يستقر على زهرة إلا لينتقل منها إلى زهرة أخرى ، ولا يقيم علاقة بامرأة إلا ليتشوف إلى امرأة أخرى. يجب أن أومن بوحدانية الزوجة وأن أعزف بنفور عن مجرد التفكير فى خيانة من جمعت العزم على ربط حياتى بها .

(٣٢) وبالنسبة للشابه أيضًا يجب أن تضع نصب عينيها الثبات فى الحب : ذلك أن التهيئة النفسية والاستقرار الوجدانى والإخلاص فى الحب صفات مكتسبة، وهى صفات عظيمة يجب أن يدرب المرء نفسه عليها . الشابة الفاضلة ليس لها إلا قلب واحد وهى لا تسلمه إلا لشخص واحد ، وستظل طوال حياتها مؤمنة بحبها مدافعة عنه لأنه شرفها وكيانها النفسى والوجدانى .

(٣٣) فى ظل الظروف الراهنة التى يتأجل فيها الزواج : يجب أن أكون مخلصًا فى حبى إذا أحببت ، وأن أفى بعهدى لمن وعدت ، وأن أتقدم بالطلب إلى

الفهرس

أسرة من اخترت . فالزواج بحاجة إلى شجاعة وعدم تهيب وعدم تردد ، وهو رسالة نؤديها للقلب بالحب ، ونؤديها للمجتمع بالكفاح والتضحية والمثابرة .

(٣٤) يجب أن أعترف بمساواة الجنس : وألا أحس بالحقد على أفراد الجنس الآخر، وأن أكون غير متكلف فى تعاملى سواء مع أفراد جنسى أو مع أفراد الجنس الآخر.

(٣٥) يجب أن أحترم الطفولة : واحترامى للطفولة يتمثل فى عدم الإنجاب إلا إذا كنت قادرًا على الإنفاق والرعاية ، ثم يتمثل فى رعاية أبنائى والتضحية من أجلهم ومحاولة جعلهم يتمتعون بطفولة أفضل من الطفولة التى عشتها ، وأن أتلافى الأخطاء التى وقع فيها والداى فى تنشئتى .

★★★

الموضوع	الصفحة

الصفحة

الموضوع

هذا الكتاب

يعرض المؤلف في هذا الكتاب لمشكلتين أساسيتين يعاني منهما الشباب في بلدنا . المشكلة الأولى هي مشكلة استمرار الشباب والشابة لأكثر من نصف عمرهما خاضعين لقيادة الأسرة بغير أن يعتمدا على نفسيهما في اكتساب رزقهما . وهذا يجعل الشباب اتكالاً على الأسرة ، وبالتالي فإن لهذا الوضع آثاراً سيئة في إعداد شخصية المواطن ، ناهيك عن الآثار السيئة التي تعود على إنتاجية الشباب لدى انخراطه في الحياة العملية ، وقد اعتاد الركون إلى أسرته في توفير القوت والكساء له .

أما المشكلة الثانية التي يعرض لها المؤلف ، فهي مشكلة استمرار الشباب والشابة أعزبين حتى سن تكون فيها حيوية الشباب وقوته قد تراجعت أو كادت تتراجع . وينبه المؤلف إلى نتائج ذلك ، ويدعو بصراحة إلى الزواج المبكر ، ولا يجد تعارضاً بين الزواج المبكر وبين نجاح الزواج ، ولا بينه وبين تنظيم النسل .

ومهما اختلف القارئ مع ما يذهب إليه المؤلف من آراء وتفسيرات ، فإنه كتاب جدير بأن يقرأ .

هاني أحمد عرنيتا